

الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية

تاليف: جوناثان ريلى - سميث

ترجمة: د. محمد فتحى الشاعر

اهداءات ٢٠٠٣
أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني
الإسكندرية

Jonathan Riley Smith

THE FIRST CRUSADE
And the Idea of Crusading

جوناثان ريلى ـــ سميث

الحملة الصليبية الأولى
وفكرة الحروب الصليبية

ترجمة

د . محمد فتحى الشاعر

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٩

مشروع الألف كتاب الثاني

نافذة على الثقافة العالمية

فهـــــرس

كلمة المحرر

قوبلت الطبعة الأولى من هذا الكتاب بترحاب كبير ، وقد نفدت بعد بضعة شهور ، ولم يكن هذا النجاح من قبيل المصادفة ، بل كان أمرا متوقعا ، لا لأن الدراسات التاريخية ، كما توضح أرقام التوزيع ، تحظى باقبال كبير بين قراء العربية فحسب ، بل لأنه ، وهو الأهم ، يعالج موضوع الساعة ·

صحيح أن هذا الكتاب يصنف ضمن كتب التاريخ ، وصحيح أنه يدور حول حادثة وقعت قبل نحو ألف عام تقريبا ، ولكنه فى جوهره يعرض لقضية التعصب الدينى والعرقى الذى كان وراء ميـــلاد فكرة الحروب الصليبية ·

هذا التعصب نفسه مازال يحاصر الانسان المعاصر في كل مكان من عالمنا الذى تمزقه الصراعات العرقية والثقافية والدينية ، والذى دفع من حياة الملايين من أبنائه ثمنا فادحا لها ·

ومن المؤسف ، ونحن على أعتـــاب القرن الحادى والعشرين ، أن الكثيرين منا مازالوا يتصورون أن التقسيمات العرقية والثقافية والدينية تعنى فوارق جوهرية بين البشر ، وبالتالى تســـمح بتصنيفهم فى مراتب متدرجة من حيث السمو العقلى أو الروحى أو الثقافى ، رغم أن الفوارق الدينية والثقافية والعرقية بين أشد الجماعات تباينا هى فوارق ظاهرية شكلية لا تمس الجوهر الانسانى ، فالدراسات الفسيولوجية قد أثبتت أن الفارق بين الانسان والغوريلا على سبيل المثال لا يزيد على اثنين فى المائة من مكوناتهما الجوهرية · فاذا كان الفارق طفيفا الى هذا الحد بيننا وبين بنى عمومتنا ، فكيف الحال اذن بيننا نحن البشر ·

ليس المرء بحاجة الى الكثير من الذكاء لـــكى يدرك أن وراء تلك الصراعات العرقية والدينية وغيرها جماعات من المنتفعين الذين يحركون الجماهير ويتلاعبون على عواطفها القومية والدينية لتحقيق مآربهم وشهواتهم للسلطة • وهم يتخفون وراء أسمى الغايات وأنبل الشعارات • فمنهم من يتغنى بحب الوطن يدعو الى تطهيره من دنس الطوائف العرقية أو الدينية المختلفة التى لوثت نقاءه • ومنهم من يدعى أنه حامل لواء الايمان الذى جاء ليحق الحق ويقضى على الباطل وينفذ رسالة الله على الأرض •

هكذا ولدت فكرة الحروب الصليبية وغيرها من الحروب التى تسترت وراء لواء الدين أو العرق لكى تستحل به أرض وعرض ومال الغير •

ومن هنا نود أن نبرز حقيقة هامة لا مراء فيها ، وهى أن تلك الحروب لم تكن صراعا بين المسيحية والاسلام كدينين سماويين ، اذ ان المسيحية التى تقوم فى جوهرها على فكرة المحبة الانسانية لا يمكن لها أن تصدم بالاسلام الذى جاء مكملا لها والذى ناضل فى عصر سادته روح التعصب البغيضة لرفع لواء التسامح وحماية حرية الانسان فى الفكر والعقيدة •

والدرس الذى نخرج به من تلك الحروب أن ظلمات الجهل والتعصب يمكنها أن تحيل أنبل الأفكار وأسمى المبادىء الى أداة تدمير تقوض نفس القيم السامية التى تزعم أنها جاءت لتحميها ••

المحـــرر.

مقدمة

يعود فضل الاهتمام بالحروب الصليبية والفكرة السائدة عن أصول تلك الحروب وتاريخها المبكر الى كتاب كارل اردمان Carl Erdmann «أصل فكرة الحرب الصليبية Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens » . وعلى الرغم من أن ذلك الكتاب صدر منذ خمسين عاما ، فان تأثيره حاليا اقوى من قبل ، لأن ظهور طبعة منه باللغة الانجليزية ساعد جمهورا عريضا من القراء على الاطلاع على هذا الكتاب ، واعتمدت معظم البحوث فى الخمسين سنة الماضية على ذلك الكتاب ، أو توصلت الى استنتاجات مشابهة لاستنتاجاته . رغم أن بعضها اختلف عنه فيما يتعلق بالتفاصيل ، أما فى وقتنا الحاضر، فقد اقتدى ارنست ديتر هيلErnst-Dieter Hehl بما فعله اردمان فى كتابه حيث تقدم ببحث علمى رائع عن موقف الكنيسة من الحرب فى الفترة التى تلت الحملة الصليبية الأولى ، والواقع أن ثمة مفهوما عاما متفقا عليه يقول ان الحرب الصليبية كانت حركة ظلت تتصاعد حتى بلغت ذروتها فى تلك الحرب حيث احتدم الصراع بين مصلحى الكنيسة وبين المعارضين لهم من رجال الدين والعلمانيين ، فاتجه الفريق الأول الى الفرسان المسيحيين

طلبا للمساعدة وذلك في القرن الحادى عشر ، وهناك اعتقاد بأن رسالة البابا أوربان الثانى Urban II الى المؤمنين سنة ١٠٩٥م ، والتى طلب فيها منهم أن يشنوا حربا لمساعدة المسيحيين الشرقيين ، كانت خلاصة لأفكار وعادات موجودة من قبل ٠٠٠ مثل الحرب المقدسة ، والذهاب للحج فى الأماكن المقدسة فى فلسطين ، والحصول على الغفران الكنسى ٠ وعلى الرغم من أن هذه الرسالة لم يفهمها تماما هؤلاء الذين استجابوا لها ، فكثيرون منهم كانت تحدوهم الرغبة فى تحقيق المكسب المادى ، غير أن ثمة آراء تقول ان فكرة الحروب الصليبية لم تصل الى مرحلة النضج الا فى الأربعينيات من القرن الثانى عشر ٠ ففى تلك الفترة تدعمت المفاهيم الخاصة بالحروب الصليبية على أيدى الداعين اليها من أمثال البابا انوسنت الثانى Pope Innocent II والقديس برنار الكليرفوى St. Bernard of Clairvaux وجراتيان Gratian ، العالم الكنسى الكبير ، وقد اعتمد أولئك جميعا على مبادىء الدعوة للمشاركة فى الحروب الصليبية ، وتبلورت تلك المبادىء فى أن الكنيسة ، ممثلة فى البابوات ، تتمتع بالحق الالهى الذى يخولها سلطة الدعوة لشن حرب مقدسة فى سبيل الله ٠

ذلك هو التفسير الحديث المتعارف عليه ، غير أن العلماء الانجليز كانوا من أكثر العلماء مخالفة لهذا التفسير، فقد تشكك الأستاذ كاودرى Mr Cowdrey فى قول اردمان بأن الشغل الشاغل للبابا أوربان كان مساعدة الروم ، وليس تحرير بيت المقدس ، حيث رأى اردمان أن تحرير بيت المقدس يأتى فى المرتبة الثانية ، واعتبره عملا من

أعمال التقوى · ولفت الدكتور بليك Dr Bleke الانتباه الى الأفكار التي علقت بعقول الأوربيين نتيجة للضغوط التى تعرضوا لها اثر شن الحملات الصليبية ·

ويقول البروفسير جيلكرست Gilchrist بأن تأثر البابا أوربان الثاني بآراء علماء اللاهوت الداعين الى العنف كان ضئيلا · وفى هذا الكتاب أود أن أفند زعما سلم كثيرون بصحته ·

فقد تراءى للبعض أن اردمان قد أوفى الحملات الصليبية حقها من الدراسة لأنه انهى كتابه بالحملة الصليبية الأولى ، أما هيل Hehl مثلا فقد خصص عددا قليلا من الصفحات لمناقشة الحملة الصليبية الأولى ، ثم انتقل بعد ذلك لمناقشة الحقبة التاريخية التى تلت ذلك · والواقع أن اردمان قد ركز على الخلفية السياسية والدينية والاجتماعية للحملات الصليبية ، وليست الحملات ذاتها ، كما أنه اغفل الكثير من التفسيرات المتعلقة بتلك الحملات، لذلك قمت بدراسة كافة المعلومات التاريخية عن الحملة الصليبية من جديد ·

وأنا أميل الى الاعتقاد بأن رسالة أوربان التاريخية كانت تقليدية ، أى انها لم تكن تختلف عن كثير من الرسائل التى قدمها مصلحو الكنيسة فى ذلك الحين · ولأسباب عديدة ، ونظرا لأن أوربان كان قد ذكر بيت المقدس كهدف يسعى المؤمنون للوصول اليه ، ونظرا لأنه لجأ الى الفرنسيين ، كما أن الرأى العام لدى المؤمنين العاديين كان ينزع نحو

تحقيق هذا الهدف . لذلك كانت استجابة العلمانيين أكثر ايجابية من الدعوات السابقة ، وبالاضافة الى ذلك فان المفاهيم التى عبر عنها أوربان الثانى قد تحولت الى مجموعة جديدة من الأفكار الفجة شبه الشعبية بعد أن عانى الجيش الصليبى الكثير من المحن والبلايا أثناء زحفه صوب بيت المقدس ، وما تلا ذلك من شعور الصليبيين بالنشوة والسعادة الغامرة بعد استيلائهم على تلك المدينة ٠

وقد وجدت هذه الأفكار سبيلها الى الروايات التى تركها شهود العيان والتى تتسم بمسحة قصصية ٠ غير أن كتاب الجيل الثانى، وعلى رأسهم روبرت الراهب، وجيبير النوجنى Guibert of Nogent وبولدريك البورجيى Baldric of Bourgueil أعادوا صياغة هذه الحكايات ، وقدموها للجمهور الكنسى فى أسلوب مصقول نسبيا ومصطلحات مقبولة لرجال اللاهوت ٠ وقال أولئك الرهبان بأن معجزة نجاح الحملة الصليبية ــ من وجهة نظرهم ــ انما ترجع الى اهتمام العناية الالهية ، وفضلوا معاملة الصليبيين كرجال دين مؤقتين اضطرتهم الظروف الى العمل العسكرى تحت لواء الدين والتنقل من بلد الى بلد ٠ وجاء تصويرهم للحرب الصليبية متوافقا مع مثل مصلحى القرن الحادى عشر الميلادى ، الذين كانوا يسعون الى تشبيع الحياة العلمانية بالقيم التى كانت سائدة بالأديرة آنذاك ٠ هذا عرض موجز للقصة التى يتناولها هذا الكتاب ٠

وربما من المفيد أن نعرض للخلفية التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية للحملة الصليبية الأولى

قبل البدء فى دراستها ، ولا سيما وأن استجابة المؤمنين لدعوة البابا أوربان الثانى كانت تتواءم مع طموحات رجال الدين والعلمانيين • ويكمن وراء تلاقى الأفكار هذا تبدلات طرأت على آراء الجانبين ، ويرجع ذلك الى ظاهرة العنف التى شهدتها فرنسا فى القرن العاشر الميلادى •

والواقع أن المجتمع الفرنسى كان ميالا للعنف الى حد بعيد ، رغم أننا مازلنا نجهل الدوافع التى أدت الى هذا العنف حتى الآن ، وقد سيطرت الرغبة فى الحرب على كيان المجتمع الفرنسى ردحا طويلا من الزمن كما انغمس فى متعة السلب ، عندما أخذت الامبراطورية الكارولنجية فى الاتساع الى أن سقطت فريسة للغزو الخارجي وانتهاك الحدود • وقام أحد المؤرخين بوصف المرحلة التى توقفت فيها الامبراطورية عن التوسع وصار محاربوها منهمكين فى الدفاع عن فرنسا ، وذلك فى عبارة تصويرية تنبض بالواقعية عندما ذكر أن النظام الحربى بأكمله بدأ فى « الانكماش على نفسه » • وبدأت هجمات المغيرين تخف حدتها رويدا رويدا ــ وتوقفت تلك الهجمات بعد عام ١٠٠٠ م ــ غير أن الجماعات المسلحة المحلية لم تتفكك بل وجهت نشاطاتها نحو مهاجمة المزارعين العاديين بالمناطق المجاورة فى كثير من أنحاء فرنسا • ونظرا لأن تلك الجماعات المقاتلة كانت تسكن القلاع المنتشرة فى كل مكان فى ذلك الحين ، ونظرا لأنهم كانوا رافضين التخلى عن مستوى الحياة الراقية التى اعتمدت على جمع الغنائم والسلب والنهب ، فقد أجبروا الفلاحين على زيادة انتاجهم فى الريف ، وازدهر العنف الفوضوى دون أن يقف شىء فى طريقه ، فتجزأت

القوة السياسية فى فرنسا وتفككت · ولم يعد الملك يمارس سلطة مباشرة على معظم الأقاليم ، التى كان يحكمها فى ذلك الحين أدواق وكونتات dukes and counts من سلالة كبار موظفى الدولة فى العهد الكارولنجى ، دون الرجوع الى الملك ، بل انه منذ سنة ١٠٢٨ م أقلعت تلك الشخصيات الكبيرة عن حضور الاجتماعات الملكية ، وحذا الأساقفة حذوهم ، اذ لم يجد هؤلاء الأساقفة فائدة تذكر من حضور الاجتماعات التى يعقدها الملك · ثم فقد كثير من أولئك الأدواق والكونتات سيطرتهم على أقاليمهم التى يحكمونها وذلك ابان حالة الاضطراب الشامل التى عمت أرجاء فرنسا · وتطلع الناس الى البحث عن تحقيق الأمن والأمان ـ اذا ما صح هذا التعبير ـ ولم يجدوا ذلك سوى عند صاحب القلعة وأتباعه الذين عاشوا على السلب والنهب ·

وفى أوائل القرن الحادى عشر حدث تغير فى استخدام اللغة وهو تغير ذو مغزى فكلمة سيد dominus (Lord) ، التى كان أول استخدام لها بمعنى الله God ، صارت تستخدم كلقب للملك أو الأسقف ثم اتسع نطاق استخدامها ليشمل الكونتات الى أن صارت تطلق على قادة تلك الحصون وأشارت الى اعتراف وتسليم شعبى بحق قادة الحصون فى الفصل فى الأمور القضائية بين الذين يعيشون فى نطاق تلك الحصون وكذلك فرض الضرائب على المقيمين فى حدود تلك الحصون أو على كل من يجتازها ، وكان رؤساء تلك الحصون وفرسانهم Milites السلطة الوحيدة التى عرفها كثير من الناس · ونظرا لأن أقوال رؤساء تلك الحصون صارت

قانونا ولا يجرؤ أحد على معارضتهم لذلك طفح العنف بلا ضابط ٠

وقد واجهت الكنيسة عنفا كانت ترى أنه لا مبرر له ووجدت مجتمعا تسوده الفوضى وانعدم الأمان مما يحول دون ازدهارها ٠ ومن ثم قادت الكنيسة الحركة الداعية الى تحقيق « السلام الالهى » ، والتى عملت على تحويل مسار القلق الشعبى ازاء العنف الذى استشرى ، وحاولت استبدال العقوبات الكنسية بالسلطات المخولة للملك ، بعد أن زاد استياء الشعب منها وتذمر عليها بعد أن أصابها الضعف . وظهرت تلك الحركة لأول مرة فى جنوب فرنسا فى أواخر القرن العاشر ٠ وعقد الرجال الأحرار اجتماعات قريبة الشبه من الاجتماعات الشعبية التى انعقدت فى العصر الكارولنجى ، حول أكوام من رفات جمعت من كل الكنائس المحلية ، واصدروا قرارات نصت على حصانة الأماكن المقدسة وحماية رجال الكهنوت والفقراء من العنف والاستغلال ، وسعوا الى اجبار كل الفرسان أن يقسموا على احترام شروط السلام ٠ وفى بداية الأمر ، عارضت حركة السلام الفروسية بكل صورها علنا ، وتولد عن تلك المعارضة كراهية الفرسان ، وهى كراهية كان لها ما يبررها فى تلك الظروف، وقد عبروا عنها بشدة فى مجلس ليموج(*) Limoges سنة ١٠٣١م ، وذلك عندما تضرع الحاضرون الى الله بأن يصب غضبه « على كل الفرسان وعلى أسلحتهم وخيولهم » بيد أن الأساقفة ورؤساء الأديرة كانوا هم أنفسهم أصحاب

(*) ليموج : مدينة تقع على الساحل الغربى لفرنسا ــ (المترجم) .

اقطاعيات ولهم فرسانهم التابعون لهم ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة ذاتها على استعداد أن تنظم عمليات عسكرية ضد منتهكى السلام ، باسم حركة السلام ، وفى الوقت الذى أدان فيه رجال الكنيسة الفرسان بكل شدة ، فقد أعدوا أنفسهم للبحث عن دور أكثر ايجابية وواقعية لهؤلاء الفرسان •

فى ذلك الحين كانت حركة اصلاح الكنيسة تسير على قدم وساق ، وكان المصلحون متأثرين بالقيم التى سادت الأديرة ، وارتبطت الصفة الغالبة لأفكارهم بدير كلونى Cluny البرجوندى الشهير والأديرة التابعة له ، وهى مبادىء تعنى سيطرة رجال الدين الذين ذهبوا أبعد من مجرد الاهتمام بحركة الاصلاح الدينى ، وكانت حركة اصلاح الكنيسة ترى ضرورة وجود اجراء محدد من أجل أن تسود العالم المثل العليا الرهبانية • ومن الظلم التقليل من شأن الجهود التى بذلوها من أجل تحويل الكنيسة والرجال والنساء الى هذا السبيل ، ولما كنا نعيش فى عصر أكثر ثراء ويتميز باقامة المشروعات المعمارية الضخمة ، فمن السهل علينا أن لا نستهين ببناء الكنائس الأبرشية الواسعة الانتشار ، التى شكلت أحد الانجازات الكبرى فى منتصف العصور الوسطى • وفى كل قرية تم بناء كنائس كبرى فاق ارتفاعها كل المبانى المتواضعة التى عاش بها الفلاحون • وارتقى مستوى بناء تلك الكنائس مع برامج التشييد التى عرفتها الامبراطورية الرومانية ، فازداد تعقيدها ، وبرغم ذلك فقد تحمل المجتمع الفقير نسبيا تكاليف تلك المبانى • وفى النهاية فقد أدى ازدياد معرفة المسيحيين بتعاليم الدين

الى فهم دور عامة الناس ، والرسالة التى يمـكن أن يقوموا بها ، غير أنه فى هذه المرحلة كان يكفى المصلحين أن يذكروا أن عامة المسيحيين لهم رسالة عليهم القيام بها ، وقد تقتضى هذه الرسالة ضرورة حماية الكنيسة والذود عنها • ويبدو أن هذا الاتجاه وصل الى روما مع البابا ليو التاسع (١٠٤٩ــ ١٠٥٤م) الذى جاء من اللورين(*) Lorraine حيث نمت أفكار الاصلاح الـكنسى وازدهرت ، وكان قبـل ولايتـه لعرش البابوية قد لجأ الى استخدام الميليشيا التابعـة لكنيسته فى تول Toul وقبل أن ينقضى شـهران عـلى اعتـلائه كرسى البابوية دعا مجمع محلى عقد فى كنيسة القديس حنا ، كل القادرين على حمل السلاح من الذكور الرومان لمقاتلة خصوم البابا فى الاقليم ، وفى سنة ١٠٥٣ م قاد البابا ليو التاسع بنفسه جيشا ضد النورمان فى جنوب ايطاليا ، وبعد هزيمة ذلك الجيش ، أخذ البابا عـلى عاتقه مهمة تأبين الشـهداء الذين سقطوا فى المعركة ، وكان جيشه جيشا بابويا يقوم بمهمة دفاعية ، ويعمل تحت راية بابوية ، وصدرت اليـه الأوامر بالتحرك للقتال بأمر من البابا ، وأعلن البابا لجنود ذلك الجيش منحهـم الغفـران لـكل ما تقـدم من ذنوبهم وخطـاياهم ، واذا كان البابا ليـو التاسـع قد تعـرض للنقد اثر ذلك الا أن من جاء بعده من البابوات استخدموا العنف أيضا فى الدفاع عن الكنيسة • اذ اتجه البابا ، نيقولا الثانى (١٠٥٩ ــ ١٠٦١م) صوب النورمان فى جنـوب ايطاليا للمساندة العسكرية ، فوقف النورمان الى جانبه لمدة امتدت عشرات السنين ، وظلوا يدافعون عن البابوية بكل

(*) اللورين : اقليم تاريخى يقع شمال شرق فرنسا ــ (المترجم) •

همة ونشاط . ومنح البابا اسكندر الثانى (١٠٦١ ــ ١٠٧٣م) أول غفران كنسى للمقاتلين فى اسبانيا سنة ١٠٦٣م ، وهو الذى أعطى هؤلاء المقاتلين الحق بحمل راية القديس بطرس Vexillium Sancti Petri التى كانت رمزا لموافقة البابوية على مغامرة عسكرية ، واستمرت عملية ارسال رايات القديس بطرس الى المحاربين الذين يحظون بتأييد ودعم البابوية ، ومن بين هؤلاء روجر Roger كونت صقلية ، الذى انتزع صقلية من أيدى المسلمين ، وارلمبولد Erlembald القائد العسكرى فى باتاريا Pataria ، والى الاتحاد الذى ضم الكهنة والعلمانيين الذين قاتلوا من أجل الاصلاح فى ميلانو Milan .

وتميز عهد البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ ــ ١٠٨٥م) الذى جلبت ولايته جوا من الأزمات والصعاب بتعاظم الاتجاه نحو شن الحروب وأدى تمسك البابا جريجورى بالتزامه باجراء الاصلاح الى وجود صراع فى كل من ايطاليا وألمانيا حيث ثارت جماعة من النبلاء على الملك هنرى الرابع وجر ذلك الصراع البابوية الى الحرب مع هنرى الرابع ، ونتيجة للاصلاح الذى أدى الى العداء ثم الصراع المسلح ، اتجه جريجورى الى علماء اللاهوت لاصدار قرار يبرر ايمانه الراسخ باستخدام العنف دفاعا عن الكنيسة وأن من حقها اصدار القرار فى هذا الشأن ، ويبدو أنه اعتمد على مجموعة معينة من الرجال الذين تجمعوا حوله ، وكان من أشد المؤيدين له حماسا ماتيلدا كونتيسة توسكانيا Countess Mathilda of Tuscany ، بونيتسو السوترياوى Bonizo of Sutri ، وحنا المانتواوى John of Mantua

وأنسيلم اللوكاوى Anselm of Lucca . وكان لأنسيلم النفوذ الأكبر من بين هؤلاء ، ففى كتاب أنسيلم ، الذى سماه المجموعة القانونية Collectio Canonum ١٠٨٣م تقريبا، والذى من المحتمل أن البابا جريجورى نفسه هو الذى كلف أنسيلم بكتابته ، ورد تبرير فطرى مهم لممارسة حق اللجوء الى استخدام أشد أساليب العنف المسيحى المقدس بعد الرجوع الى حوادث سابقة ، والى نصوص مستمدة من أقوال آباء الكنيسة وعلى رأسهم القديس أوغسطين الهبوى St. Augustine of Hippo ووجد المصلحون المؤيدون لاستخدام العنف كل ما كانوا يبحثون عنه من مبررات فى كتابات القديس اوغسطين ، وعلى الرغم من أن أوغسطين استنبط مبررا مسيحيا لاستخدام العنف مقنعا وشاملا ، فان ذلك المبرر كان على شكل شذرات متفرقة فى كل مجموعة كتاباته الضخمة التى استمرت فترة زادت على الأربعين سنة ولم تجمع فى كتاب واحد ، ويرجع الفضل الى أنسيلم فى انجاز هذا العمل الضخم اذ قام باستخلاص تلك الفقرات وتجميعها معا على شكل مقتطفات مرتبة ومنسقة فى أسلوب مفهوم ، كما قام بمعالجة ما قد يبدو من تناقضات ، ومن ثم كان أنسيلم قادرا على تقديم مجموعة مترابطة من الأفكار منبثقة من جهد واحد من أشهر مفكرى الحضارة المسيحية . ومن بين أفكار أوغسطين نفسه فكرة مشروعية اللجوء الى العنف وقوله بأن الله أمر بذلك ، وهو يستخدم أدواته من البشر ليكونوا رمزا لجبروته وتنفيذ ارادته . ومن الطبيعى أن نجد هذا المفهوم فى وصف انتصارات الشعب اليهودى بالعهد القديم وهذا المفهوم عادى بالنسبة لأى فرد اعتاد ترتيل مجموعة مزامير القداس الالهى المقدس .

وفى الوقت الذى كان فيه البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ ــ ١٠٨٥م) يسعى الى الحصول على تعضيد لأفكاره من علماء اللاهوت اتجه الى عامة الناس ليحصل على مؤازرتهم فوضع فكرة وجود جماعة من الفرسان ممن انتشروا فى كل أنحاء العالم المسيحى الغربى ليكونوا تحت تصرفه شخصيا، ويدينوا له بالولاء بحكم الالتزام الكنسى ويرتبطوا به باعتباره رئيسا للكنيسة • وعلى الرغم من أنه كان يستخدم عبارة جند المسيح « milites Christi » كتسمية لهؤلاء الرجال بين الفينة والفينة ، اعتاد على وصفهم بالمؤمنين Fideles جند القديس بطرس milites Sancti Petri وفى هذا كان البابا جريجورى مقلدا للعرف السائد عندما كان أمراء الاقطاع والتابعون Vassals لأى أسقف يطلق عليهم « المخلصين fideles » للقديس الراعى لكاتدرائيته • وما فعله جريجورى لم يكن سوى ما أصبح شائعا بين رجال الكنيسة الآخرين ، بدءا من المصلحين بالأديرة وحركة البابوية حيث ساد الالتجاء الى عامة الناس طلبا للمساعدة المادية واستشرى هذا الاتجاه بسرعة فى الكنيسة ، كما قام رجال الكهنوت بتشجيع رجال الاقطاع للدفاع عن الكنيسة بقوة السلاح • وكان من مصلحة هؤلاء مثلما كان من مصلحة البابا ايجاد المبرر الدينى لاستخدام القوة • وبالاضافة الى ذلك كان حرصهم على تهذيب سلوك رعاياهم الأخلاقى ، ولادراكهم بأنهم مهما فعلوا فلن يفعلوا سوى النزر اليسير من أجل تغيير أساليب حياتهم ، فقد توصلوا الى عملية تبسيط الدراسة اللاهوتية حتى يسهل على العامة فهمها ويكون هناك

توافق بينها وبين المثل البطولية والعسكرية التى عرفتها الفروسية ·

وكان جيرولد Gerold راعى مقاطعة تشستر Chester خير مثال على ذلك ، اذ بذل غاية جهده من أجل تحويل رجال قصر الايرل الى الأسلوب الأمثل للحياة ، وذلك بأن قدم لهم الأمثلة الصالحة التى سار على هديها أجدادهم · وقدم جيرولد النصائح الودية الى كبار البارونات والى الفرسان العاديين ، والى أبناء النبلاء ، وجمع قصص المعارك التى خاضها الفرسان المقدسون من كتاب العهد القديم ومن الروايات المسيحية القصيرة الحديثة بهدف أن يسيروا على نهجها · وقص عليهم قصصا مثيرة للمشاعر عن الصراعات بين ديميتريوس Demetrius ، وجورج George ، وعن تيودور Theodore ، وسباستيان Sebastian ، وعن الدوق موريس Duke Maurice والفيلق الطيبى Theban Legion ، وعن ايوستاس Eustace القائد الأعلى ورفاقه ، الذين ظفروا بتاج الشهادة والنعيم الأبدى فى الفردوس ·

واتجه المصلحون الى العلمانيين بعرض مثير اتسم بالغلو · ومن الصعب تحديد مدى انتشار أحكامهم على الكنيسة ومدى ما كان لها من ردود فعل عنيفة ، ولا ريب أنهم أثاروا معارضة عنيفة من قبل أنصار الملك هنرى الرابع · وربما كانت الغالبية منهم لديهم ميل للتطرف وفقا لما جاء عند ايفو الشارترى Ivo of Chartres ، الذى كان من أشهر كتاب القانون الكنسى المعاصرين لتلك الفترة ، والذى

كتب مجموعته عن القانون الكنسى قبيل تجرك الحملة الصليبية الأولى ، وربما فعل ذلك بناء على طلب البابا أوربان الثانى نفسه ٠ واقتبس ايفو Ivo مقتطفات من كتابات من سبقوه بما فيها العبارة القائلة بأن التكفير عن خطيئة القتل يجب أن يتم حتى ولو كان القتل قد حدث فى حرب عادلة ، كما أورد النصوص التى تبرر استخدام القوة والتى رددها أنسيلم اللوكاوى Anselm of Lucca ومن سبقوه وهى النصوص التى تؤيد شن الحرب ضد الوثنيين ٠ وكان هدفه محاولة التوفيق بين البرنامج المتطرف الجديد وبين مجموعة الأفكار السالفة التى اتسمت بالغموض ٠ ومع ذلك فمن المهم التاكيد على أنه لمدة عشرين عاما قبل قيام الحملة الصليبية الأولى اعتاد البابوات وكبار رجال الكنيسة اطلاق عبارات ، بين الفينة والفينة عن الذين يخوضون حروبا دينية ، مثل عبارات : « جماعة فرسان المسيح » ، أو « فرسان المسيح » أو « فرسان الله » أو « حماة الايمان » ٠ وكان رد الفعل الذى أبداه البابا جريجورى السابع تجاه أخبار التوغل التركى فى آسيا الصغرى بعد هزيمة اليونانيين فى موقعة منزكرت عام ١٠٧١م مثالا مبكرا لهذا التطرف ٠ ومازال هناك سلسلة من الخطابات التى كتبها بهذا الخصوص موجودة حتى الآن ويعود تاريخها الى شهرى فبراير وديسمبر ١٠٧٤م ٠ وفى هذه الخطابات ناشد البابا جريجورى السابع باسم القديس بطرس ، « جند القديس بطرس fideles Sancti Petri » وكل من يرغب فى حماية الايمان المسيحى ، لكى يهبوا حياتهم لتحرير اخوانهم فى الشرق ٠ وأوضح أن مثل هذا العمل انما هو فى خدمة

المسيح والدفاع « عن الايمان المسيحى وعن رب السماء » . وأن من يموت فى تلك المعارك سينعم بالسعادة الأبدية لموته فى سبيل المسيح وسينال مجدا يفوق المجد من أجل الدفاع عن الوطن . وأنه سوف يقود بنفسه حملة عسكرية باعتباره قائدا حربيا لها وقائدا دينيا أعلى dux et pontifex ، تاركا هنرى الرابع امبراطور ألمانيا ، الذى دخل معه فى صراع مرير ، من أجل حماية الكنيسة وسترافقه كل من أجنس Agnes امبراطورة ألمانيا والأرملة ماتيلدا كونتيسة توسكانيا Countess Mathilda of Tuscany فى حملته ، وكما لو كان يتلو نبوءة من نبوءات العرافين أشار الى أنه فى استطاعته حشد جيش قوامه خمسون ألف مقاتل والتوجه الى القبر المقدس فى بيت المقدس . وبعبارة أدق يمكن القول بأن ما اقترحه البابا جريجورى السابع لم يكن هو نفس الشيء الذى اقترحه البابا أوربان بعد مضى عشرين عاما حين دعا الى القيام بحملة صليبية ، بل كان هذا الاقتراح مجرد امتداد للجهود الدينية التى بذلها القديس بطرس ، والتى دعا فيها الى تأييد الحملات الصليبية ، وأكثر من القول بأنها جهاد فى سبيل المثال . ولم يطلب من المتطوعين أن يرددوا قسما أو نذرا ، ولم تقدم لهم الكنيسة الحماية لأنفسهم أو لأراضيهم أو لأسرهم . وبعد ديسمبر ١٠٧٥ م لم يشر جريجورى الى تلك الخطط مرة ثانية . بيد أنها لم تقتصر على مجرد الاشارة الواضحة عن مبالغته فى أسلوبه فحسب ، وانما الى مدى سهولة قيام المصلح بنقل الأفكار المترابطة عن المحبة الأخوية ، وحرية العمل البدنى والقوة العسكرية الى مسرح العمليات الحربية فى المشرق ، وأنه

ما أن بدأ يفكر فى الشرق حتي اتجه فكره صوب بيت المقدس على الفور ·

ولا يمكن القول انه قبل سنة ١٠٩٥م حققت دعوات المصلحين العلمانيين نجاحا ملحوظا · اذ لم ينضم سوى عدد قليل من العلمانيين فى أنحاء متفرقة من أوربا الى جند « القديس بطرس » أو استجابوا لدعوة الكنيسة لتقديم جهودهم البدنية والمادية بطريقة أو بأخرى · ولم يكتب النجاح لرسالة المصلحين الا بعد استجابة الناس لتعاليمهم الداعية للحرب الصليبية · ولكي ندرك سبب ذلك لابد لنا من أن ندرس ظروف العلمانيين من الرجال والنساء الذين شاركوا رجال الكنيسة · ومن الواضح تماما أنه برغم الانتعاش الاقتصادى الذى كان يحققه الغرب الأوربى فانه ظل يعانى من الفقر وعدم الاستقرار الى حد ما ، وتفاقم هذا الفقر وعدم الاستقرار نتيجة لعوامل عدة منها وجود أساليب بدائية فى الزراعة ونظم الوراثة التى جعلت الكثيرين يعانون المتاعب في ظل الزيادة السريعة فى تعداد السكان · ولما كان حق الابن البكر فى الارث كله دون سائر الأبناء primogeniture يتزايد فى الانتشار فى شمال فرنسا ، لذلك وجد الأبناء الأصغر سنا أن عليهم أن يبحثوا عن أى وسيلة تمكنهم من اعالة أنفسهم · أما فى أماكن أخرى، مثل ايطاليا ، ومقاطعة برجوندى Burgundy وجنوب فرنسا ، فقد انتشر نظام اقتسام الارث ، واعتمد نجاح الأسرة الواحدة التى تعيش على دخل اقطاعة (الاقطاعة كانت أقل من خمسين فدانا) ، على انضباط النفس ،

وممارسة نوع فظ من تحديد النسل ، لأن الاجـراء العملى الوحيد فى تلك الحالة كان التبتل والعزوبة ، واذا لم تف كل تلك الاجراءات بالهدف المنشود ، فلم يكن هناك من سـبيل سوى أن يختار الفـرد فى تلك الأسرة الهجـرة ومغـادرة الاقطاعة ، ومن ثم يعمل على انقاص عدد الأفواه التى تعيش على ما تغله تلك الاقطاعة ٠

واذا كانت الحياة الأسرية تمثل عبئا اضافيا لمشكلات الأغنياء والفقراء فى عصر تزايد فيه التعداد السكانى فانها ساعدت فى الوقت نفسه على تخفيف المعاناة ، لأن التمسـك بالروابط الأسرية كان عامل استقرار مهما ٠ وكان هنـاك شيء يصعب التغلب عليه ألا وهو « الصـمت » الذى أحاط بالأسر ، نظرا لأن القضايا المعروفة جيدا للأقارب لم تدون على الاطلاق ، ومن ثم فهى ليست معروفة لدينـا ٠ غـير أن ثمة ثلاثة ملامح لأساليب التعامل الأسرى واضحة لنا ، أولها التسليم بوجود نظام العشـيرة والأهـل مهما اختلف عـدد الجماعة ، وكان نطاق الأهل والأسرة فى بداية العصـور الوسطى أوسع منه عند نهايتها ، وكان من المعتاد استخدام لفظ « أصدقاء » بمعنى أقارب ، وربما أوثقهم صلة وربما كان « الأصـدقاء » هم فقط الملزمين بالدفاع عن بعضـهم البعض وحماية مصالح كل منهم ، وقد يكون « الصديق » رجلا أو امرأة ٠ وثانيها انتشار عادة الثأر التى جعلت أفراد العشيرة يهرعون للدفاع عن أحد أقاربهم أو ليثأروا له ٠ وثالثها حالة من الشعور العام الذى يضم أسرة من طبقـة اجتماعية واحدة ، وهى احساس كل فرد من أفراد الأسرة بأنهم مشتركون فى ملكية أسرية موروثة (الضيعة) تتركز

حولها مصالح الأسرة وتتآلف فى اطارها ، بل ويشترك أفرادها جميعا فى فلاحتها فى بعض الحالات ٠

وكان النظام الاقطاعى عاملا آخر من عوامل الاستقرار فى عالم انعدم فيه الشعور بالأمن ولعب كل من الثار والارث دورا مهما مرة ثانية ٠ وفى أواخر القرن الحادى عشر كان الاقطاع بمعنى نظام العلاقات التعاقدية التى تربط الناس بعضهم البعض بروابط الحماية ، واستئجار الأراضى الزراعية وفلاحتها والالتزامات الاقطاعية ـ قد عم كل الأراضى الفرنسية ، وشمال ايطاليا وانجلترا وكان فى طريقه الى الانتشار فى ألمانيا ٠ ومن وجهة نظرنا ترجع أهمية النظام الاقطاعى الى اجتياح أفكار هيمنة السيد الاقطاعى غرب أوربا نظرا لانقسام المجتمع الى ما بين سيد اقطاعى وتابع له ٠ وكانت هيمنة السيد الاقطاعى تعنى دفع مستحقات ومكافآت ووجود اخلاص ووفاء متبادل ، ويتم كل ذلك بقدر ما يبديه التابع الاقطاعى من طاعة ٠ وأعطت هيمنة السيد الاقطاعى للفرد الاحساس بالانتماء الى جماعة مثل الاحساس بالانتماء الى الأسرة ـ وفى هذه الحالة كان السيد الاقطاعى وأتباعه فى رابطة كالرابطة الأسرية وفرضت عليهم الالتزام بالأخذ بالثأر كما يحدث فى الأسرة الواحدة ـ والالتزام بضرورة الحماية والمساعدة فى وقت الحاجة ٠ والواقع أنه بدون الأسرة أو السيد الاقطاعى (أو الأتباع) فان حياة الفرد كان من الممكن أن تكون غير محتملة الى حد ما ٠

وفى كثير من المناطق ظل المجتمع يخضع لهيمنة رؤساء القلاع وفرسانهم ولذلك ظل ذلك المجتمع فريسة للعنف ٠

وفى غالب الأحوال تمخض عن ظاهرة العنف وجـود حركة رومانتيكيـة كان التعبير عنهـا فى شـكل ملاحـم شـعرية بالفرنسية القديمة التى تتغنى بتاريخ فرنســا القديم ، وعلى الرغم من قيام رجال الدين بتأليفها فانها وضعت لعامة الشعب وعبرت عن الميول الشعبية • على أن تلك الأغانى وأناشيد البطولات أو المغامرات التى نعرفها يعود معظمها الى القرن الثاني عشر الميلادى فحسب ، ففى ذلك الحين لا بد أن تلك الملاحم قد خضعت لكل أنواع التأثيرات الجديدة ، وبصفة خاصة الحركة الصليبية ذاتها • غير أن هناك ثلاثة ملامح تميزت بها هذه الأغاني أولا ، دور شارلمان باعتباره امبراطورا شهيرا ، وشهد عصرا ذهبيـا ، ثانيا : الاهتمام بالحرب وفضائل الشجاعة وحسن السمعة والاخلاص مضافا اليها حب السفر التماسا للمغامرات الفروسية ، ثالثـا : الفكرة الأساسية عن البطولة المسيحية فى المعركة دفاعا عن الايمان ، وكأنه مجتمع كان يتـوق الى وسـيلة للتعبير عن معتقداته بالطريقة الوحيـدة التى يعرفهـا ذلك المجتمع آنذاك •

والواقع أن حركة الاصلاح حركت المشـاعر الدنيوية لدى الناس ، ففى فرنسا بلغت ظاهرة العنف العـدوانى عند رؤسـاء القلاع وأتباعهم ذروتها فى العشرينيات من القرن الحادى عشر للميلاد • ومنذ ذلك الحين كان ثمـة اتجاه ملموس نحو تزايد حالة التقـوى بين عامة النـاس ، ويبدو أنه بحلول أواخر القرن الحادى عشر الميلادى أصبح أمرا عاديا تماما وجود نبلاء اشتهروا بالتقـوى والاهتمام

بشئون الكنيسة ـ وكان أنسيلم الريبمونى Anselm of Ribemont أحدهم ، وقد قدر له أن يموت فى الحرب الصليبية ، والذى شيد ديرا فى ريبمون ، وقدم التبرعات للجماعات الدينية التى تحمل اسم القديس أماند St Amand ، والقديس أنشان St Anchin ، وكان محبا للقديس كنتان St Quentin راعى الاقليم الذى عاش به ، وكان صديقا لرئيس أساقفة ريمز Rheims • وهناك صليبى آخر ، ألا وهو آرنولد الأردرى Arnold of Ardres حيث اعتقد أسلافه أنه كان على قدر كبير من الورع والتقوى • وهناك الكثير من الحالات المماثلة للحالتين السابقتين ومن اليسير اثبات ذلك بكل وضوح وعلى المستوى العام حيث اننا نجد أنفسنا نتعامل مع مشاعر حقيقية للتقوى والورع • ان وفرة عدد المؤسسات الديرية فى أواخر القرن الحادى عشر ما كان لها أن تحدث بدون المساعدات والمنح والهبات التى قدمها الرجال والنساء الذين ـ ربما ـ لم تكن لديهم النية فى المساهمة فى الحياة الدينية • ولا ريب أنهم يقدمون لنا صورة عن الكرم الملحوظ الذى اتسم به ذلك العصر ، الذى كان يعكس العادات والتقاليد الاجتماعية والآمال التى تجيش فى النفوس بنفس القدر الذى صور فيه المشاعر الدينية • غير أن المجتمع اعتقد أنه من الأهمية بمكان المساهمة بسخاء فى الأعمال الخيرية المرتبطة بالكنيسة •

كان تزايد مظاهر الورع والتقوى بصورة مستمرة بين عامة الناس ، بمثابة ردود ايجابية للحماس التبشيرى على أيدى المصلحين الدينيين ، كما أنها عكست

المـواقف التى اتخـذوها تجاه العـالم المـادى الزائل الذى لا يستحق سوى الازدراء · وخلف هذا المظهر كانت تكمن الحقيقة المتمثلة فى : الجنة والنار ، والملائكة ، والقديسين من جانب ، وابليس وأتباعه من الشياطين من جانب آخر ، يناضلون من أجل خلاص أرواحهم · وبين الحـين والآخـر كانت تغزو تلك الجيوش المتصارعة مسرح الحياة الطبيعية مقدمة الدليل للناس على وجود هذا الصراع الطـويل الذى تخفيه الطبيعة ، وبين الحين والآخر يتدخل الله القادر عـلى كل شىء ، ومغير الأحوال عن طريق علامات قدرته ومعجزاته التى تغير مجرى الحوادث فى هذا العالم · ان الحياة الدنيا، ولو أنها معجزة من معجزات الخالق وتعبير عن قدرته ، لم يكن لها اهمية الا فيما تقدمه من آيات تدل على عظم القدرة الكامنة خلفها وتفصح للانسان عن مغزى الأحداث الخارقة التى تجل عن أفهام البشر العاديين · لقد كان عـلى العـالم اللاهوتى أن يفسر احداث الطبيعة لا أن يشرحها · وبالاضافة الى ذلك فان الحيـاة الدنيـا هى مصـــدر اغراء مسـتمر لارتكاب الخطايا ولذلك تقـوم الحيـاة فى الأديرة عـــلى هجر تلك الحياة الدنيوية ، ولهذا كانت الحياة الرهبانيـة جذابة ومشوقة للراغبين فى الانخراط فى سلك الرهبنـة وللذين يتبرعون بالهبات الخيرية على حد سواء · واذا كان ثمة هدف عمل على توحيد صفوف عامة الناس ورجال الدين فى القرن الحادى عشر فانه تمثل فى تجنب عواقب التردى فى الخطيئة التى شـاهدوها من حـولهم وشعروا بهـا فى أعماقهم ، وذلك اما بالهروب من غوائلها الأكثر علمانية أو بالبحث عن « الغفران » من ذنوبها · واذا ما اختار شـخص

ما أن يظل علمانيا ففى استطاعته المساعدة على تحقيق الهدف الثانى بأن ينهمك فى ممارسة الأعمال الخيرة التى تساعده على طريق الهداية الروحية أو المظاهر العلنية التى تعبر عن هذا الاهتداء • وكانت أكثر الأعمال الخيرية شيوعا من أجل التكفير عن الذنوب هى زيارة الأماكن المقدسة • وتعود شعبية عادة زيارة الأماكن المقدسة الى حقيقة أن المسيحية قد زرعت بجسد العالم الوثنى الملىء بالطقوس البدائية والمعبودات المحلية ، وعمل المثقفون وغير المثقفين من المؤمنين معا من أجل ايجاد خصائص أساسية لدين مبسط • ان المسيح والقديسين لا يكتفون بعمل كل ما يعود على البشرية بالخير سرا فحسب ، وانما هنا على الأرض تركوا من خلفهم آثارا لسلطانهم المقدس فى الأشياء التى لمسوها ابان حياتهم على الأرض وفى رفاتهم وآثارهم المقدسة ؛ وكان ثمة اعتقاد بأن قطع الجلد تلك وقطع العظم ستتجمع مرة ثانية يوم القيامة للمشاركة فى النعيم عندما تتجلى الذات الالهية ويبعث الله من فى القبور • وجرت العادة على جمع الرفات وحفظها فى خزانات خاصة منذ العهد الأول للكنيسة، غير أن التحمس لتلك الرفات ازداد الى حد كبير فى غرب أوربا فى القرن التاسع الميلادى ، لأن المشرعين الكنسيين كانوا قد أعلنوا ضرورة احتواء كل المذابح الكنسية على جزء من رفات القديسين هذا الى جانب هواة جمع الرفات الذين تميزوا بالجشع وتكديس مجموعات كبيرة فى الكنائس والأديرة الكارولنجية • وقد شهد القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر أوج تبجيل الرفات ، وشهدت تلك القرون الثلاثة بناء مزارات متقنة فى مراكز العبادة • اذ

ظل الاعتقاد بأن القديسين يفضلون بعض الأماكن مثل المدن والمناطق التى كانوا يعيشون فيها في هذا العالم أو الكنائس التى بها ، ونسب المسيحيون الأوربيون آنذاك صفات خارقة لتلك الرفات تذكرنا بالصفات التى كان عباد الديانات القديمة ينسبونها الى أربابهم • وهناك اعتقاد بأن هؤلاء القديسين يعطفون على زوارهم بما لهم من شفاعة لا رد لها عند الله • وفى القرنين العاشر والحادى عشر ، وربما كرد فعل لحالة الفوضى تردد القول بأن معجزات تلك الرفات هى التى عملت على حماية الممتلكات والحقوق الاقليمية للكنائس والأديرة التى ترقد بها تلك الرفات • وفى أواخر القرن الحادى عشر تحول هذا العمل الدفاعى الى منح الشفاء من المرض لحراس الأضرحة أو زوارها • غير أنه من المهم بمكان التأكيد على الطبيعة الانتقامية ، والمدافعة عن تلك العجائب المرتبطة بمراكز العبادة والتى لم تكن قاصرة على التعبير عن آمال الأتقياء ولكن جعلتهم يتشربون فكرة القوة الخارقة التى تتمتع بها الأماكن المقدسة أيضا • كما ساعدت المشاعر المتزايدة تجاه تبجيل وتوقير رفات القديسين على تفسير الاجراءات غير العادية التى تمثلت فى سرقات رفات القديسين التى يمكن تبريرها اذا ما تمت بنجاح وفقا للاعتقاد بأن القديس الذى سرقت رفاته انما هو الذى أراد أن تنقل رفاته الى مكان جديد ، كما أن العامة أخذوا ينظرون باحتقار للرفات الموضوعة فى دير عندما يتعرض هذا الدير للنهب ويفقد ممتلكاته أو مزاياه على أساس أن هذا القديس فشل فى القيام بدوره كمدافع عن هذا المكان •

وإذا رجعنا بعقولنا الى الوراء وتفكرنا فى تلك الأمور فمن السهل أن نعلم كيف أثرت خلفية البابا أوربان الثانى عليه وجعلته الرجل المثالى للتوفيق بين ملاحظات المصلحين ومدارك قطاع مهم من جمهور العلمانيين • كما أن وجوده فى دير كلونى Cluny لمدة عشر سنوات كراهب ثم كرئيس لهذا الدير قد جعله على دراية تامة بوجهات النظر الكلونية حول الأعمال التى يقوم بها الفرسان • وقد أعطاه عمله فى ايطاليا والمانيا عندما كان كاردينالا وممثلا للبابا فى عهد جريجورى السابع Greogory VII ، الفرصة لاستيعاب أحدث أفكار المصلحين • بيد أن الأهم من ذلك كله حقيقة أنه نشأ بين طبقة النبلاء الصغيرة فى اقليم شامبانيا Champagne مما جعله مؤهلا لمعرفة آراء وأفكار الفرسان العلمانيين فى فرنسا • ومن المؤكد أن صياغة الطلبات التى أرسلها اليهم للمثول أمام يديه قد تمت وفقا لمفاهيمهم وأن تلك الصياغة لم تكن من قبيل المصادفة ، وبذلك أثار فيهم الولع الشديد لعمل ما يتفق ويتناغم مع طموحاتهم •

الفصل الأول

رسالة البابا أوربان

قضى أوربان الفترة من أغسطس ١٠٩٥ م الى سبتمبر ١٠٩٦م فى فرنسا • وعاد الى موطنه للاشراف على اصلاح الكنيسة فى المقام الأول ، بيد أنه ذهب الى هنـاك بهـدف الدعوة للحملة الصليبية • وبعد وصوله بقليـل يبدو أنه تشاور بهـذا الخصـوص مع أدهيمار ألمونتى Adhemar of Monteil أسـقف لـوبوى Le Puy الذى قدر له أن يكـون ممثلا شخصيا له فى الجيش ، وتشـاور أيضـا مع ريموند السانجيلى (السانت جيلى) Raymond of St Gilles ، كونت تولوز Toulouse • وفى السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥م ، أعلن البابا قيام الحملة الصليبية أمام حشد كبير من المستمعين كانت غالبيتهم من رجال الكهنوت فى كليرمون Clermont • ثم تنقل أوربان عبر وسط وغرب وجنوب فرنسـا ، وتجنب المرور بالمناطق التى تحت الاشراف المباشر للملك .اذ كان من الصعب على البابا مقابلة الملك بعد أن أصدر البابا قرار الحرمان الكنسى ضد الملك ؛ لأنه كان متهما بجريمـة الزنا وكان هذا الاتهام قيد البحث • وهناك دليل على أن البـابا

دعا الى الحملة الصليبية فى ليموج Limoges فى عيد الميلاد، وفى آنجيـــه Angers ، وفى لو مان Le Mans فى فبراير ١٠٩٦م ، وفى مجمع دينى انعقد فى نيم Nimes فى يوليو، وقد دعا الى الحملة الصليبية فى أماكن أخرى أيضا • وربما زار لومان فى فبراير ، وزار تور Tours فى مارس ، وكان البابا يشرف بنفسه على الاحتفالات التى تمت عنـد اعلان الفرسان انضمامهم للحملة الصليبية • وعندما غادر البابا فرنسا كان مشروع الحملة الصليبية على قدم وساق •

لقد كانت الحملة الصليبية اسـتجابة شـخصية للبابا أوربان الثانى بعد أن وصلته استغاثة من اليونانيين قبـل دعوته لتلك الحملة بثمانية أشهر • ففى مارس ١٠٩٥ كان البابا يرأس مجمعـا دينيا فى بياتشنتسـا Piacenza ، عندما وصل وفد سياسى من القسطنطينية لطلب المساعدة ضـــد الأتراك • ورد أوربان بتشجيع كثير من الناس على أخــذ العهد على أنفسهم وبالقســم بمســاعدة الامبراطــور بكل اخلاص وبأقصى ما عنـدهم من جهـد لمقاومة المسـلمين • ولاحظ احــد المعاصرين الارتباط الـوثيق بين الحــوادث التاريخية فى بياتشنتسا Piacenza وكليرمون Clermont غير أنه من الخطأ افتراض أن رد فعل تلقــائى هنــاك كان بداية لسلسلة من الأفكار فى عقل أوربان ، ثم انتهت هذه الأفكار فى كليرمون • وفى الحقيقة كانت استجابة أوربان متعمدة ومعدة من قبل • فمنذ بداية اعتلائه كرسى البابوية وهو يجرى مفاوضات مع الامبراطور اليـونانى الكسيوس

Alexius بشأن العلاقات بين كنائس روما والقسطنطينية ـ وبشأن تقديم المساعدة العسكرية من الغرب للامبراطورية البيزنطية ، التى فقدت فى ذلك الحين معظم آسيا الصغرى • ويعتقد أن اعلان أوربان عن نيته لزيارة فرنسا فى يونيو ١٠٨٩ م ، فى وقت كان فيه مشغولا للغاية فى تلك المفاوضات ، يكون دليلا على أنه كان يفكر منذ فترة طويلة فى استدعاء متطوعين من فرنسا للقيام بحملة صليبية • ومن الممكن أن طلب أوربان قد تمت دراسته باستفاضة قبل عام ١٠٩٥م ، بزمن طويل ، وأنه عندما تأكد من قوته السياسية تقدم بطلبه بعد أن تراءى للجميع مدى تدهور أحوال أعداء البابا ، وضعف نفوذ الامبراطور الغربى ، فى الوقت الذى تزايدت فيه مكانة البابوية الاصلاحية ، وصارت واضحة للجميع ، وتأكد ذلك فى الاجتماع الذى آثار الاعجاب فى بياتشنتسا ، وحضره الأساقفة ونواب السلطات العلمانية الحاكمة •

ومن المهم محاولة استرجاع رسالة أوربان الى المسيحيين كما تفوه بها، وان كان ذلك عملا أصعب مما يعتقد الانسان، لأن ذلك يعنى محاولة تركيز الفكر على مادة علمية قبل أن تتأثر الذاكرة بأخبار احتلال الصليبيين لبيت المقدس فى يوليو ١٠٩٩م : فعلى سبيل المثال ، لا يمكن أن نثق كثيرا فى روايات أربعة من شهود العيان كتبوا خطبة أوربان فى مجمع كليرمون وكلها كتبت من الذاكرة بعد ١٠٩٩م • ولدينا النص الأصلى لقرارين من قرارات مجمع كليرمون ، ووصف لقرار ثالث ، ومرجع حديث به تقرير قدمه البابا أوربان الى مجمع كليرمون عن أحوال الكنائس فى المنطقة التى تحت

أيدى المسلمين • ولدينا بعض الشذرات من نصوص مكتوبة لخطب دينية أخرى ألقاها أوربان فى فرنسا ، وبصفة خاصة خطبة ألقاها فى آنجى(*) Angers ، بالاضافة الى ستة خطابات منه أشار فيها الى الموضوع وبعض المعلومات المتعلقة بالقرارات التى اتخذها والمباحثات التى أجراها فى ايطاليا فى الفترة ما بين عودته فى سبتمبر ١٠٩٦م ووفاته فى التاسع والعشرين من يوليو ١٠٩٩م قبل أن تصله الأخبار عن نجاح الصليبيين فى الاستيلاء على بيت المقدس • ولدينا ايضا عدد كبير من وثائق الهدايا ، والبيع ، والرهن كتبت عند استعداد الصليبيين للرحيل وبعض الخطابات التى كتبت لصالح الصليبيين أثناء تحركهم الى هدفهم •

واعتبر أوربان نفسه أن له حق الموافقة على شن الحرب بحكم سلطاته البابوية ، وشاركه غيره فى هذا الرأى • وأشار أوربان الى أدهيمار Adhemar على أنه ممثله الشخصى « فى المنصب البابوى » واعتقد القادة الصليبيون بمقدرة أوربان على الهامهم ، وكتبوا اليه عن الحرب ، « التى بدأتها » و « التى هى حربك » ، وطالبوا أوربان أن ينضم اليهم فى سوريا ليكون بجوارهم ، « بعد الله ، ليعينهم ، وليشد من أزرهم » • وما أن انتهت الحملة الصليبية من تحقيق هدفها، حتى بادروا بالكتابة اليه ، « ان كل العالم سيدين لك بالولاء والطاعة » • وجاء رده عليهم بأنه يقوم بعمله نيابة عن المسيح واستعمل أسلوبا تضمن نوعا من التعنيف ، وهو نفس الأسلوب الذى استخدمه جريجورى السابع Gregory VII والمصلحون الآخرون • والواقع أن أوربان الثانى استخدم

(*) انجى : مدينة فى شمال غرب فرنسا ـ (المترجم) •

أسلوبا كان قد استعمله بالفعل في نصوص أخرى ، وذلك للربط بين الله وارادة الله وبين الانتصارات العسكرية على المسلمين وكان ذلك الأسلوب سمة تتصف بها كل رسائله منذ بداية اعتلائه كرسى البابوية ٠

فعند سقوط مدينة طليطلة Toledo قال : « لنا أن نبتهج ابتهاجا عظيما من أعماق قلوبنا ، وأن نحمد الله كثيرا لأنه أنعم على الشعب المسيحى بنصر مؤزر في عهدنا » ٠

وعند انتصارات بيسا(*) Pisa قال : « لقد أنعم الله جل جلاله على مدينة بيسا ، وذلك باعلاء مجدها في عهدنا ٠٠ بالانتصارات على المسلمين » ٠

وعند تقدم الجيوش المسيحية في صقلية واسبانيا قال: « ان الله مدبر الأمر كله ، والذى بحكمته ، وجبروته يغير الأحوال ،ويقضى على الدول ، وفقا لمشيئته وارادته » ٠

ويحق لنا أن نتساءل عما اذا كانت اشارات أوربان الثانى للحملات الصليبية كان فيها من المبالغة ما يفوق المبالغة التى اكتنفت الدعاية للحرب التى قادتها البابوية من قبل ٠ وعلى الرغم من أن فكرة الحرب الصليبية باعتبارها حرب المسيح ، كانت قيادتها تقع على عاتق البابا ، وتضمنت الخطب الثلاث التى ألقاها في كليرمون فكرة متطورة عن هذه الحرب ، الا أننا نذكر له أن اللغة التى تضمنتها خطاباته أصبحت أكثر تحفظا وتقييدا نسبيا بعد الانتصارات التى حققتها الحملات الصليبية ٠ وكتب أوربان عن

(*) بيسا : مدينة في غرب ايطاليا تقع على نهر ارنو — (المترجم) ٠

الصليبيين بأنهم يحاربون بالهام من الله ، وينفذون مشيئته، وأنهم نواب الله الذى يرعاهم ، وباعتبارهم « يعملون فى سبيل الله » فانهم يعملون من أجل محبة الله • ومن الواضح أنه قال للصليبيين انهم أتباع المسيح • وليس هناك برهان معاصر على إن أوربان الثانى أشار الى الصليبيين على أنهم فرسان المسيح militites Christi ، على الرغم من أنه لابد أن قد فعل ذلك : فتعبير جيش الله exercitus Dei ، وجيش السيد exercitus Domini وهما تعبيران يرادفان تعبير فرسان المسيح، كانا يستخدمان فى الجيش الصليبى فى آسيا الصغرى • وفى مواثيق الحملات الصليبية الذاهبة للقتال ذكر أحيانا أن السلطة المسئولة عن الحملة هى « الله » ، وكانت الحملة الصليبية تعرف فى كل أنحاء فرنسا على أنها « طريق الله » via Dei • وكان مفهوم حرب مقدسة من أجل المسيح شائعا ، غير أن هذا المفهوم خف التركيز عليه عن ذى قبل ، وربما صار الأمر أكثر اعتدالا عما كان عليه الحال فى عهد جريجورى السابع • ولولا استجابة المؤمنين لها ولولا الكتابات التى سجلتها فى العصور التالية لكانت قد بدت للباحث مجرد دعوة تقليدية رغم شيوعها ، اذ فاقتها بعض الأفكار والدعوات المعاصرة فى الشيوع والانتشار • وانى لأميل الى الاعتقاد بأن سلطة أو قرار المسيح ، وهى السمة المميزة للحروب الصليبية كانت فى الأصل مستعملة على نحو تقليدى ، وأن سلسلة الحوادث التاريخية غير العادية التى حدثت فيما بعد هى التى أقنعت الصليبيين على أنهم حقيقة كانوا مشغولين فى عملية مقدسة •

لم يكن عند اوربان الثانى أدنى شك فى أن محاربة المسلمين فى الشرق هى حرب عادلة ، وهو بهذا يعكس فكر عصره ويعبر عن نزعاته الذاتية: فقد سبق له تقديم الدعم والتأييد عند محاربة المسلمين فى اسبانيا وصقلية ٠ وبالاضافة الى اطلاعه على الدراسات النظرية للمصلحين عن العنف ، كان عند اوربان اعتقاد جازم بأن دعوته للحرب انما هى قضية عادلة ٠ غير أننا نجد أيضا فى دعوة أوربان تأكيدا غير ظاهر فى كتابات القديس أوغسطين St Augustine التى نقلها آنسيلم اللوكاوى Anselm of Lucca ٠ وبالنسبة لأوغسطين يمكن تبرير العنف ردا على الأذى ، وبالنسبة لأوربان أخذ العنف شكل حرب تحرير ٠ وليس من المبالغة القول بأن كلمة « تحرير » هى الكلمة التى دائما ما استعملها أوربان عندما كان يبرر الحاجة الى الحملة الصليبية فهو فى هذا يعكس المثالية التى سادت الأديرة للمصلحين ؛ باعتباره راهبا كلونيا Cluniac monk وهم رهبان اعتنقوا فكرة مبالغا فيها عن الحرية نمت فى الأديرة الكبرى التى تتمتع بالحصانة ، حيث نعمت تلك الأديرة بحماية البابوية من السيطرة الكنسية والعلمانية المحلية ٠ وكانت كلمة «التحرير» تعنى الحرية تحت حكم البابوات ــ لأن الاعتماد على البابوية كان النتيجة الطبيعية لتلك الحرية ــ وكانت تلك الكلمة هى صيحة المعركة لكل من ينادى بالاصلاح ٠ ومصادر القرن الحادى عشر الميلادى مملوءة بكلمتى Libertas و Liberatio ، ويقصد بهما الاشارة الى اصطلاح التحرير بمعناه المادى والقانونى ، على الرغم من وجود اعتقاد بأن ذلك له نتائج مهمة على نمو الحياة الروحية ٠

وكان البابا جريجورى السابع قد أشار بالفعل الى الحاجة الماسة الى « تحرير » المسيحيين الشرقيين ، فبدلا من تحرير المسيحيين اللاتين ، كان على المصلحين أن يتجهوا بأنظارهم نحو الشرق لتحرير اخوانهم الشرقيين الذين عانى كثيرون منهم من نير العبودية الرهيبة التى فاقت كل ما كان بوسع أى ملك ظالم أن يفعله فى غرب أوربا ·

دعا أوربان الى حرب تحرير لتحقيق هدفين · وكان الهدف الأول هو تخليص الكنائس الشرقية بصفة عامة وكنيسة بيت المقدس بصفة خاصة من الاضطهاد والخراب والدمار الذى يمارسه المسلمون (★) · والهدف الثانى هو تخليص بيت المقدس من حالة العبودية التى يعيشها · وعلى هذا كان الهدف الأول تحرير الشعب ، وأعضاء الكنيسة المعمدين ، والثانى هو تحرير المكان · ومن الواضح أن أوربان نظر الى تحرير الشعب المسيحى ككل ، وفى الحقيقة فقد أشار أوربان الى الصليبيين الذاهبين الى الشرق بأنهم يذهبون « من أجل تحرير الكنيسة » · وقد مال المصلحون الى ربط الاحتياجات العامة للعالم المسيحى بحروبهم التحريرية التى خاضوها فى ألمانيا وايطاليا ، وقرر أوربان نفسه فيما بعد أن كونت روجر Count Roger استولى على صقلية وحقق انتصارات وبذلك عمل على : « اتساع نطاق كنيسة الله كثيرا على حساب أراضى المسلمين » · وعندما أشار الى اسبانيا قال : « يجب علينا أن نحمد الله كثيرا على رحمته التى وسعت كل شىء حتى ان الكنيسة ازدادت قوتها فى عهدنا ،

(★) هكذا فى الأصل ، ولا يعنى المؤلف بهذا حقيقة الوضع فى فلسطين ، بل الفكرة الخاطئة التى روج لها فى الغرب عن اضطهاد المسيحية آنذاك ــ (المترجم) ·

فى الوقت الذى تقلص فيه نفوذ المسلمين ، وبنعمة الله » .
وسجل أحد شهود العيان أن أوربان عقد فى خطابه في كليرمون مقارنة بين الفائدة الكبرى التى عادت على الكنيسة من جراء الحرب الكارولنجية التى نجم عنها ضم أراض جديدة وبين النتائج المتوقعة .

ومع ذلك فان انشغال أوربا بما كان يجرى فى اسبانيا قبل عام ١٠٩٥م جعل من المستحيل عليه أن يتعامل مع الحملة الصليبية فى الشرق بمعزل عن الأحداث فى اسبانيا. ومنذ ١٠٦٠م كانت البابوية مشغولة عن كثب بالشئون الاسبانية ، كما أحدث استيلاء ألفونس السادس [ملك ليون] Alfonso VI of Leon على مدينة طليطلة Toledo حالة من الاهتمام المشوب بالقلق والاثارة الشديدة . وفيما بعد كان الموقف فى اسبانيا مثيرا للقلق ؛ لأن ظهور دولة المرابطين Almoravids الاسلامية فى المغرب أثار الذعر فى قلوب المسيحيين ، أكثر مما فعله ملوك الطوائف الأندلسيون هناك. وتزايد قلق أوربان اثر ذلك . غير أن اهتمام أوربان اتجه صوب الطرف الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة الاسبانية بصفة خاصة . فمدينة طراقونة Tarragona القديمة التى كانت موجودة فى عهدى الرومان والقوط من بعدهم والتى كانت تبعد عن برشلونة Barcelano بحوالى خمسين ميلا على امتداد الشاطىء ، كانت فى ذلك الحين قد تحولت الى مدينةمهجورة ، فى منطقة قفرة بين حدودالمسيحيين والمسلمين فى اسبانيا . ومن حين الى آخر أبدى الأمراء المسلمون فى برشلونة اهتماما من أجل استعادة تلك المدينة ، وأخيرا فان

التقدم الأرجونى، على امتداد روافد نهر ايبرو Ebro ، والذى بدأ عام ١٠٧٨م عمل على تمهيد السبيل لاحتلالها مرة اخرى . وما أن اعتلى أوربان كرسى البابوية حتى تبنى قضية استعادة تلك المدينة بكل تحمس . فقد استحث كونت برنجيه Berenguer ، حاكم برشلونة ، على احتلال تلك المدينة من جديد والاحتفاظ بها كموقع على الحدود ، وأعطاه التصريح بأن يفعل ذلك . وليس واضحا ان كانت مدينة طراقونة قد وقعت فى أيدى حاكم برشلونة بالفعل — فهى لم تكن قد وقعت فى أيدى المسيحيين حتى ١١٢٠م — غير أن الجهود التى تضمنتها خطابات أوربان حوالى ١٠٩٠م توضح مدى الجدية فى نظرة أوربان الى القضية . وقام الكونت برنجيه بنقل ملكية كل الأراضى التابعة له ، وبصورة خاصة مدينة طراقونة ، الى البابا على أنها أراضى القديس بطرس ، ونقل البابا أوربان الأسقف برنجيه أسقف فيشى Berenguer of Vici الى الأبرشية الجديدة فى طراقونة ، وحدد صلاحياته باعتباره رئيس أساقفة . وشجع أوربان اقامة المستعمرات السكنية . وفى عام ١٠٨٩م شجع أوربان قادة الأقاليم من العثمانيين ورجال الدين على تقديم المساعدة فى اعادة بناء المدينة ، والتى قدر لها أن تكون « سورا أو جدارا منيعا فى مواجهة المسلمين » واستخدم أساليب منح الغفران . وقال أوربان ان هؤلاء الذين يعتزمون القيام بالحج الى الأماكن المقدسة بهدف التوبة والتكفير عن خطاياهم ، يجب عليهم أن يستبدلوا بكفاراتهم العمل من أجل مدينة طراقونة ، والمساهمة المالية من أجل اعادة بنائها، وضمن لهم أوربان الحصول على الغفران نفسه الذى كانوا

يحصلون عليه عند تأديتهم متطلبات رحلة الحج الى أى مكان مقدس • وفى عام ١٠٩١م ، أكد أوربان لكونت أورجل Urgel ضمان الغفران لكل من يساعد مدينة طراقونة ، التى رأى أنها بدأت تعود الى الحياة من جديد ، وأن هـذا الـكونت « ستغفر خطاياه » • ولذلك ففى الوقت الذى دعا فيه الى الحرب الصليبية كانت هناك استعدادات على قدم وساق تتضمن خطة عسكرية لاحتلال موقع مهم على الحدود فى اسبانيا ، فى أراض كانت تحت ادارته ، وأن الدفاع عنها ضد المسلمين كان من صميم اختصاصه وربط هذا الدفاع بمنح الغفران ، وعلى ذلك فليس من المدهش أن أوزبان تردد فى السماح بتحويل الجهود بعيدا عن مدينة طراقونة • وبعد مرور بعض الوقت على مجمع كليرمون كتب أوربان الى كونتات قطالونيا Catalonian Counts فى بيزالو Beselu وامبورياس Empurias ، وروسيان Roussillan ، وسردانة Cerdana وأتباعهم ، الذين أقسموا على المشاركة فى الحملة الصليبية الى بيت المقدس ، طلب منهم ومن أتباعهم البقاء للدفاع عن طراقونة مؤكدا لهم بأسلوب قاطع وحاسم أنهم بذلك انما يقومون بحرب صليبية :

« اذا كان فرسان الأقاليم الأخرى أجمعوا الرأى على السفر لمساعدة الكنيسة الأسيوية ، وتخليص اخوانهم من طغيان المسلمين ، فانه يجب عليكم أن تعملوا بكل جلد وصبر على مساعدة كنيسة على مقربة منكم وأن تقاوموا اعتداءات المسلمين • ولا يصبح أن يشك أحد يموت فى هذه الحملة العسكرية من أجل محبة الله واخوانه ، فى أن كل

خطاياه سينال الغفران عنها وسيكون له نصيب فى الحياة الأبدية لأن الله وسعت رحمته كل شىء • وعلى ذلك اذا كان أحدكم قد عقد العزم على الذهاب الى آسيا فهنا البديل لكى يفى بقسمه ، لأنه ليس من الفضيلة فى شىء انقاذ المسيحيين من المسلمين فى مكان ، ومع ذلك نتخلى عنهم ونتركهم لطغيان وظلم واضطهاد المسلمين فى مكان آخر » •

وفى عام ١٠٩٩م منع البابا أوربان رئيس الأساقفة برنارد الطليطلى من الذهاب الى الشرق ، بعد أن كان قد أخذ قسم المشاركة فى الحملة الصليبية فى الشرق ، وكان قد وصل الى روما ، وكان البابا من قبل قد طلب من برنارد التوجه الى مدينة طراقونة Tarragona ، من أجل اعادة بنائهـا •

ونظر البابا أوربان الى الحملة الصليبية فى الشرق كجزء من حركة أكبر لتحرير المسيحيين ، ولم يفرق بينها وبين حركة استرداد الأندلس من أيدى المسلمين • وكان لهذا تأثير على أحد المعلقين المعاصرين ، وظهر ذلك التأثير فى خطاب كتبه سنة ١٠٩٨م حيث قال : « فى أيامنا هذه يحارب الله من خلال الرجال المسيحيين فى آسيا ضد الأتراك، وفى أوربا ضد المغاربة فى اسبانيا » • وجاء فى نص صريح القرارات ، فى مجمع دينى عقده البابا فى روما فى أبريل ١٠٩٩م حيث استؤنفت الدعوة للحرب الصليبية ، أن تكون كفارة أى مخرب عاث فى الأرض فسادا أن « يظل جنديا فى جيوش الله سواء فى بيت المقدس أو فى اسبانيا لمدة عام » •

وكان الهدف الآخر للحرب الصليبية هو تحرير مكان بعينه . وهذا هدف قديم قدم الحرب نفسها . وكانت بخطابات أوربان اشارات كثيرة الى حملات أخرى من هذا النوع فى طليطلة . غير أن مدينة بيت المقدس كان لها وضع خاص . فقد ارتفعت مكانة بيت المقدس فى قلوب أهل أوربا نتيجة للتوقير المتزايد لما بها من آثار مقدسة ، ودور العبادة ذات الشهرة الكبيرة ، وتزايد الزيارات الدينية لبيت المقدس ، ومن ثم كانت بيت المقدس مركزا طبيعيا للاهتمام بالنسبة للمسيحيين . وكانت ثمة حركة احياء لعادة زيارة بيت المقدس فى غرب أوربا عبر الطريق البرى ، الذى صار آمنا جزئيا بعد اعتناق أهالى المجر المسيحية ، وبعد الانتصارات التى حققتها الامبراطورية البيزنطية على البلغار والمسلمين فى القرن العاشر الميلادى . وكانت هناك أعداد كبيرة من الناس ترحل لزيارة بيت المقدس بانتظام بفضل تشجيع الأديرة . وظلت حركة الذهاب لزيارة بيت المقدس قائمة الى آن بدأت الحرب الصليبية واستمرت بعد ذلك . وقبيل انعقاد مجمع كليرمون ، كان الكونت روجر الفواوى Roger of Foix يعد العدة من أجل زيارة بيت المقدس ، فى حين أن الفارس الذى يدعى أودار Odard الذى وهب أمواله لدير جميرج Jumierges ، قد حج وعاد فى أمان كأحد الحجاج ، فى الوقت الذى كان اخوانه الفرسان يشقون طريقهم ببالغ العنف عبر آسيا الصغرى وذاقوا الأمرين أمام أسوار مدينة أنطاكية . والواقع أن موقف المسيحيين تجاه بيت المقدس والأرض المقدسة فى القرن الحادى عشر الميلادى اتخذ طابع الهوس المقلق . فقد

كان بيت المقدس بيت العالم ، والبقعة التى أولاها الله اهتمامه ، عندما اختارها لتخليص البشرية من الخطيئة بالتدخل فى مجرى التاريخ • وقيل انه قبل نهاية العالم سيتم تتويج آخر امبراطور فى بيت المقدس • وقد كانت تلك الأسطورة موضوعا للمناقشة فى الدوائر الايطالية البابوية والامبراطورية • ولقد علمنا أن البابا جريجورى السابع كان قد اقترح سنة ١٠٧٤ م أن يقود جيشا الى الشرق ، وأن يواصل تقدمه حتى القبر المقدس • ومن ناحية أخرى قام بينزو الألباوى Benzo of Alba التابع الاقطاعى لهنرى الرابع امبراطور ألمانيا بتقديم اقتراح رسمى ينصح فيه الامبراطور بالذهاب الى بيت المقدس بعد انتصاره على أعدائه وعلى الوثنيين ، وأنه سينعم بالسعادة السماوية • وبالاضافة الى ذلك فالمنطقة التى بها مدينة بيت المقدس والأرض التى حولها كلها أثر مقدس ، ذلك لأنها شغلت كل اهتمام كبار الشخصيات الدينية : أنبياء بنى اسرائيل ، والرسل ، والأهم من ذلك كله المسيح نفسه ، فقد ظهر المسيح هناك • وتم تعميده فى مياه نهر الأردن • وكما نرى أنه فى عصر كان الناس يشعرون فيه بقوة النفوذ الدينى لتلك الأماكن التى عاش بها قديسون أو ترقد بها رفاتهم والتى بها وضع الرهبان المثل العليا بعد أن جعلوا حياتهم واهتماماتهم مرتبطة بالمحافظة على تلك الأضرحة والمزارات ، تفوقت بيت المقدس على كل الأماكن الأخرى ، حتى تلك التى بها رفات وآثار القديسين مثل روما والقسطنطينية • ويفوق كل ما تقدم أن الأرض المقدسة

هى التى ظهرت بها الطبيعة البشرية للمسيح • ولطالما ردده دعاة الحملات الصليبية كلمات المزمور ٧٨ عدد ٧٩ القائلة : « اللهم ان الأمم قد دخلوا ميراثك » وهى اشارة الى أن الأرض المقدسة هى ميراث المسيح •

وفى سياق الفكر والاهتمام الدينى الذى ساد القرن الحادى عشر كان الرأى الغالب والأهم هو أن هدف أوربان الأساسى كان يتمثل فى مساعدة الاغريق وأن بيت المقدس كان هدفا ثانويا ، بمعنى أن استرداد الكنيسة الشرقية بصفة عامة سوف يؤدى فى النهاية الى تحريرها • وهو رأى يصعب الدفاع عنه ولا يمكن اثبات ذلك من خلال دعوته للحرب الصليبية • ومن المستحيل الاعتقاد بأن رجلا مثله ، عاش حياة الأديره ، يستطيع ذكر بيت المقدس دون أن يستحضر فى ذهنه صور جبل صهيون Zion ، والمدينة المقدسة التى لابد أنها قد مست أوتار قلبه كلمات ورد ذكرها فى المزامير التى يرتلها أثناء القداس • وفى الحقيقة هناك دليل على انه عندما بدات أخبار انتصارات الحملة الصليبية تصل الى غرب اوربا شعر أوربان نفسه بالرغبة الشديدة فى الذهاب للشرق • وبدأت تسيطر عليه طموحات أشد جموحا تضمنت غزو مصر • وقد أكدت مواثيق الصليبيين الذين ذهبوا للشرق على أن الوصول الى بيت المقدس كان هدفا أساسيا منذ البداية ، ولا يمكن من هذه الناحية الاعتقاد بأن رسالة أوربان تعرضت للتحريف • وتحتوى كثير من المواثيق على اشارات تتعلق ببيت المقدس باعتباره هدف الحملة العسكرية الوشيكة الحدوث • وذكرت وثيقتان مسألة

تحريره على أنها الهدف • ولا أعرف الا وثيقة واحدة ورد فيها ذكر معاناة الشعب المسيحي في الشرق •

كان هدف الوصول الى بيت المقدس هو الذى جعل من الحملة الصليبية رحلة للحج • ولا ريب أن أوربان دعا الى الحملة الصليبية الأولى في كليرمون باعتبارها رحلة للحج الى الأرض المقدسة • كما أن كثيرا من الاجراءات التى اتخذها تضع تلك الحملة في صف واحد مع الاجراءات المتبعة عند الذهاب للحج في الأرض المقدسة • ومنح الصليبيين حماية الكنيسة وذلك بأن أصدر أمرا بابويا بالمحافظة على أملاكهم وعدم مسها بأى سوء حتى عودتهم • وهذه الحماية كانت مرتبطة بصورة خاصة بما كان يسمى بهدنة الله وهى الوسيلة التى استعانت بها حركة السلام الالهى لحظر أساليب العنف في أوقات محددة • لكنها ارتبطت بالاجراءات المتخذة للحج في الأماكن المقدسة ، كما حدث عند اصرار البابا على أنه يجب على أبناء الأبرشيات الحصول على اذن من قساوسة الأبرشية ، وأن يحصل الشباب على موافقة زوجاتهم قبل الذهاب مع الحملة الصليبية • ثم وضع أوربان نص قسم يؤديه المشاركون في الحملة الصليبية، وأن يتقلد كل مشارك شارة الصليب على صدره • ولابد أن أوربان قد توصل الى قرار يقضى بضرورة القسم وذلك عقب اجتماع بياتشنتسا Piacenza في مارس ١٠٩٥م، لأنه نصح أبناء غرب أوربا آنذاك بأن يقسموا على مساعدة اليونانيين • وسواء أكان هذا نذرا كاملا بالمعنى المصطلح عليه أم مجرد قسم لزملاء في جماعة مترابطة فذلك ليس واضحا • غير أنه من المؤكد أن القسم الذى عرضه أوربان على مجمع

كليرمون كان نذرا Votum حقا من أجل القتال في سبيل الله طوال الطريق حتى بيت المقدس ، ولا يمكن الوفاء بهذا النذر الا بعد الوصول الى بيت المقدس . وعلى الرغم من عـــدم وجود اجراءات رسمية في القانون الكنسي ، فمن الواضـــح أنه عند انتهاء القرن الحـــادى عشر عـــلى الأقل قام بعض الحجاج بأخذ عهد على انفسهم قبل رحيلهم ، وذهب جشيد غفير من الحجاج الألمان الى بيت المقدس بين عامي ١٠٦٤ ــ ١٠٩٥م حيث بلغ عددهم حوالى سبعة آلاف فرد ، وأخـــذوا عهدا على أنفسهم ، واعتبروا أنهم قد أوفوا بهـــذا العهـــد بمجرد وصولهم الى المدينة المقدسة . وفي القرن الثاني عشر كانت عملية أخذ العهد للمشاركة فى حملة صليبية أو فى رحلة مع الحجاج الى بيت المقدس تتشابه مع بعضها البعض حتى لا يكاد المرء يميز بين القسم الذى اتخذ بغرض الاشتراك في الحملة الصليبية وذاك القسم الذى اتخذ بهدف الحج . ولذلك فمن الأسلم افتراض أن النذر الخاص بالمشاركة في حملة صـــليبية قد خـــرج إلى الوجـــود بعـــد معاملة الحملة الصليبية، وكأنها رحلة للحج الى الأماكن المقدسة . ومن اليسير أن نرى كيف أن تطبيق وضع وأحوال الحجاج على المشاركين فى حملة صليبية على ذلك النحو جعل من الممـــكن أن يسيطر البابا على الصليبيين الى حد ما ، ذلك لأنهم خضعوا للمحاكم الكنسية باعتبارهم كهنة مؤقتين وفقا للقـــانون الكنسى . وفى الواقع تم التأكيد على أن الكنيســـة هى التى لهـــا حق وضع النذر العلنى للمشاركة فى حملة صليبية على الفور . وفى أكتـــوبر ١٠٩٧م طالب الكهنــــة المرافقـــون للحملة الصليبية بتطبيق الحـــرمان الـــكنسى عـــلى أولئك الذين لم

يذهبوا الى الشرق كما سبق لهم أن وعدوا • وفى يناير من العام التالى (١٠٩٨م) قام الكهنة بتوقيع الحرمان الكنسى على الذين لم ينضموا الى الجيش الصليبى وطالبوا زملاءهم فى غرب أوربا بأن يفعلوا الشىء نفسه • وفى سبتمبر ١٠٩٨م انتاب القلق قادة الحملة الصليبية عند أنطاكية عندما سمعوا اشاعة تقول ان أوربان سمح لأولئك الذين لم يفوا بنذورهم بالمشاركة فى الحملة الصليبية بأن يظلوا فى محل اقامتهم ، وربما كان أوربان قد أعفى من منعه فقره المدقع من الانضمام للحملة الصليبية ، مثلما فعل خليفته البابا بسكال الثانى Paschal II عندما أعفى أولئك الذين لا يتمتعون بلياقة بدنية وكذلك ماناس رئيس أساقفة ريمز(*) Rheims غير أن مخاوف القادة الصليبيين لم تكن فى محلها • ويبدو أن أوربان كان قد أمر قبيل وفاته بضرورة وضع النذور الخاصة بالمشاركة فى الحرب الصليبية موضع التنفيذ مع التلويح بتطبيق الحرمان الكنسى فى حالة التقاعس ، وتكرر ذلك فى عهد بسكال الثانى ، وجرى تنفيذ ذلك أيضا بمعرفة أساقفة الأبرشيات •

وكان أولئك الذين انضموا للمشاركة فى الحملة الصليبية يدركون جيدا أن الحملة الصليبية كانت فى حقيقتها زيارة حج للأراضى المقدسة ولا سيما بيت المقدس، كما يتضح ذلك من مواثيقهم التى أرسلوها الى الأديرة • ووصف أحدهم الحملة الصليبية مستخدما عبارات مطابقة لما يستخدم لوصف رحلة الحج الى بيت المقدس ، حين قال : « واذا أخذت بعين الاعتبار أن الله قد عفا عنى • بعد

(*) ريمز : مدينة فى شمال شرق فرنسا — (المترجم) •

اقترافي كثيرا من الخطايا ، وقد مكنني من التــكفير عن ذنوبي ، ولما كنت أخشى من أن ذنوبي قد تحرمني من التمتع بملكــوت الله ، فانى أنا انجلبــولد Ingelbald أرغب فى الذهاب الى القبر المقدس لأتخلص من الخطايا » ·

وقرر اثنان من الاخوة الذهاب الى بيت المقدس فقالا : « لنذهب الى هناك للحصول على نعمة الحج من جهة ، ولتطهير الأراضى المقدسة من ناحية أخرى من دنس الوثنيين ، والقضاء عــلى غائلة ثورتهم التى ظهرت فى شــكل اضطهاد أعــداد لا حصر لها من المسيحيين ، وأسرهم ، وقتلهم بكل الوسائل الهمجية » ·

واعتبر الصليبيون أنفسهم حجاجا عند زحفهم على بيت المقدس وراعوا ممارسة الطقوس الدينيــة المرتبطة عادة بذهاب الحجاج الى بيت المقدس · ولكنهم كانوا يشاركون فى نوع شاق من رحلات الحج الى بيت المقدس ، لأنهم كانوا مشاركين فى حملة عسكرية · وفى واقع الأمر أن احتياجات الحرب كانت تعنى أن الدعوة لرحلة الحج هــذه موجهة الى الشباب الأصحاء فقط · وحاول أوربان فى كليرمون تحديد نوع الشخص المشارك فى مثل هــذه الحمــلات · فلم يكن المسنون والعجزة صالحين للمشــاركة ، بالرغم من أنه كان واضحا امكانية ذهاب النساء مع أزواجهن واخوانهن شريطة أن يحصلن على موافقة سلطات الكنيسة · عــلى أن التعبيرات فى المصــادر التاريخيــة كانت غامضــة ، فبخصــوص الموانع المتعلقة بعامة الناس لم تكن هناك قوانين صارمة ·

وكان الذهاب للحج الى بيت المقدس مباحا لكل فرد ولا سيما الراغبين فى اعلان الندم والتوبة ، ثم تزايدت باستمرار أعداد المرضى الراغبين في الذهاب للأراضى المقدسة ، رغبة فى الشفاء • وفي الحقيقة كان القبر المقدس ، مثل قبر القديس بطرس فى روما ، وقبر القديس جيمز St. James فى كومبوستيلا Compostella غير مشهور بمعجزات تحقق شفاء المرضى ، لذا فقد كان عدد من يذهبون الى هناك بغرض التوبة يفوق عدد من ذهبوا بغرض الشفاء من المرض • كما ذهبت جموع غفيرة من الناس لكى تموت هناك فقط • ولم يكن هناك من سبيل أمام البابا لمنع اى أحد من المسيحيين من الذهاب الى بيت المقدس ، اذا ما كان هذا الشخص من غير الرهبان والكهنة • وهذا يفسر الى حد ما اخفاق الكنيسة فى السيطرة على عملية حشد الراغبين فى القتال وتنظيم الأعداد الغفيرة من غير اللائقين صحيا للانضمام الى الحملة العسكرية •

ولابد أن أمر البابا أوربان بوضع صليب من القماش يثبته بالخيوط على ملابس كل مشارك فى الحملة الصليبية كان له ارتباط بذهاب الحجاج الى بيت المقدس ، وبالاضافة الى ذلك كان هذا الصليب بوضعه المذكور تعبيرا واضحا عن فكرة قوية ظهرت فى الكتابات الدينية المعاصرة ، وهى أهمية الصليب للمسيحيين • فالبابا أوربان أشار من قبل فى عام ١٠٩٣م الى المسلمين على أنهم « أعداء الصليب » ، وبذلك سوى ووازن على الفور بين تقليد شارة الصليب وواحد من تعاليم المسيح :

« ان أراد أحد أن يأتى ورائى فليتنكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعنى - لوقا ٩ : ٢٣ » ٠

واوضح ارتباط ذلك بتعليم آخر :

« وكل من ترك بيوتا أو اخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمى يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية ٠ متى ١٩ : ٢٩ » ٠

وفى سبتمبر ١٠٩٨م أشار قادة الحملة الصليبية فى سوريا الى البابا : « انه بفضل خطبك الدينية ، جعلتنا نغادر أراضينا وكل ما عليها ، وطلبت منا أن نتبع المسيح بأن يحمل كل منا صليبه » ٠

لجأ أوربان الى الفرنسيين بصفة خاصة ، وبقيامه بهذا الاجراء يكون قد تخلى عن أفكار وعرف البابوات فى الفترة القريبة من عهده ، ويكون قد عاد الى سياسات أسلافه الذين عاشوا فى القرنين الثامن والتاسع للميلاد ٠ ولا ريب أن أوربان عندما بدأ يدرك أن الحماس كان جارفا فى أماكن أخرى كان مستعدا لتشجيع قوميات أخرى على الانتظام فى الحملة الصليبية باستثناء المسيحيين من أبناء اسبانيا بالطبع ٠ وعبر أوربان عن استحسانه للحماس الذى أبداه أنصاره فى بولونيا Bologna ، ولابد أن الاهتمام بالمساعدة البحرية قد أدى الى قيام أوربان بارسال وفد مفوض على مستوى عال برياسة أسقفى جرينوبل Grenoble وأورانج Orange الى جنوه Genoa فى يوليو ١٠٩٦م

بعد عقد مجمع نيم(*) Nimes • وأرسل أوربان بطلبات نجدة على وجه السرعة من بيزا Pisa وميلانو Milan في عامي ١٠٩٨م و ١٠٩٩م عندما كانت هناك حاجة ماسة الى تعزيزات عسكرية اضافية • غير أن اختياره كليرمون كمكان للاعلان عن دعوته الأولى للحرب الصليبية بعد انعقاد تجنيد الفرنسيين ، هو أمر طبيعي لرجل في مثل نشأته ، حيث كان ينتمي الى طبقة اجتماعية واقليم قدم الكثير من المساهمة والدعم للحملة الصليبية الأولى • وكتب أوربان نفسه : «اننا زرنا بلاد الغال وألححنا على أصحاب الاقطاعات وأتباعهم للمشاركة في الحملة الصليبية من أجل تحرير الكنائس الشرقية » • ويؤكد وصف أحد المعاصرين لخطبته الدينية في أنجيه Angers في فبراير ١٠٩٦م على أن دعوته كانت موجهة بصفة خاصة للفرنسيين : « البابا •• حضر الى أنجيه ، وحث شعبنا بكل حماس وقوة على الذهاب الى بيت المقدس » • وتقول رواية أخرى انه في احدى خطبه بكليرمون قد ذكر مستمعيه بالأعمال البطولية التي تحققت على أيدي ملوك الفرنجة السابقين مثل شارلمان ولويس التقي فقال : « لعل قصص أسلافكم تعمل على اثارة مشاعركم وتحرك نفوسكم فتدركون مقدار قوة وعظمة شارلمان وشهرته ، وابنه لويس التقي وغيرهم من حكام بلادكم الذين قضوا على الممالك الوثنية ، ووسعوا حدود الكنيسة المقدسة» •

ومن المرجح أن البابا أوربان استخدم عبارات تحريض في خطاباته ، ويتضح ذلك من الخطاب الذي أرسله الى ملك

(*) نيم : مدينة في جنوب فرنسا – (المترجم) •

أنجيـــه Angers ١٠٩٦م ، يحثه فيه على مقاومة أعداء البابا باستخدام القوة : « أيها الملك ، هلم ارفع راية الايمـــان الكاثوليكى المجيد ، الذى يجب أن يشارك النصر والمجد مع الرايات العلمانية لمملكتك ··· فكر مليا ··· فى الملك ستيفن Stephen الورع ، الذى كان أول فرد فى أسرتك تلقى الايمان من الكنيسة الرسولية والرومانية المقدسة » ·

أكد البابا أوربان على أن الحرب الصليبية هي مشروع يشارك فيه العامة والفرســان وجنــود المشــاة · ولم يكن مسموحا للقساوسة والكهنة والرهبان المشــاركة فى الحرب الصليبية دون الحصول على موافقة أســاقفتهم ورؤســـاء أديرتهم · وفى الحقيقة لم يكن أوربان راغبا على الاطلاق فى ان يذهب الرهبان ، وقد أوضح ذلك تماما فى كليرمون وفيبره فيما بعد : « اننا نشجع الفرسان عــلى المشاركة فى هذه الحملة لأنهم بسلاحهم يستطيعون وضع حد للأعمـــال الوحشية التى يمارسها المسلمون ، ويعيــدون للمســيحيين حريتهم السابقة · كما أننا لا نريد من أولئك الذين نذروا أنفسهم للعمل الدينى وهجروا عرض الدنيا الزائل حمـــل السلاح أو المشاركة فى تلك الحملة ، بل اننا نذهب الى حد منعهم من القيام بذلك » ·

وكانت احدى سمات دعوته التى أثارت الاهتمام هى أنه لم يقصر توجيهها على كبار الاقطاعيين والأثرياء الذين لهم ثقل سياسى واقتصادى فحسب ، وانما امتدت لتشـــمل أتباعهم أيضا · ومن الواضح أنه وضع فى اعتباره رؤساء القلاع وفرسانهم ، ولابد أن هذا أدى الى المقــارنة التى

وردت فى خطابه فى كليرمون ، وكانت تلك المقـــارنة بين المحاربين الأشرار القدامى وبين الفرسان المسيحيين الجدد ٠ ونالت رسالة آوربان ميزة آخـرى عـلى آسـاس أن مجمع كليرمون الذى انعقد تحت رياسته عمل على تحديد قرارات سلام الرب ٠ وكلما فكر المرء مليا فى القضية اتضـح أن أوربان تعمد مناشدة هذه العنـاصر فى المجتمع الفـرنسى الذى كان ممزقا شر ممزق فى الماضى ولم تنتظم صـفوفه الا فى القرن الثانى عشر ٠ ويشـير ذلك الى بلوغ حـركة الكنيسة تجاه العلمانيين ذروتها وهى الحركة التى كانت قد بدأت قبل ذلك بقرن من الزمان ٠ وأعلن أوربان بكل صراحة أن المشاركة فى الحملة الصليبية ستكون عملا يجعل صاحبه ينال ميزة خاصة ، أى أنها تساهم فى حصول المرء عـلى الخـلاص ٠ وقال أوربان بأن المشـاركة فى الحملة الصليبية ، « انما هى التضحية المثلى » (recta oblatio) وهى عمل للتقرب لله من أجل خلاص روح الصليبى ٠ وكانت المشاركة فى الحملة الصليبية جديرة بالمكافأة ؛ لأن الصليبيين يكونون قد أطاعوا وصية المسيح بحمـل صلبانهم واتباعه ليعبروا عن حبهم لله ولاخوانهم فى المسيحية ٠ ومن ثم كانت الكنيسة قد بدأت تقر فى أذهان العلمانيين فكرة أن الحرب الصليبية ليست مجرد عمل يرضى عنه الله بل هى الطـريق الى الخلاص (طريق الصليب) وهو الطريق الذى كان يظن من قبل أنه مقصور على رجال الدين ٠

ومنذ القرن الثامن الميلادى صارت الفكرة القائلة بأن الحرب تستحق الثناء والاطراء تجد لها مستمعين بين الفينة والفينة ، وبخاصة فيما يتعلق بمن يقتلون وهم يقاتلون غير

المسيحيين أو أعداء الكنيسة ، وأصبحت تعبيرات من هـذا النوع شائعة منذ منتصف القرن الحادى عشر • ومن المحتمل أن اشارة أنسيلم اللوكاوى Anselm of Lucca في مجموعته القانونية Collectio Canonum الى بعض مقتطفات عن الموضوع وردت فى مؤلفات القـديس أوغسـطين الذى برر العنف كتعبير عن الخير فى المسيحية ، وكانت هذه الاشارة حاسمة بالنسبة الى تفكير اوربان • وبالنسبة الى أوغسطين كانت نوايا أولئك الذين أجازوا اللجوء الى العنف وأولئك الذين شاركوا فى القيام بهذا العنف تتمثل فى أن تحقيق العدالة يأتى باتباع طريق محبـة الله ، وحب الانسـان لأخيـه فى الانسانية • وتبع ذلك أن حتمية اللجوء الى العنف يجب أن تكون مصحوبة بمحبة أولئك الذين يستخدم معهم هذا العنف على أن تكون تلك المحبة هي الدافع الأساسى لممارسة العنف • وكان الهدف من حتمية اللجوء الى العنف هو جعل المذنب أو الآثم يشعر بالسعادة والرضا ، وغالبـا ما كان اسـتخدام العنف أكثر تعبيرا عن المحبة والمودة وأكثر استخداما من الغفران • وكتب أوغسطين عن الطريقة التى تمكن الوالدين من التعبير عن حبهم لأولادهم ، وذلك بتأديبهم ، واستخدام العنف معهم ، وعن ضرورة اللجوء للعنف أحيانا من أجـل ابراء المرضى أو انقاذ النـاس من رغباتهم التى تعرضـهم للخطر • وقام أوغسـطين بالبحث والتنقيب فى الكتـاب المقدس عن اشارات وأسانيد لأعمال العنف أو مبررات لها ، حث عليها ومارسـها موسى [عليـه السـلام] ، وايليـا ، والقديس بولس • وفى التصريحات العلنية للبـابا أوربان الخاصة بالحرب الصليبية لم يتبع منهج أوغسطين القائم على

محبة الأعداء ولا سيما المسلمين منهم ، وانما اكد على محبة الاخوة المسيحيين فقط ، والمخاطرة بالحياة لانقاذهم ، ذلك لأن جمهور المستمعين اليه لم يكن فى مقدورهم ادراك وجهة النظر اللاهوتية بكاملها ٠

وعرض أوربان فكرة الحروب الصليبية باعتبارها كفارة قاسية ، وتستحق كل الاطراء والمديح ، وذلك وفقا لما اتضح في صكوك الغفران الكنسى التى منحها ٠ وقد حاول المؤرخون منذ سنوات مضت ، تتبع خط مستقيم للتطور منذ بداية الصيغ التى قدمها أوربان للغفران الى الصيغ المدروسة بعناية والتى صاغها البابا انوسنت الثالث ، وورد بهنا تأكيدات على رحمة الله والوعود بالغفران لخطايا المذنبين التى يعاقب عليها الله فى الدنيا أو فى الآخرة ، وتوصلوا الى أن قرارات الغفران التى أصدرها أوربان اكتنفها التناقض والتشويش ٠ ومن غير المحتمل أن أوربان كان يجهل حقيقة ما كان يمنحه من غفران ، وليس هناك علامة تشير الى أن هناك اضطرابا بين الكهنة الذين كتبوا مواثيق المشاركين فى الحرب الصليبية اذ انهم اعتقدوا أن المشاركة فى الحرب الصليبية سوف « تغفر الخطايا » ، وتساعد على انقاذ روح الانسان ٠ وتصبح آراء أوربان أكثر وضوحا اذا كف المرء عن مقارنتها بالأفكار اللاهوتية المتعلقة بغفران الخطايا والتى ذاع انتشارها خلال القرن الثانى عشر ٠ وبدأ أوربان موضوع الكفارة بفكرة قديمة بأن الكفارة يمكن أن تنال رضا الرب ، أى أن أداء الكفارة يمكن أن يتوازن مع

الخطيئة وتطهر الكفارة المذنب من الذنب لكى يمكن له أن يتقرب الى الله من خلال العقاب الذى يجلبه الخاطىء عـلى نفسه • ان الكفارة القاسية التى تمثلت فى المشـاركة فى حملة صليبية من الممكن أن تحقق الرضى وتمحو كل ما تقدم عليها من ذنب • وظل هذا التفسـير للغفران عن طـريق المشاركة فى الحملة الصليبية يقدمه أحد كبار رجال الكنيسة بعد انعقاد مجمع كليرمون بقرن تقريبا : « بموجب الامتياز الذى يحظى به بطـرس الرسـول وبحق السـلطة العـامة للكنيسة ، فان المسيح قد أوضح أن شـارة الصـليب هى كلمة مصالحة بين الناس والله ، كمـا أن الطـريق الى بيت المقدس سيكون هذا الطريق الذى يؤدى الى الكفارة الكاملة وغفران جميع الخطايا » •

وفى حـوالى ١١٥٣م قدم المـؤرخ أوردريك فيتاليس Orderic Vitalis نفس تفسير أوربان للغفران الذى منحه للمشاركين فى الحملة الصليبية الأولى : « طالب البابا كل من فى استطاعته حمل السلاح أن يحارب أعداء الله ، وبارادة الله غفر البابا للتائبين خطاياهم جميعـا منـذ اللحظة التى أقسموا فيها على المشاركة فى الحملة الصليبية وبكل مودة وحنان أعفاهم من كل المشقات سواء أكانت صياما أم كبح شهوات الجسـد • وباعتبـار البـابا عالما لاهوتيا بارزا ، وحكيما شفوقا ، لذلك كان لديه بعد نظر جعله يرى ما ينتظر أولئك الذين عقدوا العزم عـلى الذهاب الى بيت المقـدس ،

من مخاطر وأهوال وهم في طريقهم ، فهم سيتجشمون العناء يوميا مما يكفر عنهم ذنوبهم وخطاياهم » .

وعلى هذا النحو المشار اليه لم يكن غفران أوربان سوى اعلان رسمى عن أن الحرب الصليبية هى الفرصة السانحة لاعلان التوبة ، أى أن المشاركة فى تلك الحرب كفيلة بأن تكون كفارة عن كل ما تقدم من الذنوب . ويبدو أن هذا الرأى قد تأكد عندما منح أوربان غفرانه لمن أراد البقاء فى الأندلس لمحاربة المسلمين هناك . ويبدو أن هؤلاء الرجال قد حصلوا على تأكيد بنوال الغفران الكامل فى حالة موتهم فحسب . ويتضح معنى هذا القول اذا ما وضع المرء فى اعتباره حقيقة أن استرداد طراقونة Tarragona والدفاع عنها كان عملا أقل الحاحا من الزحف الى بيت المقدس . وعلى ضوء ما تقدم فلم تكن عبارات أوربان غامضة : « ان كل من يذهب الى بيت المقدس بواقع التقرب الى الله دون تفكير فى تحقيق مجد أو جمع مال وانما لتحرير كنيسة الله فان هذه الرحلة تحقق له غفران كل الخطايا . واننا نتصرف على مسئوليتنا ونتحمل مسئولية رؤساء الأساقفة ، والأساقفة فى بلاد الغال من خلال رحمة الله العلى ، وصلوات الكنيسة الكاثوليكية ، اننا جميعا نخلصهم من كل ذنوبهم » .

ويبدو أن استعمال أوربان لعبارة « من أجل غفران كل خطاياهم » لم تعد تتعارض مع ما يتعلق بالكفارة فى تلك العبارات ؛ اذ ان الخطايا تسقط عن الانسان عندما يحصل على الغفران الكامل . والواقع أن الغفران الذى منحه أوربان

كان مألوفا نوعا ما ، بل انه كان معروفا منذ زمن مضي ، فعلى الرغم من أنه كان مفاجاة لكثير من المسيحيين في عهد أوربان ، فانه لم يكن جديدا فقبل عهد أوربان بحوالي ثلاثين عاما ، قام البابا الاسكندر الثاني بمنح غفران مشابه تماما لغفران أوربان الى المسيحيين الذين يحاربون في اسبانيا ، وربما كان قد منح الغفران أيضا للمسيحيين الذين كانوا يقاتلون من أجل استرداد مدينة بوبشتر Barbastro .

ومن وجهة نظر رجال الكنيسة بدوائر الاصلاح في ايطاليا لم يكن هناك جديد فيما عرضه أوربان باستثناء فكرة الدعوة التي وجهها الى الفرنسيين ، بل ان ما قد يبدو جديدا انما هو بالنسبة الى القرنين السابقين على عهد أوربان حيث شهد هذان القرنان تزايد قوة حكام ألمانيا وتدهور السلطة المركزية في غرب بلاد الفرنجة • والواقع أن دعوة البابا أوربان كانت أقل تطرفا من تلك الدعاوى التي نادى بها المصلحون في الماضي القريب في بعض النواحي • ولا نقصد بذلك أن فكرة أوربان كانت تقليدية بالنسبة للمستمعين اليه ، ولكن الاثارة التي نجحت هذه الفكرة في خلقها هي الدليل الوحيد على مدى تخلف كثير من أجزاء غرب أوربا ، ومدى الصعوبات التي واجهها المصلحون عند محاولتهم نشر تعاليمهم الى الأقاليم المسيحية • وحيث ان أوربان قد أبدى اهتماما مركزا نحو مسألة استرداد اسبانيا في أوائل عهده ، فلابد أنه نظر الى اقتراحه باعتباره يتسم بالاعتدال •

ولم يحدث قبل عهد أوربان أن أعلن أى بابا حربا مقدسة نيابة عن المسيح وتمت معاملة المشاركين فى تلك الحرب معاملة الحجاج الى بيت المقدس ، ولكنهم حجاج يؤدون القسم ويتمتعون بالغفران • وفى الحقيقة كانت الحرب التى تمت الدعوة اليها فى كليرمون ، هى الحملة الصليبية الأولى • وغالبا ما قيل ان اوربان أوجد تركيبة جديدة ومقبولة شريطة أن يدرك المرء أن بعض عناصر تلك التركيبة ، ولا سيما المفهوم المهم الخاص بالحرب من أجل المسيح ، كانت كلها ما تزال فى مرحلة المهد ، ثم قدر لها أن تتبلور وتتضح فى أفكار الصليبيين عندما شعروا بالمعاناة فى آسيا الصغرى •

الفصل الثانى

استجابة عامة النـاس

بذل اوربان جهودا مضنية عند اعلانه الحرب • ويحمل خطاب باسم البابا أوربان موجه الى شعب الفلاندر تاريخا قريبا جدا من تاريخ انعقاد مجمع كليرمون • وبعد أن انتهى أوربان من جولته فى فرنسا قام على الفور بارسال الوفود او الخطابات الى جنوه ، وبولونيا Bologna وبيزا Pisa ، وميلان • وكانت الحرب الصليبية على جدول أعمال المجلسين اللذين عقـدهما فى بارى Bari فى أكتوبر ١٠٩٨م وفى روما فى أبريل ١٠٩٩م • وقام بتشـجيع كل الأسـاقفة بالأبرشيات فى مجمع كليرمون ، وفى نيم Nimes ، عـلى الدعوة لحمل الصليب وخوض الحـرب • أما هيـو الديى Hugh of Die ، رئيس أساقفة ليون فكان مصلحا متحمسا، وقدم المساعدة للحملة الصليبية بكل همة ونشاط وفعـل الشيء نفسه العديد من الأساقفة • ولكن يبـدو أنه لم يكن جميع الأساقفة على نفس القـدر من تعـاليم البابا المتعلقة بالدعوة للحرب • وهناك أعداد قليلة من النسخ الخاصـة

بقرار كليرمون المتعلق بالغفران الكنسى ؛ مما يوحى بأن عددا قليلا من الأساقفة هم الذين اهتموا بنسـخ ذلك القرار . وكان لامبرت الأراسى Lambert of Arres أحـد الأساقفة الذين وجدوا أن الشيء المهم انما يتمثل فى تأكيد البابا على مكانة أبرشيته . ولا يوجد أى سجل عن الحـرب الصليبية التى تمت مناقشـتها فى مجمـع روان Rouen فى فبراير ١٠٩٦م الذى أعاد ذكر قـرارات مجمع كليرمون . وعملت المواعظ الدينية التى قدمها رجال الدين المستقلون من أمثال بطرس الناسك Peter the Hermit ، وغيره من الرهبان ، على تزايد الحماس تجاه المشاركة فى الحرب الصليبية ، وقام أولئك بحشد المتطـوعين للحرب ، ويبـدو أن رئيس دير ماليزيه Millezais نال شهرة متميزة كأحد الكبار الداعين الى المشاركة فى الحرب الصليبية . وكانت هناك أديرة تقوم بمهمة حشد الراغبين فى الانضمام للحرب الصليبية ، وربما ساعد على ذلك دافع التحمس لدى هـذه الأديرة وارتفـاع مستواها المادى أو اشرافها على أراض زراعية تدر عائـدا وافرا يسمح لها بأن تكـون مركزا للتصرف فى الممتلكات وتجميع الموارد المالية ، ومن أشهر هـذه الأديرة دير كلونى Cluny ودير القديس فنسنت اللومانى St Vincent of Le Mans .

ومهما كانت الطريقة التى انتشر بها خبر الدعوة الى الحرب الصليبية فقد ذكر أحد المعاصرين أن الخبر انتشر بسرعة لدرجة أنه لم يكن هناك حاجة الى الدعوة للمشاركة فى الحرب الصليبية . فمما لا شك فيه أن خبر الدعـوة انتشر بسرعة من كليرمون الى مناطق أخرى لم يقم البابا

بزيارتها بنفسه • وفى الحادى عشر من فبراير ١٠٩٦م عقد فيليب ملك فرنسا وأخوه هيو الفرماندى Hugh of Vermondois مباحثات مع كبار النبلاء فى باريس بشأن الحرب الصليبية • وقد حدثت ظواهر طبيعية غريبة ، بدأ ظهورها قبل انعقاد مجمع كليرمون واستمرت فى الظهور ابان الدعوة للحرب الصليبية ١٠٩٦ م ، ثم بعد فترة قصيرة من التوقف ، عادت تلك الظواهر الطبيعية الى الظهور من جديد فى خريف ١٠٩٧ م ، فأحيطت الحرب الصليبية بهالة شبيهة بالظل السحرى • وتظهر تلك الحوادث غير المتوقعة فى الكتابات التاريخية التى سجلت بعد نجاح الحملة الصليبية ، وكان أمرا طبيعيا أن يلتمس الناس تفسيرا لهذه الحوادث • ويبدو أن المناخ قد اضطرب على نحو غير عادى نتيجة للزيادة التدريجية فى النشاط الشمسى ، مما أدى الى فترة من الاضطراب المتزايد والذى أصبح معروفا بأنه استمر من حوالى ١١٢٠ م حتى ١٢٨٠م ، مما جعل الكتاب الذين جاءوا بعد ذلك يبحثون عن الطريقة التى تنبىء بها الطبيعة بتحرير بيت المقدس :

« وفى عهد الامبراطور هنرى الرابع ••• ووفقا للنبوءات فى الأناجيل الأربعة القانونية « تظهر أمة فى كل مكان فى مواجهة أمة ، ومملكة فى مواجهة مملكة ، وتحدث زلازل شديدة فى أماكن مختلفة ، وتحدث الأوبئة والمجاعات وأحوال من السماء وعلامات كبرى » •

وعندما شاءت ارادة الله تحرير القبر المقدس وفتح الطريق للمسيحيين الراغبين فى السفر الى بيت المقدس من

أجل خلاص أرواحهم ، أظهر الله كثيرا من العلامات والقوى، والمعجزات ، والعجائب ، لشحذ أفكار المسيحيين حتي يبادر الراغبون منهم بالذهاب الى هناك • فقد شوهدت شهب فى أنحاء العالم ؛ وهي تندفع معا فى كبد السماء تجاه الأرض بصورة كثيفة مثل البرد أو الكسفات الثلجية ، وبعد ذلك بفترة قصيرة من الوقت ظهر خط طويل من اللهب فى السماء ثم تحول لون السماء الى اللون الأحمر • وازدادت الأحلام والرؤى بين الناس بصورة لم يعرفها أحد من قبل •

وبدأت السلسلة المتعاقبة لتلك الحوادث فى الرابع من أبريل ١٠٩٥م ، قبل انعقاد مجمع كليرمون بسبعة أشهر وذلك عندما شاهد الجميع فى كل أنحاء فرنسا سقوط الشهب • وفى الحادى عشر من فبراير ١٠٩٦م وأثناء اجتماع ملك فرنسا مع أخيه وكبار الأعيان فى المملكة حيث كانوا يتباحثون فى موضوع الحرب الصليبية ، حدث خسوف للقمر ، وتحول الى اللون الأحمر ، وتلا ذلك فى مارس من العام نفسه وجود « علامة فى الشمس » ، وأصيب الناس بحالة من الهلع والذعر ورفع الكهنة الابتهالات والصلوات ورددها الناس من خلفهم فى الكنائس • وفى أغسطس من العام نفسه حدث خسوف آخر للقمر • ثم توقفت تلك الظواهر حتى خريف ١٠٩٧ م حيث ظهر مذنب • وفى فبراير ١٠٩٨م تلونت السماء باللون الأحمر • وفى الخريف الثاني ، ظهر ضوء شديد فى السماء طوال الليل ، وبدا وكأن هناك حريقا فى السماء • وفى ديسمبر حدث كسوف للشمس ، وفى فبراير ١٠٩٩م ملأ شفق أحمر آخر الجزء الشرقى من السماء • وشاهد

الصليبيون في سوريا ، ابتداء من خريف ١٠٩٧م علامات في السماء ، كما سنرى • وفي الوقت نفسه استمرت حالة القحط الشديد لعدة سنوات فهلك الضرع وانتشرت المجاعات في فرنسا ، وانتهت هذه الحالة فجأة بحلول ربيع ممطر تبعه محصول وفير •

وفي مقابل تلك الصورة المثيرة استمرت الدعوة للحرب الصليبية ، وانتشرت أنباء تلك الدعوة • وكانت هناك استجابة كبرى للحرب الصليبية في كل من فرنسا وغرب المانيا وايطاليا • وليس هناك شك في وجود قدر من العنصر الهستيري في الدعوة للحرب الصليبية حيث قام الخطباء المهيجون للمشاعر الشعبية من أمثال بطرس الناسك الذى ادعى أن المسيح نفسه كلفه بالدعوة للحرب الصليبية ، ولوح بطرس بخطاب سماوى كعلامة لتكليفه بالدعوة • وربما كانت تلك الروح الهستيرية مستمدة من التوقعات القائمة على الايمان بالبعث والحساب وما هو مستمد من نبوءة شائعة بين الناس عن آخر امبراطور يقيم في بيت المقدس قبيل قيام الساعة • وعبرت تلك الحالة من الاضطرابات النفسية الشديدة عن نفسها في صورة رؤى ، وفي ظهور آثار وشم صلبان على جسد عدد من المشاركين في الحرب الصليبية ممن لهم تأثير مهم وملحوظ • وربما كانت هذه الحالة تعبيرا عن سلوك الكونت اميتش اللينينجيني Count Emich of Leiningen أشد الشخصيات قسوة في اضطهاد اليهود في أراضي الراين في أوائل صيف ١٠٩٦م • وذكر كاتب يهودى أن اميتش لفق قضية تقول بأن أحد رسل المسيح جاءه ووشم صليبا على جسده وأبلغه بأنه عند وصوله الى ايطاليا سيظهر له المسيح

بعينه ويضع تاج الملك على رأسه ، وان اميتش سوف يتغلب على خصومه ·

ومن الواضح أن في هذا القول اشارة الى نبوءة الامبراطور الأخير الذى فى عهده سيعتنق اليهود المسيحية وفقا للاعتقاد السائد عند المسيحيين · وآكد الأب اكهارد الأوراوى Eikkehard of Aura بألمانيا على ما ادعاه اميتش، مثله في ذلك مثل شاول Saul « قد ناداه الوحي الالهى لكي يشارك في هذه المهمة الدينية (الحرب الصليبية) » · وتوحي مقارنة اميتش بشاول بأن اكهارد اعتقد أن اميتش غير رزين · وكان كتاب الحوليات اليهود يعتبرون أن اميتش كان حتى قبل قيام الحرب الصليبية : « شخصا سيىء السمعة بسبب سلوكه الاستبدادى » · وبعد موته ١١١٧م كان هناك اعتقاد سائد بأن روحه الشريرة ظلت تكثر التردد على اقليم ماينتس (★) Mainz لاستجداء الصدقات والصلوات من المؤمنين لتحرير روحه من العذاب ·

وبالاضافة الى ذلك ، فقد وجد التحمس للحرب الصليبية سبيلا بين طبقات اجتماعية لم يكن أوربان راغبا في أن يستحثها على المشاركة فى تلك الحرب · وسبق لى أن تحدثت عن النوعية المحددة التى دعاها أوربان للمشاركة في الحملة الصليبية لأنه وجه رسالته الى الفرسان على وجه التخصيص، وحاول جعل الحملة الصليبية قاصرة عليهم · وأشرت الى حقيقة أنه نظرا لأن دعوته كانت دعوة لتحرير الأراضى المقدسة فكان يستحيل عليه منع النساء والأطفال وكبار السن

(★) ماينتس · مدينة تقع فى غرب المانيا على نهر الراين ـ (المترجم) ·

والمرضى الذين نذروا أنفسهم للذهاب اذا ما كانوا عقدوا العزم على الذهاب • هذا فضلا عن تزامن الدعوة للحرب الصليبية مع تفشى التسمم المهمازى(★) ergotism وهو مرض بغيض ينتج عن تناول خبز مصنوع من الجودار المتعفن mouldy rye • وغالبا ما أدت الأوبئة فى فرنسا الى قيام الناس هناك بالزيارات الجماعية الى الأماكن المقدسة • ويبدو أن أوربان قد اتخذ خطوات من أجل تخفيف المعاناة التى أحدثها المرض ابان زيارته لفرنسا ، ولابد أنه كان على دراية باحتمال وجود استجابة جماعية بل وحتى هستيرية لدعوته • وحمل أوربان قساوسة الأبرشيات مسئولية تنظيم عملية حشد الراغبين فى المشاركة فى الحملة الصليبية فكان على كل راغب فى المشاركة الاتصال بهؤلاء الأساقفة بناء على توجيهات أوربان • غير أن النظام الأبرشى لم يكن قادرا فى ذلك الحين على القيام بهذه المهمة • فهناك سيدة غنية من طبقة النبلاء اسمها اميرياس Emerias اقسمت على أن تشارك فى الحرب الصليبية ، وذهبت الى أسقفها لتنال منه البركة قبل رحيلها • غير أنه اقترح عليها أنه من الأفضل لها أن تقيم ملجأ لرعاية الفقراء ، ثم وافقت على هذا الاستبدال لنفسها • ووجدت صعوبة فى بداية الأمر ، غير أن أسقفها أقنعها بتغيير رأيها • ولذلك ليس من المدهش أن نعرف أن الحملة الصليبية الأولى ضمت أعدادا كبيرة من النساء والأطفال والفقراء •

ومع ذلك فمن الصعب الاعتقاد بأن حالة الهستيريا أثرت على عدد كبير من الصليبيين • ولا ريب أن الايمان

(★) التسمم المهمازى أو الأرجوتى من أعراضه حدوث تشنجات عضلية لا ارادية ولوع من الغنغرينا — (المترجم) •

بالعصر الألفى السعيد millenarianism ، كان موضـــوعا للدراسة ، وكما ذكرت المصادر المعاصرة التى أشـارت الى المســلمين على أنهم أتبـاع للمسيح الدجال Anti Christ ، أشارت الى وجـود اشـارات عن اقتراب الســاعة وعلامات ومعجزات دالة على اقترابها ، غير أنه يوجـد دليـل يكفى ليجعلنا نفترض أن الأفكار المتعلقة بالبعث والحساب كانت واسعة الانتشار • وعلى الرغم من أنه لا يصح لنا أن نقلل من أهمية مشاركة غير المقاتلين الفقراء ، فانه لا يصح لنـا أن نغالى فى تقدير جهودهم أيضا • فعلى سبيل المثال سنرى أن الجيوش التى كانت يطلق عليها جيوش الفــلاحين كانت تضم فرسانا قاموا بقيادة تلك الجيوش ، وربما اشـتملت تلك الجيوش على أعداد كبيرة من الفرسان بنفس القدر الذى كان موجودا فى الجيوش الأخرى •

وفى الحقيقة توجـد مجموعة من المعلومات التاريخية التى يرجع تاريخها الى قبيل قيام الحرب الصليبية ، والتى تكشف لنا عن مشـاعر كبار الشـخصيات ورؤساء القلاع والفرسان عندما انضموا الى الحرب الصليبية • وبصفة عامة تتكون هذه المجموعة من مواثيقهم التى كانت لصالح الكنائس والأديرة • وتكشف هذه المجموعة كذلك عن اخلاص هادف من جانب الراغبين فى أن يكونوا ضمن الصليبيين ، وتوحى بأن رد فعل تنكرد النورماندى Norman Tancred الذى كان يعيش فى جنوب ايطاليا تجاه أخبار الدعوة للحرب الصليبية كان نمطيا وفقا لوصف رالف الكاينى Ralph of Caen الذى كتب السيرة الذاتية لتنكرد ، ووصف حالة تنكرد بقـوله :

« كثيرا ما كان تنكرد يعاني بشدة من حالة القلق التى كانت تنتابه لأن الحرب التي شارك فيها كفارس كانت تتعارض مع أوامر المسيح • وفى الحقيقة لقد أمره المسيح بالتسامح وبأن يدير خده الأيسر لمن ضربه على خده الأيمن ، غير أن الفروسية العلمانية سريعة الى سفك الدم • كما أن المسيح نصحه بأن يعطى سترته ومعطفه لمن يطلبهما ، غير أن ضرورات الحرب تفرض عليه أن يجرد الانسان الذى يقاتله من كل شيء « كل ما تبقى معه » ولكن بعد صدور قرار البابا أوربان الخاص بمنح الغفران عن كل الخطايا لكل المسيحيين الذين يذهبون لمحاربة المسلمين تزايدت قوة تنكرد ونشاطه • وكان فكر تنكرد مشتتا ، وغير متأكد اذا ما كان يسير وفقا للتعاليم الدينية أو الشئون الدنيوية » •

ويبدو أن الرغبة الصادقة فى اتخاذ الترتيبات المتعلقة بالصلاة الشفاعية والمصحوبة بالخوف هى التى دفعت الصليبيين لتقديم الهبات الى الأديرة قبل رحيلهم وكذلك كتابة الوصايا التى تبرعوا فيها بما يملكون بهذه الأديرة الى الجماعات الدينية اذا ما استشهدوا • وعلى سبيل المثال قدم ريموند السانت جيلى Raymond of St Gilles هبة سخية الى كاتدرائية لو بوى Le Puy شريطة أن تظل شمعة موقدة أمام تمثال العذراء مريم فى الكاتدرائية المذكورة باستمرار ، وأن يتم انشاد قداس الموتى مرة واحدة كل عام بعد موته فى الكنائس الأخرى التابعة للكاتدرائية وأن تتم تلاوة الصلوات طيلة الحياة من أجله • وقدم هيو الأبينى Hugh of Apigne العشور الى راهبات دير القديس جورج

الرينى St George of Rennes شريطة أن يقمن باحيـاء الذكرى السـنوية لـوفاته • وقـدم أنجـر فتز روبرت Anger Fitz-Robert ، راتبا الى رهبان دير القديس فنسنت اللومانى St Vincent of Le Mans لصالح روحه وروح والده •

وتكشف الوثائق عن لهفة الصليبيين التى عبر عنهـا خلفاؤهم بصورة جلية ، وتتجلى هذه اللهفة فى اسـتعدادهم الدائم للذهاب الى الأراضى المقدسة بعد تسوية كافة المنازعات فى أوطانهم وبخاصـة منازعاتهـم مع الكنـائس • وأنهى أنسـيلم الريبمونى Anselm of Ribemont نزاعا مع دير القديس أماند St. Amand بشأن الطواحين واسـتخدام الماء بهذه الطواحين وحقوق القرية الصغيرة التى أقامها ، وهـو صراع قد أدى الى قيام رئيس الدير باصـدار قرار الحرمان الكنسى ضده• ويبدو أن بولدوين الجوينى Baldwin of Guines سمح فى نهاية الأمر بتحويل أربعة أوقاف كنسية فى ليكى Likues الى كنيسـة واتن Watten كان والده قد سـبق ومنحها للكنيسة • وأنهى ريموند السانت جيلى Raymond of St Gilles ، نزاعا مع رهبان سانت جيل فى حضور البابا فى مجمع نيم Nimes وقدم هبته الكبرى الى كاتدرائيـة لو بوى Le Puy :

« من أجل التكفير عن جرائمي وجرائم آبائي ، ومن أجل تكريم ومحبة القديس جيل St Gilles ، الذى ضايقته كثيرا بتصرفات كثيرة مؤذية ومن أجل الاحتفال السـنوى به فى كنيسة لو بوى Le Puy والكنائس الأخرى التابعة لها » •

وفي بعض الأحيان كانت تلك الاعلانات المتعلقة بالتخلي الرسمي عن كل مظاهر الظلم جزءا من اتفاق من خلاله يستفيد الصليبي ماليا ، فقام جودفرى البويوني Godfrey of Bouillon برهن أو بيع الأراضي الزراعية التي يمتلكها الى أسقفي ليج والفردان Liège and Verdun وبذلك أنهى المنازعات القديمة معهم مقابل مبلغ نقدى له ولأخيه بلدوين • وزار كونت جى الشالونسيرساوني Count Guy of Chalon Sur-Saone جماعة رهبان دير باراى — لو — مونيال Paray-Le-Monial وأعلن رسميا تنازله عن المكوس التي اعتاد فرضها مقابل الحصول على بغل ممتاز • ووافق هيو الجويي Hugh of Juille على جميع الأشياء التي باعها والده الى رئيس دير القديس فنسنت اللوماني St Vincent of Le Mans مقابل عشرين صوليدى Solidi • وكان التنازل عن الحقوق المكتسبة بالقوة في مقابل الحصول على المال النقدى خطوة جديدة من أجل جمع المال • ولم يكن الكسب المادى فقط هو الهدف من وضع هذه الترتيبات ، وأعطى رهبان دير القديس بيير الشارترى Piere of Chartres عشرة جنيهات استرلينية الى السيد الاقطاعى نيفيلو Nivelo مقابل تنازله عن الحقوق التي كان يحتفظ بها بالقوة باعتباره رئيس قلعة ، ووافق على صيغة التنازل وهو في حالة لا يحسد عليها :

« أنا نيفيلو الذى أنتمى الى طبقة النبلاء بالوراثة ، وهى الطبقة التي تجعل كثيرا من المنتمين اليها يوصفون بكل

ما يشين المرء من رذائل ، لذلك فمن أجل تخليص روحى من الخطيئة ، وفى مقابل قيامى بدفع مبلغ ضخم من المال الذى ورثته ، أعلن أنى أتخلى الى الأبد ، ولصالح القديس بطرس عن السلوك الجائر الناجم عن عادة سيئة لم أكتسبها وفقا للتقاليد القديمة ولكن ورثتها عن والدى الذى كان رجلا ضئيل الجسم سريعا فى ارهاق الفقراء بمظالمه المتكررة . ومنذ ذلك الحين عملت باستمرار على المحافظة على تلك العادة بطريقة استبدادية وبكل وحشية . ولقد قمت بانتهاك أرض القديس بطرس من خلال الهجمات المتكررة ، وأعنى بذلك قرية امبرنفيل Emprainville . والأراضى التى حولها وقمت بالاستيلاء على سلع وممتلكات ومنقولات السكان هناك بطريقة أصبحت عادة ، وتلك كانت الطبيعة القاسية لتلك العادة . وكلما دفعتنى الرغبة فى الهجوم الوحشى كنت أنقض على القرية المذكورة آنفا ، واصطحبت معى جماعة من فرسانى ومجموعة من أتباعى ، وكنت آتى بما يتنافى مع طبيعة الانسان فأستولى على ممتلكات رجال القديس بطرس لتكون طعاما لفرسانى ... ويجب أن يعلم كل فرد جيدا أننى أقدم كفارة الى القديس بطرس على تلك الخطايا والمظالم البغيضة السابقة ، وانى سأكف عن القيام بتلك المتاعب المتواصلة الى الأبد ، والتى توقفت عن ممارستها الآن » .

كان برتران المونكونتورى Bertrand of Moncontour استبقى فى حيازته ثلثى الممتلكات مع ما كان والده قد وهبه لكنيسة الثالوث المقدس . ثم سلم الكنيسة كل ذلك مقابل الحصول

على ١٨٠٠ الف وثمانمائة صوليدى Solidi لأنه : « اعتقد أن طريق الله (الحرب الصليبية) لا يمكن أن يفيده اذا ما ظل محتفظا بريع ممتلكات مسروقة » . وبالمثل أعلن هيو بوشارد Hugh Bochard تخليه عن أراضى الحيازة الاقطاعية التى اغتصبها من أحد الفلاحين والتابعة للقديس فيلبرت التورنوى Philibert of Tournous مقابل حصوله على بغل وأربعة جنيهات استرلينية ، ولأنه ، « خاف العقاب على هذه الخطيئة وكان يود الذهاب الى بيت المقدس » . أما فرسان قلعة مزنك Mezenc ، وهم : بطرس بستركيوس Peter Bastarcius وبونزا Ponsa ، وبرتران Bertrand فقد كانوا يمارسون العنف والقسوة والظلم تجاه القرويين التابعين لرئيس دير القديس شفر اللومونستياوى St Chaffre of Le Mon stier . ثم أعلنوا رسميا تخليهم عن كل أعمال السلب والعنف مقابل مبلغ من المال ولأنهم نذروا أنفسهم للانضمام الى الحرب الصليبية . وحصلوا على الغفران من الأسقف مند Mende ، والأسقف أدهيمار اللوبوى Adhémar of Le Puy بنفسه الذى ، « كان مندهشا لشدة وحشيتهم ، غير أنه غفر لهم ذنوبهم بسبب ذهابهم ضمن حملة عسكرية الى بيت المقدس وبسبب اعلانهم عن ندمهم » .

ولذلك توحى المواثيق التى تقدم بها الفرسان أن استجابتهم لدعوة أوربان كانت مثالية . غير أن المواثيق الموجودة تتعلق بجزء فقط من الصليبيين ، وعلى أية حال فلنا

أن نتساءل : هل كانت الوثائق التى كتبها رجال دين على قدر لا بأس به من التعليم لصالح جماعاتهم الدينية بصفة أساسية ، مضللة ؟ اذ ان كثيرا من الأفكار التى وردت فى تلك الوثائق لا يمكن افتراض أنها تعكس بدقة أفكار طبقة غير متعلمة . وعلى سبيل المثال ، من غير المحتمل أن نيفيلو Nivelo الذى وقع بعلامة لأنه كان أميا قد تعرف على نص مقدس من كتابات القديس جريجورى الأول St. Gregory ، وظهر هذا النص فى المقدمة التمهيدية لوثيقته . صحيح أن معظم المعلقين المعاصرين الذين كانوا من الداعين للحركة الصليبية صوروا الصليبيين فى صورة مرضية باعتبارهم شخصيات مثالية نبذت أمور العالم ، غير أن وجهات نظر هؤلاء الدعاة لم تكن الوحيدة . وتذكر لنا احدى الروايات أنه عندما ظهر القديس أمبروز St Ambrose الى كاهن ايطالى ، وسأله عن سبب تلك الاستجابة الكبيرة التى حظيت بها دعوة أوربان ، أجاب الكاهن بأنه كان قلقا : « لأن عددا من الأفراد يقدمون أسبابا مختلفة لذهابهم الى بيت المقدس . ويقول آخرون بأن أصحاب الاقطاعات من الفرنسيين ومعظم الناس شاركوا فى الذهاب الى بيت المقدس من أجل أسباب تعود على أصحابها بالنفع والفائدة فحسب وتتيجة لذلك حلت النكبات بأعداد غفيرة منهم فى مملكة المجر Hungary ، وفى الممالك الأخرى . ولذلك لم يحققوا أى نجاح » .

ووفقا لما ذكره اكهارد الأوراوى Ekkehard of Aura

« كان من اليسير اغراء الفرنجة الغربيين بترك مزارعهم ، ذلك لأن بلاد الغال Gaul كانت قد تعرضت للنكبات لبضع

سنين، في صورة حرب أهلية أحيانا، ومجاعات أحيانا أخرى، وتزايد نسبة الوفيات، وأخيرا انتشر الطاعون ... فأصاب الناس بحالة من الهلع جعلهم يفقدون كل أمل في الحياة ...

ومن بين الشعوب أو الأفراد الذين لم يصل اليهم الموسوم البابوى، اعترف البعض منهم بأنهم ذهبوا الى أرض الميعاد بناء على دعوة المتنبئين الذين ظهروا من بينهم أو بناء على علامات واشارات ظهرت في السماء، وقال آخرون بأنهم أجبروا على المشاركة بعد أن عرضت عليهم كافة المزايا والمنافع الشخصية . وفي الحقيقة اصطحب الكثير منهم الزوجات والأبناء وكل منقولاتهم وأدواتهم المنزلية ».

وربما لفت أوربان انتباه مستمعيه في كليرمونت الى امكانية تحقيق ثروات طائلة، وان كان هناك ما يؤكد على أن قرار الغفران المتعلق بالحرب الصليبية، والذى منح غفران الخطايا لعدد محدود ممن سيشاركون في الحرب الصليبية « ابتغاء مرضاة الله فقط، وليس طمعا في المجد أو المال »، خير دليل على أن البابا والأساقفة الفرنسيين كانوا على بينة تامة بأن بعضهم على الأقل سوف يشارك في الحرب الصليبية تحقيقا للدوافع المادية، لذلك كان على البابا أن يضع قرارا يتحدث فيه عن الفتوحات التى ستجرى في المستقبل بكل وضوح، مشترطا ضرورة أن تكون الكنائس التى يتم تحريرها خاضعة للامارات الصليبية التى يقيمها الصليبيون . غير أن مدلول هذا القرار ليس واضحا، لأنه قد افترض مشاركة بيزنطية فعالة في الفتوحات الصليبية

وما يلى ذلك من مد نفوذ السلطة الافريقية المدنية على حساب السلطة اللاتينية . غير أن القضية أصبحت مثيرة للاهتمام الدائم منذ أن استولى الصليبيون على أنطاكية دون المساعدة البيزنطية ، وتم التأكيد على قرار مجمع كليرمون فى المجمع المحلى الذى عقده أدهيمار Adhémar ، المندوب البابوى فى أنطاكية بمجرد الاستيلاء عليها . بل ان القائمين على الدعوة للمشاركة فى الحرب الصليبية أقروا بأن الجيوش الصليبية اشتملت على مغامرين ودجالين ، بالرغم من أن معظم هؤلاء لم يكونوا من الفرسان . فهناك دليل على وجود عنصر مادى بين الفرسان ، أيضا ورد فى صكوك رهن ممتلكات كل من فولفكر الكوفرنى Wolfker of Kuffern ، وهو أحد النبلاء الألمان ، وآشارد المونمريلى Achard of Mont merle ، وهو رئيس احدى القلاع ، وقد قتل قرب يافا ، تحسبا للأخطار والظروف التى قد تنشأ عن اقامتهما فى المشرق . وشارك نورجوت التوسيى Norgeot of Toucy فى الحرب قبل القيام بالمصالحة مع رئيس دير فلورى Fleury ، وتسوية أمور قريته التى فرض عليها ضرائب ابتزازية جائرة . وقبل وفاته أثناء رحلته لزيارة الأراضى المقدسة اعترف بخطاياه للبطريرك ، ولكن البطريرك قال له ان توبته عديمة النفع اذ لم يرد الحقوق الى أصحابها قبل غفران خطاياه . فأرسل خطابات الى زوجته والى الناس يعلن فيها تخليه علنا عن كل حقوقه ومطالبه .

وعلاوة على ذلك فلم يتمكن بعض الفرسان من الوفاء بنذورهم ، وكان لدى بعضهم أسباب وجيهة . فعلى سبيل

المثال كان هلياس كونت مين Count Helias of Maine قد أقسم على أن يذهب ضمن حملة صليبية الى بيت المقدس وكان يعد من بين الذين اشتهروا بالورع والتقوى ، الا أنه رفض الذهاب عندما علم أن وليم ملك انجلترا قد عقد العزم على الاستيلاء على مقاطعته • ومن الواضح أنه حول الدفاع عن أراضيه الى حملة صليبية شخصية • وكدنا لا نعرف شيئا عن هذا الأمر ، لولا كتابات أوردريك الفيتالى Orderic of Vitalis الذى كتب بعد أربعين عاما من الاستيلاء على بيت المقدس ، معقبا على تحويل الأفكار الصليبية الى مسارح أخرى للحرب بعد أن تحقق النصر للصليبيين ، فقال :

« كنت أتمنى أن أقاتل المسلمين باسم الرب ، بيد أنى أرى حاليا أنه يتحتم على أن أشن حربا بالقرب من ديارى ضد أعداء المسيح • ان كل فرد يقاوم الحق والعدل انما يظهر نفسه على أنه عدو لله ، الذى هو الحق بعينه وشمس العدالة ••• ولن أصرف النظر عن صليب مخلصنا الذى أحمل شارته على نمط أى حاج ، وانما سأظل أحمله على ترسى وعلى خوذتى وعلى كل أسلحتى وسأطبع صورة الصليب المقدس على سرجى ولجامى • ونظرا لأن هذه الشارة تمنحنى القوة فسأتقدم صوب أعداء السلام والحق وسأدافع بالقوة عن أرض المسيحيين • وستكون تلك الشارة المقدسة على كل أسلحتى وجوادى ، وكل الأعداء الذين يهجمون على سيحاربون أحد فرسان المسيح • انى أثق فيمن يحكم العالم لأنه يعلم ما يجول بخاطرى • وسوف أنتظر ، بفضل رحمته الواسعة ، حتى أتمكن من الوفاء بنذرى فى وقت أفضل » •

غير أن كثيرين لم يكن لديهم الأسباب الوجيهة التى تتيح لهم البقاء بعيدا عن المعركة ، ومنذ خريف ١٠٩٧م فصاعدا تسلطت على أذهان القادة العسكريين فكرة ضرورة تدبير أمر النجدات الحربية تحسبا للأخطار الناجمة عن الحملة العسكرية • ولقد وجدنا من قبل أن الأساقفة فى الجيش أصدروا قرار الحرمان الكنسى ضد من تقاعسوا عن خوض القتال ، وعبروا عن أملهم فى أن يحذوهم اخوانهم فى غرب أوربا • وفى سبتمبر ١٠٩٨م كانت هناك دهشة عند انطلاق شائعة تقول ان أوربان قد أعفاهم من نذورهم • ومن المستحيل تقدير أعداد الذين لم يفوا بنذورهم ـ واعتقد هؤلاء الذين شاركوا فى الحملة الصليبية بأن عددهم كان كبيرا ، وان كان حجم الحملة الصليبية التى تم حشدها عام ١١٠١م والتى شارك فيها معظم الصليبيين يوحى بأن عدد الذين يفوا بنذورهم كان كبيرا •

«المجد والشهرة والمال » : هذا ما كانت تردده القصص التاريخية عن الحملة الصليبية ، عقب صياغة قرار مجمع كليرمون • ومما لا شك فيه أن الرغبة فى تحقيق المجد الدنيوى قد حدت بالفرسان الى الانضمام للحملة الصليبية ـ سواء تحقق هذا المجد فى حياتهم أو بعد موتهم • فقد كان عليهم أن يبحثوا عن هذا المجد ، وذلك اذا نظرنا الى جذورهم الاجتماعية ، وعاداتهم وتقاليد الفروسية المعروفة آنذاك بينهم ، على الرغم من استحالة تقنين النتائج الناجمة عن ذلك • فقد ينضم المرء للحملة الصليبية من أجل الحصول على التكريم أو اذا ما كانت سمعته قد تعرضت للشبهات ، كما فعل أرنوف الهدنيثى Arnulf of Hednith الذى مات فى

أنطاكية ، وكان قد غادر انجلترا بعد أن اتهموه بالخيانة ظلما • وكما سنرى ، كان حصول الفرسان على التكريم أمرا مفروغا منه • أما بخصوص المال ، فسنرى أيضا أنه لأسباب مفهومة ــ وباستثناء حاجة الصليبيين للمال لأغراض المعيشة ــ فقد سيطرت على الصليبيين فكرة جمع الغنائم ، غير أن هناك أدلة قليلة تنفي عودتهم الى بلادهم ، ومعهم الثروات ، اللهم الا الآثار المقدسة ، وهو أمر لايدعو للدهشة عندما يضع المرء في اعتباره النفقات التي تحملوها بعد اشتراكهم في الحرب • ومن الجدير بالذكر أن قرار مجمع كليرمون لم يشر الى الأرض ، بالرغم من أنها كانت موضوعا للمناقشة في المجمع • وساد اقتراح تقدم به جورج ديبى Georges Duby بخصوص بعض المناطق مثل مقاطعة ماكونيه Mâconnais حيث سيطرت عادة تقسيم الارث على الصليبيين واستفادت أسر عن طريق ارسال أبنائها للاشتراك في الحرب ، وعلى ذلك تقلصت الأعداد التي لها حق الارث ، وهو أمر كان له أثره بشكل ملحوظ • ورغم وجود الأدلة التي تؤكد على وجود الرغبة الملحة في امتلاك الأرض كأحد القوى المحركة للصليبيين إلا أنه بعد الاستيلاء على بيت المقدس ، والانتصار على الجيش المصرى ، في الثاني عشر من أغسطس ١٠٩٩ م قرر معظم الصليبيين العودة الى أوطانهم • ويقال ان القسم الأكبر من العائدين الى أوربا بلغ عددهم حوالى عشرين ألف نسمة ، وهو تقدير ربما فاق كل أعداد الصليبيين الموجودين في فلسطين في ذلك الحين ، مما يؤكد أن الغالبية العظمى ممن قدر لهم البقاء في قيد الحياة ، بعد الاستيلاء على بيت المقدس قد عادوا الى غرب أوربا • وكتب فولشر الشارترى

Fulcher of Chartres ، وهو القس الذى صاحب أول ملك يقود الحملة الصليبية لبيت المقدس ١١٠٠م ، يقول ان عدد الفرسان لم يزد على ثلاثمائة فارس ، وكان هناك نفس العدد من المشاة لحراسة بيت المقدس ، ويافا ، والرملة ، وحيفا. ولا يشمل هذا الرقم جماعات الفرسان والمشاة الذين كانوا تحت قيادة الاقطاعيين فى الجليل وحبرون « الخليل » Hebron ، وربما فى نابلس ، وكذلك المستوطنون فى شمال سوريا ، ولا يصح أن نتجاهل ما حدث من استيطان سريع حول مدينة البارة فى سوريا ، وابان التقدم صوب بيت المقدس ، على الرغم من أن الاحتلال الأخير للمنطقة ترك بصمات ضعيفة على نظام امتلاك الأراضى مازالت باقية فى أسماء بعض الأماكن على الطريق من الرملة الى بيت المقدس. فمما لا شك فيه أن معظم الصليبيين لم يستقروا فى الشرق.

ولابد أن المسافة التى كانت تستغرقها حملة عسكرية من غرب أوربا الى آسيا الصغرى كانت معروفة جيدا ، هذا مع الأخذ فى الاعتبار الأعداد الكبيرة من الحجاج الى الشرق فى القرن الحادى عشر وكثير من الفرسان الغربيين الذين عملوا فى خدمة الجيوش البيزنطية ، من أمثال بطرس الأوبى Peter of Aups وهو الذى كلفه القادة الصليبيون حراسة مدينة استولوا عليها فى آسيا الصغرى ، وهيو بونيل Hugh Bunel الذى توجه لمساعدة روبرت النورماندى Robert of Normandy ابان محاصرة بيت المقدس بعد قضاء عشرين عاما فى الأسر فى أراضى المسلمين الى أن هرب بعد مقتل مابيل البيليمى سنة ١٠٧٧م . ولم يكن هناك أمل

عند الفقراء فى السيطرة على شىء على الرغم من أن أعدادا كبيرة من الذين شاركوا فى الحملة الصليبية كانوا من المعدمين وكان يحدوهم الأمل فى أن يعيشوا على صدقات الموسرين المسيحيين على امتداد العالم الاسلامى ، وقد ساعد الأغنياء الفقراء ، وتم جمع الأموال فى أوربا ، وفى الطريق الى الشرق تحركت الجيوش عبر البلقان ومعها الكنوز التى حملت فى عربات ضخمة ذات عجلات أربع تجرها الخيول أو الثيران ۰ بيد أن حالة الفرسان كانت مختلفة الى حد ما ۰ فقد كان الفرسان الفقراء يجولون على امتداد غرب أوربا كلها ، بناء على تقليد تجوال الفارس التماسا لمغامرات الفروسية ، وهم ينعمون بكرم ضيافة زملائهم ممن هم فى منزلتهم الاجتماعية ، بيد أن ذلك ليس على مثال ما حدث من المغامرات التى بدأت عامى ١٠٩٥ ــ ١٠٩٦م ۰ وكانت الحرب عملا يكلف الكثير من المال ۰ وكان يجب اعداد فارس مزود بدرع وأسلحة ، وخيول للقتال ، وخيول لحمل الأمتعة ، وغلمان للخدمة من أجل رحلة باهظة النفقات ۰ ويقدر أن الفارس الألمانى الذى استدعى لخدمة الامبراطور فى ايطاليا فى منتصف القرن الثانى عشر قد تكلف ضعف دخله السنوى من أجل العمل فى تلك الحملة ۰ وعلى المرء أن يقدر المجهود الذى يستخدمه فارس فرنسى ، عقد العزم على المشاركة فى حملة عسكرية فى الشرق فى أواخر القرن الحادى عشر ، حين يحاول هذا الفارس مضاعفة دخله ۰ وعلى ضوء ذلك كان من السخف والحماقة أن يذهب فارس لا أرض له أو فرسان صغار ۰ واستطاع الرجال الأكثر ثراء ادخال الفقراء فى خدمتهم مقابل أجر كما

فعل بوهيموند التارانتوى Bohemond of Taranto عندما قدم السلاح الى ابن شقيقته تنكرد، وطلب منه العمل فى خدمته • وتوقع كل الفرسان الاستفادة من الصدقات والاعانات المالية التى تم جمعها على طول الطريق الى الشرق ، بيد أن الاستيلاء على الغنائم كان منتهى آمالهم وتوقعاتهم • على أن الحملات الصليبية فيما بعد حظيت بالمساعدات المالية الفعالة ، بما فى ذلك الضرائب العلمانية والكنسية والأموال التى كانت تجمع كتعويض عن الوفاء بالنذر فى المشاركة فى الحملة الصليبية ، غير أنه ابان الحملة الصليبية الأولى كان على كل صليبى أن يتولى بنفسه تدبير مبالغ نفقاته ، وهذا يعنى فى مجتمع زراعى التخلص من الممتلكات ببيعها وجمع القروض مقابل رهنها • وقد تضمن ميثاق هنرى الرابع امبراطور ألمانيا مثل هذه الاجراءات ، وتوجد به اشارات الى جودفرى البويونى Godfrey of Bouillon وبلدوين البولونى Baldwin of Boulogn اللذين « سيطر عليهما الأمل فى الميراث الأبدى والمحبة ، واستعدا للذهاب للحرب فى سبيل الله فى بيت المقدس ، وباعا كل ممتلكاتهما » وفى الحقيقة سن البابا والأساقفة التشريعات التى تحرم كنسيا هؤلاء الذين يعارضون تقديم الهبات والافتداء (بمعنى آخر بيع الممتلكات واجراء الرهونات) ، وهى أمور كان لابد منها عند رحيل الصليبيين •

وهناك عامل آخر مؤثر لابد من وضعه فى الاعتبار أيضا ، وهو أن الدعوة للحرب الصليبية بدأت فى وقت تعرض فيه الانتاج الزراعى لكساد شديد بسبب انخفاض

المحاصيل بسبب الجفاف . غير أن هذه الحالة تغيرت سنة ١٠٩٦م ، فبحلول ربيع غزير المطر ، كان يبدو أنه تعبير طبيعي عن موافقة الله على مشروع الحملة ، الا أن ذلك كان متأخرا بالنسبة لكثير من الصليبيين الذين كانوا قد انتهوا بالفعل من بيع أراضيهم ، رغم أنهم كانوا قد اشتروا المواد التموينية اللازمة للحملة في وقت كانت فيه الحنطة متوافرة .
ومن المحتمل أن هذا سبب شكاوى دير جوتويج Gottweig بأن فولفكر الكوفرني Wolfker of Kuffern ، قد تراجع عن اتفاقه الخاص ، برهن الممتلكات عند ذلك الدير ، وأن هذا الشخص عقد اتفاقا مع سيد اقطاعي آخر ، وتكشف عن تحول في التفكير بعد انتهاء فترة انخفاض المحصول وحدوث نشاط في السوق التجاري ، على الرغم من أن هذه الحالة تخص ألمانيا وليس فرنسا . وعلى أية حال كانت نتائج تلك العمليات النشطة لجمع الأموال في أوائل سنة ١٠٩٦م خطيرة ، وتزايدت لأن المبيعات والرهونات كانت كثيرة ، وأن أعداد الأفراد والمؤسسات القادرة على تقديم الأموال فورا قليلة للحد الذي نتج عنه انخفاض قيمة السلع والممتلكات في فرنسا من الناحية الواقعية . واتخذ القائمون على تدبير الشئون المالية اجراءات غير عادية من أجل جمع الأموال .
وباعتراف الجميع قام أسقف لييج Liège بالعمل على تحقيق السلام لأراضي المنطقة التابعة له ، وانشغل في معاملات مالية أخرى ، وجمع المال لقلعة بويون Bouillon بوضع يده على الجواهر الموجودة في المذاخر reliquaries في كاتدرائيته ، وفي الكنائس في أبرشيته . ومن الواضح أن الملك وليم الثاني أمر باتخاذ اجراءات مشابهة في انجلترا من أجل

جمع عشرة آلاف مارك من الفضة ؛ من أجل السيطرة على دوقية نورماندى لمدة خمس سنوات ، وهى الدوقية التى يحكمها أخوه .

وكان الانضمام الى حملة صليبية يتطلب نفقات باهظة ، وتضحيات مالية كبيرة ، وكانت الأعباء على العائلات أشد وطأة اذا ما اختار عدة أفراد بها الذهاب مع الحملة الصليبية . وكان ذلك أمرا شائعا . وهناك أمثلة مشهورة لذلك، ومن أبرزها، أوستاس Eustace، وبولدوين البولونى Baldwin of Boulogne ، وجودفرى البويونى Godfrey of Bouillon وأدهيمار اللوبوى Adhémar of Le Puy ، ووليم هيو المونتيلى William Hugh of Monteil ، وبوهيموند التارانتوى Bohemond of Taranto ، وأبنـاء أخيه رالف الجيلى Ralph of Gael ، وابنه ألن Alan ، وكونون المونتجسوى Conon of Montaigu الذى تصادف أنه كان صهر جودفرى البويونى . وما سبق قليل من الأمثلة ذكرت فيها الأقارب غير المقربين .

كانت هناك اختيارات عديدة متاحة للفرسان الراغبين فى جمع الأموال من أجل المشاركة فى حملاتهم الصليبية . وكان فى استطاعتهم فرض الضرائب ، على المستأجرين لأراضيهم ، مثل فردريك الزيمرنى Frederick of Zimmern الذى كان غير قانع بما منحه والده له . غير أنه توجد أدلة كثيرة تؤكد حدوث مثل ذلك الاجراء : وقد يرجع ذلك الى معاناة فرنسا الشديدة من نقص الأموال ، لذا فان الأموال

التى تم جمعها حتى عام ١٠٩٦م كانت قليلة ، وكما رأينا من قبل كان بامكان الفرسان التخلى عن حقوقهم أو عقاراتهم مقابل حصولهم على الأموال النقدية ، وجرت العادة بينهم على رهن أو بيع الاقطاعات أو الأراضى المملوكة ، وكانت تلك الأراضى المملوكة عظيمة الأهميـــة للأسر ومع هذا كان من السهل على البعض أن يقولوا : « لابد أن نذهب الى هناك ، ونبيع اقطاعاتنـــا ، ونفوز بمعبـــد الـــرب ، ونقضى عـــلى المسلمين » • وكانت عملية التخلص من الممتلكات ، وبخاصة الممتلكات الخاضـــعة للارث ، تؤثر عـــلى مصـــالح أسر من يشتركون في الحملة الصليبية ، وفى بعض الأحيـــان كانت تلك المصـــالح تظهـــر فى الأوراق الرســـمية • وتضـــمن صك رهن حرره وليم الفاستى William of Vast فقرة سمحت لاخوانه أو أقاربه أن يسترجعوا الأرض المرهـــونة اذا لم يتمكن هو من ذلك • كما أن صك الرهن الذى وقع عليـــه أنسليم الريبمونتى Anselm of Ribemont ، قد مكن زوجته أو ابنه أو من له حق الارث من استرجاع الأرض المرهونة ، كما كان بامكان اخوة استانوف الفيزنساكى Astanove of Fezensac أو أتباعه الاقطاعيين استرجاع الأرض المرهونة ، وأنه اذا ما مات ـــ وقد مات بالفعـــل فى الحملة الصليبية ـــ فان ممتلكاته كلها يجب أن تئول الى كهنة كاتدرائية القديسـة مارى الأوتشى St Mary of Auch • وكان بالامكان استرجاع رهن فولشر الفـــافرجى Fulcher of Faverges بنفســـه أو بمعرفة اخوته • أما رهن بويون فكان من الممكن أن يسترجع بمعرفة أوستاس البويونى أو جودفرى البويونى نفسه • ومن ناحية أخرى وافقت شقيقة آشارد المونتميرلى Achard of

Montmerle ، عـلى أن يتم فك رهنـه لأراضيه بمعرفتـه شخصيا . وباع كل من بيتر وبونز وهما من فاى Peter and Pons of Fay أملاكهما الى دير القديس شفر St Shaffre ومات بونز قبل الرحيل مع الحملة الصليبية ، غير أن وريثه باع النصف الذى ورثه الى دير القديس شفر أيضا ، وربما تم ذلك وفاء بالتزاماته وقد تقاضى مبلغا طيبـا . وأعطى سـتفن بونين Stephen Bonin النصـف الذى يملكه فى قطعة من الأرض الى كاتدرائية القـديس فنسنت الماكونى St Vincent of Mâcon ، وقـام أخـوه ليـودجار Leodegar الذى صدق على ذلك ببيع النصف الثـانى فيما بعـد الى الكاتدرائية بموافقة أخ آخر ، ويبـدو أن أسرة الفـارس جى السارسى Guy of Sarcé المـكونة من والدته وأخـويه نيقولا وباين Nicholas and Payen قد أصرت على بيع احدى اقطاعياتهما الى دير القديس فينسينت اللومانى (★) St Vincent of Le Mans بالرغم من أن الرهبان قد فضلوا الرهن على البيع . وتنازل جيرارد لو ديك Gerard Le Duc ، وشقيقه برنجر Berlnger وأبناؤه جى Guy ، وجيفرى Geoffrey عن حقهم فى امتلاك قطعة أرض مقابل حصولهم على خمسـة صـولديات Solidi . وذهب المبلغ بكامله الى جى الابن الأكبر ، الذى كان ذاهبا للمشاركة فى حملة صليبية ، على الرغم من أن الابن الأصغر قد حصل على ستة دنانير denarii اضافية . ووافقت زوجة روبرت النائب Robert the Vicar وكذلك ابنه وأخـواه عـلى بيع ممتلكاته الى دير القـديس

(★) لومان Le Mans مدينة فى غرب فرنسا ـ (المترجم) .

فنسنت اللوماني • وتعهد أحد الأخوين بتأدية الخدمات الواجب القيام بها الى السيد الاقطاعى • ووافق جميع اخوة جيفرى شوتارد Geofrey Chotard على منحه الاعفاء من رسم المرور الذى قدمه الى دير مارموتييه Marmutier • ووافق ابن شقيق هيو الأبينى Hugh of Apigne على منحه العشور tithe التى قدمها الى دير القديس جورج الرينى St George of Rennes ووافقت والدة جيفرى وكذلك اخوته على بيعهم قطعة أرض الى دير القديس فيكتور المالسيلى St Victor of Marsellies وقد أعطت والد ألبرت ، وكونراد ، وفريدريك زيمرن Zimmern الأموال من أجل الذهاب مع الحملة الصليبية • وباعت والدة رينولد Reinold ممتلكاتها الى دير القديس بطرس الهلمرشوزنى Peter of Helmarshausln لتدبير الأموال له • وقامت سورا Saura ، وابنها برتراند من مقاطعة القديس جاين Bertrand of St Jean بشراء أرض خاله دودو Dodo وعقد اتفاقية رهن مع خاله ليوفرنك Leo Franc اللذين ذهبا مع الحملة الصليبية • وساعدت الكونتيسة ادا البولونية Countess Ida of Boulogne على جمع الأموال • وقام هيو الشومونى Hugh of Chaumont برهن اقطاعيته ، وقلعة أمبواز Amboise ، هذا بالاضافة الى المنحة النقدية الكبرى التى قدمها له عمه جودفرى الشومونى • ومن ناحية آخرى قام رئيس دير القديس بيير الشارترى St Père of Chartres بدفع مبلغ من المال الى

أقارب نيفيلـــو Nivelo لاتفاقهم على التخلى عن الحقوق التى كان يطالب بها نيفيلو • ومع ذلك فان الحالة التى بدت لنا هى حالة الأقارب الذين كانوا يقدمون تضحيات لتدبير المال للصليبيين • والواقع أنه ليس هناك دليل يؤيد الزعم القـائل بأن الحملة الصليبية كانت فرصـــة أمام الأبنـاء الزائدين عن حاجة الأسرة ، حتى تتخلى الأسرة عن أعبائهم • بل العكس هو الصحيح ، حيث تشير البراهين على قيام الأسرة بتحمل أعباء أبنـائها الذين نذروا أنفســهم للاشتراك فى الحملة الصليبية •

وعلى ضوء الدليل الوارد الينا فمن الصعب القول بأن معظم الصليبيين كانت تحركهم الدوافع المادية البحتة • واذا ما وضع المرء فى اعتباره المعلـومات المتعلقـة بالصليبيين وآمالهم وطموحاتهم والحالة الاقتصادية العامة التى كانــوا يعيشونها ، ولو أن الصليبيين قد تصرفوا فى الممتلكات من أجل الانفاق على حلم الاستقرار فى الشرق ، لـكان الأمر مجرد مغامرة حمقاء • لكن المنطق يفرض علينا القول بصفة عامة انهم تحركوا من منطلق المثالية التى كانت تشتعل فى نفوسهم ونفوس أسرهم • وكان على الآباء والاخوة والأخوات والزوجات تحمل غياب طويل ولابد أنهم جميعا عانوا القلق عليهم : ففى سنة ١٠٩٨ ، قدمت ايدا كونتيسة بولونيــا Countess Ida of Boulogne هبـات ومنحـا الى دير القـديس برتن St Bertin ، « من أجـل سـلامة ولديها ، جيفرى وبولدوين اللذين ذهبا الى بيت المقدس » • وقد أكدت على أنه ما من أحد يستطيع أن يكتب عن النمو الكبير للحياة فى

الأديرة في هذه الفترة دون الأخذ في الاعتبار هؤلاء الذين انضموا الى تلك الجماعات الدينية فحسب ، ولكن أيضا العلمانيين والنسوة حيث كان الجميع على استعداد لتقديم الهبات الى تلك الأديرة الجديدة على شكل أراض موقوفة لصالح تلك الأديرة بالاضافة الى ايرادات أخرى ، وينطبق الشيء نفسه بالنسبة لموقفهم من الحركة الصليبية • فخلف كثير من الصليبيين كان هناك حشد كبير من الرجال والنساء الذين كانوا على استعداد للتضحية بمصالحهم لمساعدتهم على الذهاب • فقد تحمسوا عندما أتيحت الفرصة لأحد أقاربهم للذهاب الى بيت المقدس ليس فقط من أجل التكفير عن الذنوب بل للمشاركة في القتال في حرب مقدسة في الوقت نفسه • ولمدة قرن تقريبا ظل كبار الاقطاعيين ورؤساء القلاع والفرسان عرضة للاهانات على يد الكنيسة • ونتيجة لحالة الاجهاد تحت وطأة السيل الجارف من القدح والذم رضخوا جميعا لمحاولات رجال الكنيسة للتحول الى طريق التقوى والورع بالصورة التي يفهمونها ، وها هو قد جاءهم كعمل يستحق المدح والثناء ويتفق مع تنشئتهم وحاجاتهم الدينية لذا تمسكوا بالقيام بهذا العمل بكل شغف واهتمام •

غير أنهم استجابوا لدعوة الحرب على طريقتهم الخاصة ، مع أنهم لم يكونوا من اللاهوتيين ، وكان عليهم التصرف بطرائق تتفق مع أفكارهم المتعلقة بالصواب والخطأ ، وهي آراء لم تكن دائما تماثل آراء كبار رجال الكنيسة • ان التأكيد الذي وضعه أوربان على المحبة ــ محبة المسيحيين لاخوانهم المسيحيين الواقعين تحت سيطرة المسلمين ، ومحبة

المسيح الذى صارت أرضه خاضعة للمسلمين ـ ساعد على تأجج النيران فى صدورهم للانتقام لأقاربهم وسادتهم الاقطاعيين • وبذلك وضعت الحرب الصليبية فى مصاف الثأر والانتقام Vendetta • وكتب قادة الحملة الصليبية الى أوربان وأبلغوه بأن « الأتراك الذين وجهوا اهانات الى ربنا يسوع المسيح ، قد باغتناهم وقضينا عليهم وانتقمنا للأذى الذى ألحقوه بالرب يسوع المسيح » • ومن المحتمل أن رجال الكنيسة العقلانيين ، الذين قد تعلموا فى نفس العالم الذى تعلم فيه العلمانيون لم يتمكنوا من مقاومة استغلال المشاعر المادية لاثارة مشاعرهم • فمثلا بولدريك البورجيى Baldric of Bourgueil ، وهو أسقف راهب فرنسى مثقف ، قام بكتابة تاريخه Historia ، بعد تسع سنوات ، وقدم أيضا نصا معدلا لموعظة ألفت عند أسوار بيت المقدس فى صيف ١٠٩٩م • والأسلوب أسلوبه هو ، غير أن الأفكار عبر عنها الوعاظ سنتى ١٠٩٥ ــ ١٠٩٦م :

« انهضوا يا عشيرة المسيح ؛ هلموا أيها الفرسان والمشاة ، واستولوا على تلك المدينة ، مدينتنا ! التفتوا الى المسيح الذى طرد من تلك المدينة ، وصلب ، وأنزله يوسف الأريمانثى Joseph of Arimathea من على الصليب ، واحملوا فى قلوبكم كنزا لا يضاهى ، هذا الكنز المرغوب فيه ، وبكل قوة ونشاط خلصوا المسيح من أيدى هؤلاء الطغاة المجردين من كل مظاهر التقوى والورع • وفى كل مرة هؤلاء الناس الأشرار شركاء هيرودس Herod ، وبيلاطس Pilate ، يسخرون من اخوانكم ويستعبدونهم ، وهم قد صلبوا المسيح • وفى

كل وقت يعذبون فيها اخـوانكم ويقتلونهم · الـواقع أنهم يسخرون من المسيح ويكيلون له اللوم والتوبيخ ، كما أنهم يثيرون غضبنا بكلامهم الأرعن · وما موقفكم من كل هـذه الأمور ؟ هل من الصواب أن تستمعوا لكل تلك الأشياء دون الشـعور بالأسى ؟ انى أخاطب الآباء والأبنـاء والاخـوة والأخوات · اذا ما قام شخص غريب بالاعتداء عـلى أحدكم هل سـوف تتركونه دون ثأر ؟ أفلا تثـأر لله ، ولوالدك ، ولأخيك ، الذى تراه يتعـرض للوم والتأنيب ، والنفى ، والطرد من أراضيه ، والاضطهاد وهو يصرخ فى بؤس طالبا النجدة » ·

ان المشكلة الناجمة عن مثل هـذا النـوع من الصور البلاغية هى أنها لم تكن قاصرة على اثارة المؤمنين ، وانما دفعتهم الى القيام بأمور لم يكن رجال الكنيسـة المسئولون راغبين فى حدوثها · وأظهر الخطاب الافتتـاحى للحـرب الصليبية الأخطار التى تنطوى عـلى تقديم فكرة أخلاقيـة معقدة للعلمانيين بعبارات بسيطة ·

بدأت الجمـاعات الأولى من الصليبيين مغـادرة غرب أوربا فى ربيع ١٠٩٦م ، وبذلك يكـونون قد تجـاهلوا رغبات البابا الذى دعا الى الرحيل فى عيـد الصعود ، فى الخامس عشر من أغسطس ، وتحركوا فى وقت كانت فيـه معاناة من نقص فى الطعام قبل جنى محصول الصيف التالى · وكان بطرس الناسك أشهر القادة الأول ، وكان قد دعا الى الحرب الصليبية فى وسط فرنسا ، وانضم اليه جمع غفير قبل أن يتحرك الى بلاد الراين فى أبريل · وتقدمت أمامه

بناء على تعليماته جماعة من المشاة ومعهم ثمانية فرسان فقط تحت قيادة الترِ المفلس Walter Sansavoir . وتقدموا عبر المجر Hungary في الحادى والعشرين من مايو ، وواصلوا مسيرتهم بصورة منتظمة نسبيا تجاه القسطنطينية ، حيث انضمت اليهم جماعات من الحجاج الايطاليين الذين قطعوا رحلتهم بمفردهم • وتعرض بطرس الناسك لمعاناة لا قبل له على تحملها عند عبور أراضي البلقان • ومعه ما انضم اليه من المتطوعين فى بلاد الراين • ومرجع تلك المعاناة هى أن أتباعه كانوا يفتقرون الى الانضباط ، كما كانوا تواقين للحصول على المواد الغذائية — لذلك تعرضوا لهزيمة نكراء على أيدى القوات عند نيش Nish — ثم انضم بطرس الناسك الى ولتر المفلس عند القسطنطينية ، ومعه معظم جيشه فى الأول من أغسطس • ثم عبر الصليبيون بوغاز البسفور الى آسيا فى السادس من أغسطس غير أن الاختلافات ظهرت على السطح فى الحال بين الفرنسيين والألمان والايطاليين ، فاختار كل فريق منهم قادته • وتقدم الجيش حتى وصل الى كيبوتوس Kibotos ، ومن هناك بدأت جماعة من الفرنسيين فى منتصف سبتمبر فى شن غارات حتى وصلوا الى نيقية Nicaea • وحاول الألمان تقليد الفرنسيين وذلك باقامة قاعدة بالقرب من نيقية غير أن الأتراك حاصروهم وأجبروهم على الاستسلام ، واعتنق فريق من الأسرى الاسلام ، وتم ارسالهم للشرق ، أما من رفض فقد تم قتله • وعندما وصلت أخبار هذه الكارثة الى القوى الرئيسية للمسيحيين ، كان بطرس الناسك غائبا فى القسطنطينية • ولم تلق تحذيرات ولتر المفلس بضرورة

الالتزام بالحذر آذنا صاغية . وابان تقدم الصليبيين داخل البلاد هاجمهم الأتراك فى كمين وأبادوهم عن بكرة أبيهم. وفى الوقت نفسه لم تتمكن ثلاثة جيوش أخرى من الوصول أبعد من المجر Hungary ، كما تشتت شمل قوة عسكرية صليبية من الساكسون Saxons ، والبوهميين Bohemians كانت تحت قيادة الكاهن فولكمار Folkmar عند نيترا Nitra . وآجبرت جماعة أخرى غير منضبطة على الاستسلام عند بانوهالما Pannohelma وكانت تلك القوة تحت قيادة كاهن من بلاد الراين وتتألف من السوابيين Swabians والفرنسيين ، والانجليز ، والفلمنكيين Flemish ، وسكان بلاد منطقة اللورين . واضطر أحد الجيوش الى التوقف أمام مدينة فيزلبرج Wieselberg ، وكان هذا الجيش تحت قيادة الكونت ميتش الليننجى Count Emich of Leiningen ، وبعد مرور ستة أسابيع قضوها فى بناء جسر عبر نهر أمام المدينة انتهى الهجوم الأولى بحالة من الذعر المفاجىء والهرب الجماعى .

وبدأت معظم تلك الجيوش زحفها فيما أطلق عليه « الابادة الأولى » التى تعرض لها اليهود فى أوربا . اذ حدثت سلسلة من الحوادث المفجعة فيما بين ديسمبر ١٠٩٥م ويوليو ١٠٩٦م ، وكان تأثير تلك الحوادث بالغا لدرجة أن أنباءها ترامت الى الشرق الأدنى قبل وصول الحملة الصليبية الأولى ، مما ترتب عليه انتشار النبوءات المتعلقة بمجىء المسيح فى التجمعات اليهودية فى الشرق الأدنى ، وما زالت الترنيمات الجنائزية تتلى اجلالا واحتراما للشهداء

في المعابد اليهودية حتى وقتنا هذا • ويبدو أن انفجارات الغضب الأولى حدثت في فرنسا بعد الدعوة للحرب الصليبية مباشرة ، والدليل علي ذلك وجود خطابات من الجماعات اليهودية الفرنسية الى اخوانهم في بلاد الراين Rhineland تحذرهم من وجود تهديد وشيك الحدوث • ومن المحتمل أن الاضطهاد كان واسع الانتشار في فرنسا ، على الرغم من عدم وجود تفاصيل عنه باستثناء اشارتين عن حالة شغب ضد اليهود اندلعت بين رجال تجمعوا للانضمام للحرب الصليبية في روان Rouen وهناك شواهد وبراهين أكثر مذكورة عن حوادث تمت في بلاد الراين • وفي الثالث من مايو حدثت ثورة ضد جماعة من اليهود في سبيير Speyer حيث كان جيش اميتش الليننجني Emich of Leiningen يتجمع ، وتقدم اميتش شمالاصوب ماينتس Mainz (★) حيث من المحتمل أن انضمت اليه جماعة اضافية من السوابيين Swabians تحت قيادة هارتمان كونت ديلنجن كيبورج Count Hertmann of Dilingen-Kebourg وجيش صليبي آخر من الفرنسيين والانجليز والفلمنكيين Flemish ، واللوريين Lorrainer وفيما بين الخامس والعشرين والتاسع والعشرين من مايو تم القضاء على الجماعة اليهودية في ماينتس Mainz قضاء مبرما • وتحرك بعض الصليبيين شمالا صوب كولون Cologne حيث انتشر اليهود في القرى المجاورة لها • وطوال شهر يونيو وأوائل يوليو ، تعرض اليهود للمطاردة والاضطهاد والضرب والازعاج ثم القتل • ويبدو أن جماعة أخرى من

(★) ماينتس : مدينة تقع في غرب المانيا علي نهر الراين — (المترجم) •

الصليبيين اتجهوا صوب الجنوب الغربى تجاه ترير Trier ثم ميتس Metz حيث استمرت المذابح • وفى خلال شهر مايو قام جيش صليبى باجبار كل الجالية اليهودية فى ريجنبورج Regensburg على اعتناق المسيحية ، وربما كان ذلك الجيش يتبع بطرس الناسك • عانت أيضا الجاليات اليهودية فى فسيلى Wessili ، وبراج Prague من تعذيب المجموعات العسكرية التابعة لقوات فوكمار Folkmar •

وفى العادة تكونت تلك الجيوش من جماعات غير نظامية من الفلاحين بصفة عامة على ما يفترض ، على عكس جيوش الفرسان التى غادرت أوربا فيما بعد فى السنة ذاتها • وفى الحقيقة ، مال المعاصرون فى تفسير تجاوزاتهم واخفاقاتهم الى وجود أعداد كبيرة من الأفراد العاديين والفقراء والنساء والأطفال ضمن صفوف المقاتلين • ولابد أن الأفواج الأولى من الصليبيين انضمت اليهم أعداد من غير المقاتلين تفوق الأعداد التى صاحبت الأفواج التالية من الصليبيين ، هذا بالاضافة الى تميز الأفواج الأولى بوجود عناصر أساءت بتصرفاتها وعناصر أخرى دخيلة ، لكنهم لم يكونوا غير محترفين ، ونحن لا نملك سوى النزر اليسير من المعلومات عن أتباع فوكمار Folkmar أو أتباع جوتشوك Gottschalk • وكان جيش ولتر المفلس كله تقريبا من المشاة • أما جيش بطرس الناسك فيعطى للمرء انطباعا بأنه جماعة مسلحة من الحجاج على النظام التقليدى القديم يضاف اليهم جماعة دينية قوية مسلحة • ووجد بطرس الناسك صعوبة فى السيطرة على قواته فى بلاد البلقان وفى

آسيا الصغرى ، غير أن سيرته الحربية الصليبية توضح أنه كان بعيدا كل البعد عن كونه مجرد زعيم غوغائي غير مؤهل للحرب . أما عن قادة جيش بطرس الناسك مثل جودفوى بوريل التامبي Godfrey Burel of Etampes ، ورينولد البروييزى Raynald of Broyes ولتيران البريتيوى Wilteran of Breteuil وفولشر الشارترى Fulcher of Chartres ، فكانوا جميعا من الفرسان المتمرسين ، وبالنسبة الى فولشر فقد مات ، وهو صاحب اقطاع شهير في امارة الرها . وبالاضافة الى ذلك انضم الى جيش بطرس جماعة مسلحة قوية من النبلاء السوابيين تحت قيادة الكونت بلاتين هيو التوبينجيني Count Palatine Hugh of Tubingen والدوق ولتر التجكي Duke Walter of Tegk . والقوة العسكرية التى تحت قيادة امتش لا يمكن اغفال أهميتها أيضا . وكان امتش نبيلا مشهورا في جنوب ألمانيا . وكذلك كان الكونت هارتمان الدلنجنكيبورجي Count Hartmann of Dillingen Kybourg ومن المحتمل أنه كان معهم الكونت روتلن Rötln ، وشفايبروكن Zweibrücken وسالم Salm ، وفيرنتبرج السيد الاقطاعي بولاندن Bolanden . كما أن الجيش الصليبي المكون من الفرنسيين ، والانجليز ، والفلمنكيين ، واللوريين الذى قابل امتش عند ماينتس Mainz كان كبيرا ومزودا بالمعدات العسكرية ، وذلك وفقا لاحدى الروايات . وكان ذلك الجيش تحت قيادة مجموعة مشهورة من الرجال ، وهم : كليرمبولد الفندويي Clarembold of Vendeuil وتوماس المارلي Thomas of Marle ، ووليم النجار William the Carpenter

وغيرهم . وبعد ان تشتت شمل جيش امتش ، انضموا الى هيو الفرماندولى ، شقيق ملك فرنسا ، ثم واصلوا رحلتهم الى الشرق . وخاض كل من كليرمبولد الفندويي وتوماس مارلى حروبا صليبية مشهورة . وبالنسبة لتوماس فقد كانت حياته نابضة بالحيوية والعنف قبل موته عندما كان «كونت» فى أميان(★) Amiens سنة ١١٣٠م . وأما وليم النجار الذى كان قد حارب فى اسبانيا من قبل ، فقد لاذ بالفرار مذعورا عند انطاكية ثم استقر به المقام فى امارة انطاكية بعد ذلك، كصاحب اقطاعية، أما دوروجو النيسلى Drogo of Nesle الذى كان من أسرة فرنسية مشهورة فقد انضم الى بلدوين البولونى Baldwin of Boulogne وتبعه الى الرها ثم الى بيت المقدس . ولا يمكن الأخذ بصحة الرأى القائل بأن جماعات المزارعين البسطاء تمكنوا من اضطهاد اليهود وتعرضوا لكارثة شنيعة فى بلاد البقلان . ان تلك الجيوش ضمت جماعات من الصليبيين من كل أنحاء غرب أوربا تحت رياسة قادة متمرسين ، ويعرفون فنون الحرب .

ومن الواضح أن القلق بشأن المؤن والمواد الغذائية الذى لازمهم كثيرا جعلهم يتصرفون بتهور فى بلاد البلقان ، على الرغم من أن هذا القلق كان طبيعيا فى جيوش كانت كبيرة العدد . وعندما دخلوا المجر Hungary كان معهم مال وفير، غير أنهم بدءوا المسير مبكرا قبل جنى محصول الصيف الوافر الذى استفاد منه من مر بعدهم من الصليبيين حيث وجدوا كميات وافرة من الحنطة لتغطية حاجاتهم فى المراحل الأولى من الرحلة ، كما أنهم تحركوا قبل أن تقوم الحكومة البيزنطية باعداد الطريق لهم ، وخاصة أن بيزنطة لم تكن

(★) أميان : مدينة فى شمال فرنسا على نهر السوم – (المترجم) .

تتوقع قدوم القوات الغربية في مثل هـذا الوقت المبكر من السنة • والواقع أن تسلط فكرة الحصول على الاموال سيطرت على تفكيرهم وظهرت عنـد معاملتهم لليهود عنـدما غادروا غرب أوربا • وعلى الرغم من آن معظم امثلة الجشع والبخل التي وردت فى المصادر اليهودية ، والدالة على الاضطهادات تنسب الى الأسـاقفة ، وليس الى الصـليبيين ، والى موظفى الأسقفيات والى سكان المدن الذين حصلوا على رشاو مقـابل وعود حماية اليهود غير أنهم فشلوا فى تنفيذ تلك الوعود ، فانه من المؤكد آن الصليبيين طالبوا بمبالغ ماليةمن الجاليات اليهـودية ، وهم فى طريقهـم • وكان واضـحا أن تلك الابتزازات تمت تحت تهديد السلاح • وعندما وصل بطرس الناسك الى ترير Trier فى أوائل أبريل ، أحضر معه خطابا من يهـود فرنسا يطالبون فيه اخوانهم فى الدين فى كل مكان بتقديم المواد الغذائية له ، ويقال انه فى مقـابل ذلك وعد بطرس بأن يتحدث بلطف وترحاب عن اسرائيـل • غير أن وصـوله الى ترير ومواعظة الدينيـــة أرعبت الجـــاليات اليهودية، كما أوحت بوجود نبرة معاديةللسامية فى مواعظه • وكان اليهـود فى ماينتس Mainz يأملون فى تهدئة اميتش اللينينجى Emich of Leiningen ، وقدمـوا اليـه خطابات مماثلة ، وكذلك الأموال ، ولكن دون جدوى • وربما أجاز الاعتقاد الخاطىء للقانون الكنسى مصـادرة ممتلكات غـير المسيحيين ، وكل متعلقاتهـم ، ولذلك شـارك الصـليبيون السكان المحليين فى سلب ونهب ممتلكات اليهود فى المـدن التى حدثت بها مذابح جماعية لليهود العزل ، أما فى مدينة ماينتس فقد أعاق اليهود تقدم أعدائهم لفترة من الوقت وذلك

بالقاء الأموال لهم من النوافذ لتحويلهم عنهم • ولم يكن هناك شك لدى أحد المعاصرين الذين شاهدوا الحوادث التاريخية عن قرب فى المذابح الجماعية التى راح ضحيتها الآمنون من اليهود أن الدافع اليها كان الطمع والجشع• وعلق على الكوارث التى حلت بالصليبيين بالبلقان قائلا : « وهناك اعتقاد بأن هذه هى ارادة الله التى شاءت الانتقام من الحجاج، الذين ارتكبوا الذنوب والموبقات ، وانغمسوا فى المعاصى ، ومضاجعة البغايا ، وقتل اليهود من أبناء السبيل ، وقد خالف هؤلاء الصليبيون تعاليم المسيح باعتراف الجميع وفاق حبهم للمال حبهم للعدل الالهى » •

ومع ذلك فعند حدوث المذابح التى راح ضحيتها الكثير من اليهود ظهرت أدلة على رغبة الصليبيين فى اكراه اليهود على التنصر أكثر من الرغبة فى سلب ونهب أموالهم • وجرت محاولات فى كل مكان لفرض المسيحية على اليهود الذين كانوا قد علموا بأن الصليبيين قد عقدوا العزم على عرض الخيار على اليهود بين المسيحية أو الموت ، وأن الصليبيين يرغبون ، « فى القضاء على اليهود حتى لا يصيروا أمة » • وقد أكد كاتب مسيحى على أن هدف الصليبيين كان «الابادة أو اعتناق المسيحية » • وتعرضت المعابد اليهودية ، والكتب المقدسة ، والمقابر اليهودية للدنس ، وانتهاك قدسيتها • ومن حين لآخر استخدم المسيحيون وسائل لاثارة الذعر : ففى أثناء الاضطهاد فى مورز Mors بالقرب من كولونيا Cologne ، قاموا بتغطية سيوفهم بدماء الحيوانات لبث الرعب فى قلوب اليهود ، وجعلهم يعتقدون أن عمليات القتل قد تمت بالفعل • وفى كل قرية تعرضت للاضطهاد

كان القتل مصير اليهود الذين رفضوا اعتناق المسيحية . وأصيب اليهود باليأس الشديد حتى انهم كانوا يقتلون أنفسهم بأيديهم أو بأيدى أفراد من جالياتهم؛ حتى لا يتدنسوا على أيدى المسيحيين . أما من استسلم من اليهود للمعمودية فهم الذين كتبت لهم النجاة . وتحتوى السيرة الذاتية للأب جيبير النوجنتى Abbot Guibert of Nogent على قضية راهب مثقف بدأ حياته كغلام يهودى صغير فى روان Rouen . وأنقذ حياته ابن كونت ايو Count of Eu حيث أخذه الى والدته الكونتيسة هليزندة Countess Helisende ، وسألته اذا ما كان يرغب فى اعتناق المسيحية ، ولما كان الطفل فى حالة من الذعر ، فقد تردد فى الاعتراض على دخول المسيحية فقامت الكونتيسة بتنصيره على الفور ، ثم أطلقت عليه اسم وليم وأرسلته للخدمة فى دير القديس جرميه بمقاطعة فلاى St Germer of Fly لمنعه من العودة الى والديه .

كانت عمليات الاكراه على اعتناق المسيحية تتعارض بشكل مباشر مع القانون الكنسى ، كما أنه أمر لم يكن يقبله رجال الكنيسة المثقفون . ولعدة قرون ساد المبدأ القائل بعدم اكراه غير المسيحيين ، ولا سيما اليهود على اعتناق المسيحية ، وانما يمكن اقناعهم بالحجة والمنطق فقط . وكتب ألبرت الآخنى Albert of Aachen عن الاضطهادات التى حدثت ١٠٩٦م ، فيقول : « ان الله ديان عادل ، وقد أمر سبحانه بعدم اجبار أى انسان على الدخول فى الايمان الكاثوليكى دون ارادته » . وذكر كوزماس البراغى Cosmas of Prague أسقف براغ : « أن الاجبار على التنصر يتعارض مع القانون الكنسى ، وحاول دون جدوى منع ذلك

حتي لا يتنصر اليهود رغم أنوفهم » . وفي الحقيقة بذل معظم الأساقفة بعض الجهود لحماية اليهود ، فكانوا يأخذونهم إلى قصورهم المحصنة ، في مقاطعات سبيير Speyer ، ومايننس Mainz وكولونيا Cologne ، ويوزعونهم في سائر القرى التابعة لهم . وكان أسقف سبيير موفقا في ذلك ، اذ لم يتدخل في عقائد اليهود ، كما أنه اتخذ اجراءات مشددة ضد من يقومون بذلك من سكان المدن . اتخذ أسقف براغ Prague خطوة متشددة أيضا ولكنه لم يحقق نفس القدر من النجاح . وبدأ رئيس أساقفة ماينتس Mainz بداية طيبة ، بيد أنه ضعف في مواجهة الغوغاء ، ثم حاول استغلال مخاوف اليهود بالعمل على تنصيرهم ، كما فعل رئيس أساقفة ترير Trier . وحاول الكهنة أيضا من أصحاب الشخصيات القوية في ماينتس وزانتن Zanten الاستفادة من الوضع القائم وذلك باجتذاب اليهود وتنصيرهم ، ولكن هذا التنصير لم يكن يتم بالقوة .

وكان كبار رجال الدين المسيحي يوحون للمسيحيين بأنهم سيخوضون حربا من أجل تنصير غير المسيحيين . وبرغم أنه كان من الممكن وجود دعاة صليبيين شعبيين غير متحفظين – يلاحظ أن بطرس الناسك كان مولعا باستخدام الألفاظ الخطابية المثيرة وأن فكرة التوسع المسيحية كانت بلا ريب اتجاها سائدا – فان معظم المشاركين في الحرب الصليبية لم تكن نظرتهم للحرب الصليبية على أنها حرب تبشيرية . ومع ذلك فهناك وجهتا نظر يمكن اكتشافهما عند قراءة المصادر ، ويقدمان تفسيرا للمذابح المنظمة التي راح ضحيتها عدد كبير من اليهود الآمنين .

وكانت وجهة النظر الأولى تتعلق بالصعوبة التى عانى منها الصليبيون عند محاولتهم التمييز بين اليهود والمسلمين باعتبارهم أعداء للايمان المسيحى · وفى فرنسا ورد القول بأنه : « ليس من العدل فى شيء أن يسمح من يحملون السلاح ضد المتمردين ، وضد أعداء المسيح ، أن يتركوا أعداء المسيح يعيشون فى بلادهم » · ففى مدينة روان Rouln بدأ الناس الذين دخلوا المدينة من أجل اعطاء العهدللمشاركة فى الحملة الصليبية يقولون : « اننا نتمنى مهاجمة أعداء الله فى الشرق ، من اليهود بمجرد أن تقع عيوننا عليهم بعد أن نجتاز القفار بحثا عنهم، فهمأشدالناس عداوةلله» · وكان الغربيون يعتبرون اليهود أعداء للكنيسة بجميع أنحاء العالم المسيحى ، وربما دفع ذلك أحد الكتاب فيما بعد الى التعليق على موقف الصليبيين النورمان فى جنوب ايطاليا بأنهم ، « اعتبروا اليهود والهراطقة والمسلمين جميعا أعداء الله ، ونظروا اليهم بقدر متساو من الكراهية الشديدة » ·

وكانت وجهة النظر الثانية تتعلق بالالتزام بشن حرب انتقام · وكانت ثمة رغبة واضحة للانتقام من اليهود لأنهم صلبوا المسيح ، مما جعل أحد المعاصرين يقول بأن هذه الرغبة فى الانتقام كانت السبب الرئيسى وراء قيام الحرب الصليبية · فالصليبيون فى الجيش الفرنسى ، والانجليزى، والفلمنكى Flemish ، واللورينيون الذى تقابلوا مع امتش Emich فى مدينةماينتس Mainz ادعوا أن عمليات قتل اليهود كانت البداية لعملهم ضد أعداء الايمان المسيحى · وأعلن الصليبيون الألمان عن نيتهم فى تطهير

الطريق الى بيت المقدس بالقضاء على اليهود في بلاد الراين Rhineland ، وقال الكونت ديتمار Dithmar انه لن يغادر ألمانيا قبل أن يقتل يهوديا • وعرف اليهود أن المسيحيين يعتقدون بأن قتل اليهود يحقق الغفران للخطايا ، وعرفوا أيضا أن اخوانهم في الدين في أماكن أخرى تعرضوا للقتل باسم المسيح • وربما ظلت مشاعر الانتقام مترسبة في الأعماق حتى نهاية الحرب الصليبية ، غير أننا سنرى أن اليهود في فلسطين لم يلقوا نفس المعاملة القاسية التى تعرض لها اخوانهم فى أوربا • وفي ذلك الحين كان الصليبيون في فلسطين أقلية غريبة ، كما أن مشاعر الحقد والعداء التى كان يكنها الصليبيون تجاه اليهود بدأت تتلاشى بعد أن تسرب الخوف الى قلوب الصليبيين اثر ازدياد قوة المسلمين • ويقال ان تنكرد Tancred افتدى اليهود ، بعد أن دفع ثلاثين قطعة من الفضة عن كل يهودى •

ومن الواضح أنه فيما يتعلق بالانتقام ، لم يفرق عدد كبير من الصليبيين بين المسلمين واليهود ، واذا كانوا قد حملوا السلاح ضد المسلمين ، فما الذى كان يمنعهم من اضطهاد اليهود • واذا كان عليهم أن ينتقموا للأذى الذى لحق بالمسيح واحتلال أرضه لمدة أربعة قرون ونصف ، فلماذا لا ينتقمون أيضا ممن صلبوا المسيح ، بعد أن ألحقوا به الخزى والأسى ؟ وذكر اليهود من أهالى فرنسا أن الصليبيين قالوا : « اننا نذهب الى بلد بعيد لنحارب ملوكا أقوياء ، ونعرض حياتنا للخطر لنغزو ممالك لا تؤمن بالمسيح فى حين أن اليهود هم الذين قتلوه وصلبوه » • والواقع أن صلب المسيح واحتلال المسلمين فلسطين ، قد اختلط فى عقول

الصليبيين . ويصور مشهد غير عادى هو أنشودة انطاكية Chanson d'Antioche ـ وهى من أشهر الملاحم العامية التى عرفتها الحملة الصليبية الأولى ـ يصور المسيح معلقا على الصليب بين لصين . وقال اللص الصالح : « انه لمن العدل أن ننتقم لك من هؤلاء الخونة اليهود الذين عذبوك كثيرا » وعندما سمعه الرب استدار اليه قائلا : «يا صديقى ان الشعب الذى سينتقم لى بالحراب الفولاذية لم يولد بعد . وهم سيقتلون الوثنيين غير المؤمنين الذين رفضوا وصاياى دائما .

ان المسيحية المقدسة ستتشرف بهم وستتحرر الأرض على أيديهم ، وبعد مرور ألف عام من الآن سيتم تعميدهم وسيستردون القبر المقدس ويتعبدون واعلم علم اليقين أنه عبر البحر سيأتى شعب جديد لينتقم لموت أبيه » .

ويقال ان هذا المشهد أضيف الى الأنشودة حوالى ١١٨٠م على يد الشاعر جريندور الدواياوى Graindor of Douai الذى واصل الكتابة عن تدمير بيت المقدس على أيدى الرومان كاجراء مبكر انتقاما لصلب المسيح ، وهى فكرة تكرر ذكرها فى أسطورة القرن الثامن الميلادى التى تمت الاشارة اليها فى منشور بابوى ، كنموذج للدعاية للحرب الصليبية ، ويبدو أن هذه الفكرة انطلقت من دير مواساك Moissac فى جنوب فرنسا ، وهى التى اندمجت فى قصيدة الانتقام

لسيدنا ومخلصنا La Venjence Nostre Seigneur في القرن الثاني عشر . غير أن الفكرة القائلة بأن المسيح نفسه دعا للانتقام كانت بالتأكيد منتشرة أيام الحرب الصليبية الأولى؛ لأن أحد الكتاب اليهـود ذكر أن الصـليبيين قالوا لليهود : « انكم أبناء الذين قتلوا موضـع تبجيلنـا وتوقيرنا ؛ ومن علقوه على خشبة الصليب ، وأنه قال بنفسه : « سيأتي اليوم الذي ينتقم فيه أبنائي لدمي » . اننـا أطفاله ولذلك فنحن ملزمون بالانتقام له طالما أنتم أبناء الذين ثاروا ضـده ولم يؤمنوا به » .

وكان لدى الكنيسة رد على هذا الانحراف عن رسالتها، بيد أنه لم يكن كافيا للتعامل مع القوى التي انطلقت بفعل الدعوة للحركة الصليبية التي قادتها الكنيسة نفسها . ومنذ سنة ١٠٦٣م ، ومنذ التخطيط للتقدم صوب مدينة بويشتر Barbastro في اسبانيا ، اضطر البابا اسكندر الثـاني الى الكتابة للأساقفة الاسبان يحـذرهم من الاعتـداء عـلى اليهـــود :

« ان أسباب استخدام العنف ضد اليهود والمسلمين كانت متباينة ، لأنه كان من العدل أن يقاتل المرء أولئك الذين يضطهدون المسيحيين ، والذين يطردونهم من مدنهـم ومن أسقفياتهم . في حين أن اليهود كانوا على استعداد لخـدمة المسيحيين في كل مكان » .

وفي وقت الحملة الصليبية الأولى وضع هـذا الخطاب ضـمن المجمـوعة القانونيـة الكنسـية المعـروفة باسـم

Ivo of Chartres ، ثم فى مجموعة Gratian's Decretum ، وهى مجموعة قانونية ذات قيمة معترف بها ، وتطورت رسالتها على أيدى رجال القانون الكنسى فيما بعد . وكان البابا اسكندر الثاني يؤكد على أن استخدام القوة لمواجهة الأضرار الموجودة بالفعل أمر جائز . وقد تمثلت هذه الأضرار فى العدوان العسكرى ، واحتلال أراضى المسيحيين والاستيلاء على ممتلكاتهم أو الثورة ضد المسيحيين . أما اليهود فلم يكن يصدر منهم أى أذى فى ذلك الحين . وبالاضافة الى ذلك فان الأفعال السالفة تتناسب مع النتائج المترتبة على الأذى ، وقد أحدث المسلمون الأذى لأنهم احتلوا بيت المقدس عام ٦٣٨م . غير أنه فى غمرة تلهفهم على اثارة حماس المسيحيين للقيام بعمل كان فى الأصل عملا اختياريا ـ لا يخضع لمطالب الخدمة الاقطاعية أو السخرة الاقطاعية ـ كان الداعون للحرب الصليبية مستعدين للاستفادة من فكرة الانتقام التى كانوا يعرفون أنها ستكون عاملا على جذب المستمعين اليهم .

الفصـل الثالث

الأحـوال ابان الزحف الصليبى

بدأت الموجة الثانية من الصليبيين مغادرة غرب أوربا فى منتصف أغسطس ١٠٩٦م فى الموعد الذى حدده البابا أو بعده . وسافروا فى مجموعات تحت قيادة كبار الشخصيات، وتجمع الأمـراء الأقل مـكانة والفرسـان تحت امـرة تلك الشخصيات الكبيرة فى ذلك الحين . وضمت تلك المجموعات هيو الفرماندى Hugh of Vermandois شقيق ملك فرنسا، وجودفرى البـويونى دوق اللورين الأدنى Godfrey of Bouillon, duke of Lower Lorraine وبوهيموند التارانتوى Bohemond of Taranto كذلك ريموند السانت جيلى Raymond of St Gilles كونت تولوز الذى شارك فى قيادة أكبر الجيوش وممثل الأسقف أدهيمار Adhèmar روبرت كونت اقليم الفلاندر Count Robert of Flanders وروبـرت دوق نـورماندى Duke Robert of Normandy وسـتيفن كـونت بلوا Count Stephen of Blois . وفيما بين نوفمبر ١٠٩٦م ، ومايو ١٠٩٧م توافدت تلك الشخصيات المهمة على القسطنطينية ، حيث تم اقناعهم بأن يصـبحوا

أتبـــاعا Vassals للامبراطور البيزنطى الكســـيوس Alexius ووافقوا على أن يصبحوا أتباعا للامبراطور فيما عدا ريموند السانت جيلى، الذى لم يوافق على أن يصبح تابعا للامبراطور الا بشروط معينـــــة ، ووعـــدوا باعادة كل الأراضى التى يستولون عليها للامبراطور ، والتى كانت تابعة للامبراطور من قبل • ومنذ أبريل ١٠٩٧م كانت السفن تقوم بنقلهم عبر بوغاز البسفور الى الشاطىء الأسيوى• وفى أوائل يونيو توحدوا وضموا صفوفهم فى جيش واحد أمام مدينة نيقيه Nicaea • وفى التاسع عشر من يونيو ، سلموا القيادة العليا للقوات اليونانية التى رافقتهم • وفى السادس والعشرين من يونيو ١٠٩٧م بدءوا فى الزحف عبر آسيا الصــغرى • وفى أول يوليو من السنة نفسها أحرزوا نصرا حاسما عــلى الأتراك السلاجقة فى موقعة أرضروم • وبعد أن استراحوا لمدة يومين ، اتجهوا صـــوب آقشـــهر Akshehir ، وقونيـــه Konya ، ثم اريجلى Ereghli ، وهناك هزموا جيشـــــا تركيا هزيمة منكرة ، عند محاولته اعتراض سبيلهم ، وذلك فى حوالى العاشر من سبتمبر ١٠٩٧م• وفى ذلك الحين انفصل تنـــكرد Tancred ،وبولدوين البولونى Baldwin of Boulogne شقيق جودفرى البويونى Godfrey of Bouillon ، عن الجيش الرئيسى ، للاغارة عـــلى قيليقية Cilicia والاستيلاء عـــلى طرســــوس Tarsus ، وأدنه Adana ، ومصـــيص Misis والاسكندرونة Iskenderun، ثم ذهب بولدوين تجـــاه الشرق صــــوب غازى عينتـــاب Gaziantep وتل باشر Tilbeshar والرها Edessa التى وصـــلها فى العشرين من فبراير

١٠٩٨م ٠ وبعد آن كانت الرها تابعة لأمير أرمني من قبل، سيطر بولدوين عليها كلية في العاشر من مارس ١٠٩٨م ، وأقام بها أول امارة صليبية ٠ وفي الوقت نفسه ، انضم تنكرد مرة ثانية للحملة الصليبية التي كانت قد تقدمت في طريق قيســـارية ، وكومانا Comana ، وجوكســـون Goksun ، ومرعش ، الى أنطاكيـــة حيث وصـــلتها الحملة الصليبية في الحادى والعشرين من آكتوبر ١٠٩٧م ٠

وقدر لحصار أنطاكية آن يستمر حتى الثالث من يونيو ١٠٩٨م ٠ ولم تمض سوى أربعة آيام على احتلال الصليبيين لمدينة أنطاكية ، حتى حاصرهم جيش كبير من المسلمين أتي لنجـــدة المدينة بقيـــادة كربوغا حاكم الموصـــل التركى ٠ وكان موقف الصليبيين حـــرجا جـــدا ٠ كان الامبراطـــور الكسيوس على رأس قوة يونانية لنجدة الصليبيين ، ولكنـــه اضطر الى التقهقر ، بعد آن كان قد وصل الى مدينـــة أقشهر Akshehir ، عنـــدما نقل اليـــه الفارون من المعركة أنبـــاء مبالغا فيها عن الكارثة التي لحقت ببقية الصليبيين ٠ وفي أنطاكية تشجع الصليبيون ، واشتدت عزيمتهم عندما تناقلوا فيما بينهم أنباء ظهور المسيح ، والعذراء مريم ، والقديس بطـــرس ، والقـــديس آندرو St Andrew ٠ وفى الثـــامن والعشرين من يونيو ، تمكن الصليبيون من شن هجوم مفاجىء وناجح على المسلمين الذين كانوا يحاصرونهم وأجبروهم على الفرار فى معركة من اشهر المعـــارك الصليبية الفاصلة فى الحرب الصـــليبية ، ولا سيما بعـــد آن كان قد دب الأمل فى نفوس الصليبيين عندما اكتشفوا قطعة أثرية تحت أرضـــية

الكاتدرائية ، واعتقدوا أنها بقايا الحربة المقدسة التي طعن بها المسيح وهو على خشبة الصليب ، فتحمسوا جميعا لخوض تلك المعركة . أما قلعة مدينة انطاكية فاستسلمت للصليبيين في ذلك الحين ، وادعى بوهيموند Bohemond أحقيتـه في امتلاك القلعة نظرا لأن الامبراطور البيزنطي أضـاع حقه في مدينة أنطاكية لأنه تخلى عنهم أثنـاء حصـارهم . وقرر الصليبيون أن يأخـذوا قسـطا من الراحة حتى أول نوفمبر ليستأنفوا زحفهم ولكن سرعان ما اعتراهم الفتـور والملل . وفقد الصليبيون أدهيمار عندما انتشرت الأوبئـة والأمراض مثل مرض التيفويد ؛ مما أدى الى تشتت شـمل الشخصيات القيادية للصليبيين ، فقد كان أدهيمار في كثير من الوجوه القائد الأوحد الذى كان يحظى باحترام وتقدير الجميع . وأصيبت الحملة بالشـلل لأن الأمراء الآخرين ، وخاصـة بوهيموند وريموند ـ اللذين كانا يتحـدثان عن حقوق الامبراطور البيزنطي ـ تنازعا بشأن امتلاك أنطاكية وكذلك الخطط المستقبلية . وأخيرا أخذ الصليبيون العاديون بزمام المبادرة بعد أن أصـابهم الاسـتياء نتيجة لتصرفات قادتهم التي عطلت المهمة التي خرجوا من أجلها ، ودمروا تحصينات معرة النعمان التي صـارت قاعدة ريمـوند في سوريا ، وهددوا بالقيام بثورة في أنطاكية . وفي الثـالث عشر من يناير ١٠٩٩م غادر ريموند معرة النعمان ، وتبعه روبرت النورماندى وتنكرد ، وفي أواخر فبراير تبعه كل من جـودفرى البـويوني ، وروبرت الفـلاندرى ، وظـل بوهيموند في أنطاكية لحمايتها . وتجمع الصليبيون أمـام عـرقة Arqah في لبنان قبل نهاية مارس ١٠٩٩م . بعـد

ان تخلوا عن الحصار فى الثالث عشر من مايو وعبروا نهر الكلب شمالى بيروت بعد ذلك بستة أيام ، وزحفوا بسرعة عن طريق صور ، وتقدموا فى عمق الأراضى شمالى يافا حتى وصلوا الرملة فى الثالث من يونيو ١٠٩٩م · وفى اليوم السابع كانوا أمام أسوار بيت المقدس · وكانت بيت لحم قد سقطت بالفعل فى يد تنكرد · واستمر حصار الصليبيين لبيت المقدس حتى الخامس عشر من يوليو وأخيرا تمكنوا من مهاجمتها والاستيلاء عليها ونهب خيراتها · وفى الثانى والعشرين من يوليو ١٠٩٩م تم اختيار جودفرى حاكما للمدينة · وكانت مهمته الأولى تتمثل فى تنظيم الدفاع عن المستعمرة الجديدة ضد الهجوم المصرى المضاد · وفى الثانى عشر من أغسطس ١٠٩٩م هاجم الصليبيون جيشا مصريا كبيرا على غزة ، وقضوا عليه بالقرب من عسقلان وبذلك تمكن الصليبيون من فرض سيطرتهم على فلسطين ·

هذا عرض موجز للحوادث التاريخية التى وقعت آنذاك · ومن حسن الحظ أن لدينا الكثير من الأدلة التى قدمها لنا المعاصرون والتى تدل على وقوع هذه الحوادث التاريخية ، وقد شارك بعض أولئك المعاصرين فى صنع تلك الحوادث التاريخية · ويوجد عدد قليل من المواثيق الأوربية الغربية التى تضمنت الأمنيات الأخيرة للصليبيين الذين ماتوا أثناء الزحف · ويوجد تسعة خطابات متصلة كتبها الصليبيون لذويهم أو كتبها أقاربهم لهم · والخطاب الأول يعود تاريخه الى الرابع والعشرين من يونيو ١٠٩٧ م بعد سقوط نيقية · وخمسة خطابات أخرى يعود تاريخها الى أكتوبر ١٠٩٧م حتى أبريل ١٠٩٨م أثناء حصار

أنطاكية · وحمل أحـد الخطابات تاريخ يوليـو ١٠٩٨م ، عقب معركة أنطاكية ، بوقت قصير ، وتمت كتابة الخطاب الآخر في سبتمبر التالى بعد موت آدهيمار · ومن ثم فهناك فترة انقطاع مدتها عام قبل الخطاب الأخير الذى كتبه رئيس الأساقفة دايمبرت البيزاوى Daimbert of Pisa فى اللاذقيـة فى سوريا ، وكان فى طريقه الى بيت المقـدس ، وريموند السانت جيلى Reymond of St. Gilles ، الذى غادر فلسـطين فى ذلك الحين · وعلى الرغم من أن رجال الدين هم الذين كتبوا كل تلك الرسائل فان غالبيتها أملاها رجال من العامة ، فعلى سـبيل المثـال ، كتب ستيفن البلوى Stephen of Blois ــ وهو أحد الأمراء ــ رسالتين ، كما كتب أنسيلم الريبمونى Anselm of Ribemont ــ أحد الشخصيات اللامعة ــ رسالتين أخريين · ويمكن اضافة رسـالة أخـرى الى تلك الخطابات أرسـلت من مدينـة لوقا Lucca فى أكتـــوبر ١٠٩٨ م ، تضمنت وصـفا للحوادث التاريخية فى أنطاكيـة خـلال ربيع وصيف عام ١٠٩٨ م · وقام أحد مواطنى أنطاكيـة بكتابة تلك الرسـالة بمجـرد عودته الى موطنـه · وهنـاك أيضا أربعة مصادر وصفية لشهود عيان بينها ترابط واضح ، لا سيما المصـدر الأول والثـانى وهى : أعمـال الفرنجـة Gesta Francorum لمـؤلف مجهـول وتاريخ بطـرس تودبود Peter Tudebode وريموند الأجوليرى Raymond of Aguilers وفولشر الشارترى Fulcher of Chartres · عـلى أن علاقات المصـادر ببعضها ببعض كانت مبعث حـيرة بالغـة للعلمـاء والدارسين ، ثم تمت اعادة بحث الموضوع مؤخرا على نحو

دفع إلى الشك فى الرأى السائد بأن الكتب التسعة الأولى من كتاب الأعمال The Gesta تمت كتابتها قبل نوفمبر ١٠٩٨م ، ابان وجود تلك الأعمال فى أنطاكية ، والذى كان كاتبها على ما يبدو فارسا ، نورمانديا من جنوب ايطاليا ، ولكن هذا الأمر لا يعنينا كثيرا ، لأننا نادرا ما نعتمد على الروايات التى يدلى بها الأفراد للوقوف على جلية الأمر ، أو معرفة الرأى الصائب •

وما يعنينا هو أن لدينا كتابات تاريخية شارك العلمانيون بنصيب وافر فى اعدادها ، فمثلا كان كل من كاتب الأعمال The Gesta ، وكذلك كاتب سيرة تاريخ ريموند الأجوليرى من الفرسان الذين مروا بتجربة الحرب الصليبية ، وسجلاها فى وقت قريب منها ، فمؤلف الأعمال انتهى منها قبل ١١٠٤ م أو ربما قبل ذلك بوقت كبير ، وانتهى كاتب سيرة كل من فولشر الشارترى ، وريموند الأجوليرى من كتابتيهما قبل عام ١١٠٥م ، كما انتهى كاتب سيرة بطرس التودبورى من كتابتها عام ١١١١م • على أن أهمية أولئك الكتاب ، باعتبارهم شهود عيان للوقائع التى حدثت آنذاك ، انما ترجع الى أنهم كانوا ينتمون الى عدة قادة مختلفين، فمؤلف الأعمال كان تابعا لبوهيموند ثم صار تابعا لريموند بيليه Raymond Pilet ، وكذلك كان ريموند الأجوليرى ينتمى الى صحبة ريموند السانت جيلى • وكان فولشر الشارترى ضمن الحاشية المقربة من ستيفن البلوى Stephen of Blois ، ثم بلدوين البولونى Baldwin of Boulogne • ونحن لسنا فى حاجة الى أن نذكر أنفسنا بأن أولئك الكتاب كانوا يفسرون الحوادث التاريخية

المهمة ويدونونها ، لذا فهم لا يقدمون لنا روايات صادقة عن أنشطة الحروب الصليبية فحسب ، بل يقدمون لنا تجاربهم وخبراتهم عن هذه الحروب ٠

وكان المعاصرون يجمعون الآراء على أن الحرب الصليبية عمل مجيد وشاق ، وأنها كانت تجربة مريرة ومؤلمة فهي تجربة لا نظير لها ٠ اذ لم يحدث من قبل أن قام أمراء علمانيون بتكبد المعاناة والآلام البالغة لمجرد حصولهم على الجزاء الديني المنتظر ٠ وليس من الصعب أن يفهم الانسان الواقع الذي دفعهم الى ذلك ، اذا أخذنا في اعتبارنا البنية العسكرية التي كان يتكون منها الجيش ، والطريق الذي سلكه هذا الجيش ٠ ومن الصعب تقدير عدد هذا الجيش حتى بعد تجمعه في مدينة نيقيه ، فقد اشتمل على كثير من غير المحاربين ، ولم يكن عدده ثابتا ٠ وتكبد الصليبيون خسائر فادحة في آسيا الصغرى وأنطاكية ٠ وكان هناك سيل متدفق من الهاربين من ميادين القتال من الصليبيين في الوقت الذي كانت هناك حركة تدفق مضادة من أوربا الى الشرق على امتداد طريق الحروب الصليبية ، وبذلك انضم المحاربون الجدد الى صفوف المقاتلين ٠ ولنا أن نقدم ثلاثة أمثلة ، فالفارس هامو اللاهوني Hamo of La Hume لم يغادر فرنسا حتى عيد الميلاد ١٠٩٦م ٠ وفي يونيو ١٠٩٨م وعندما سمع الامبراطور البيزنطي التقرير الخاطيء الذي يبعث على التشاؤم عن الأحوال في أنطاكية ، قرر الانسحاب من آقشهر Akshehir الى القسطنطينية ، وكان في صحبته عدد كبير من الصليبيين الذين كانوا قد انضموا الى

جيشه الذى قد تحرك لانقاذ المدينــة المحــاصرة ، غــير أن معظمهم لم يتمكن من أن ينفذ خطة الانسحاب التى وضعها الامبراطور وماتوا فى الطريق ، غير أن اثنين من أقارب بوهيمــوند قررا الذهاب الى أنطاكيــة للبحث عن جثمــان بوهيموند ودفنه بطريقة لائقة • ثم ركبا سفينة من قبرص حتي وصلا السويدية ، وهى ميناء أنطاكيــة ، حيث قابلا هناك خمسمائة صليبى فرنسى بكامل أسلحتهم كانوا قد وصلوا منذ وقت قصير • وظل الصليبيون يتدفقون عــلى فلسطين فى الوقت الذى كان يغادر فيه فلسطين من تمكنوا من الاستيلاء على بيت المقدس فى خريف ١٠٩٩م والعــودة الي بلادهم • ومع ذلك يجب علينــا أن نجــرى نوعا ما من تقدير القوة العسكرية للصليبيين • ويقال ان الجيش فى نيقية Nicaea فى يونيو ١٠٩٧ م ، يتــكون من ٤٢٠٠ ــ ٤٥٠٠ من الفرسان وثلاثين ألفا من المشاة • وذكر ريموند الأجوليرى Raymond of Aguilers قسيس ريموند الســـانت جيلى ، أن حجم الجيش الذى حاصر بيت المقدس فى يوليــو ١٠٩٩م بلغ اثنى عشر ألف مقــاتل منهم ما بين ١٢٠٠ ــ ١٣٠٠ فارس ، واشتملت تلك الأرقام عــلى حملة الأسـلحة والمعدات الحربية من الفقراء كما كان هناك عدد من المدنيين الذين كانوا قادرين على أداء أعمال نافعة كثيرة • واذا ما أضفنا خمسة وعشرين فى المائة الى الأعداد المذكورة آنفا ، فسنصل الى أرقام ٤٣٫٠٠٠ للجيش الذى حاصر نيقيــة فى يونيو ١٠٩٧م، و ١٥٫٠٠٠ للجيش الذى ضرب حصارًا حول بيت المقدس بعد ذلك بعامين • والرقم الأول من الممكن أن يكون أقل قليلا ، غير أن الرقم الثانى من الممكن تصديقه • على أن كل ذلك لا يزيد عن مجرد تخمينات •

ومع ذلك فمن المؤكد أن أعدادا كبيرة من الرجال والنساء بدءوا المسير من غرب أوربا الى فلسطين بدون وجود تخطيط أو تنظيم سليم لتدبير المواد التموينية ، وليس مدهشا أن المؤن والحيوانات ــ الخيول ودواب الحمل ــ كانت تشغل أفكارهم من الفجر حتى الغسق · ولكى يطعموا أنفسهم وحيواناتهم ويتزودوا بالحيوانات الجديدة ، قاموا بالاعتماد على ثلاثة مصادر للزاد والامداد · أولا ، من الهدايا والمنح التى قدمها لهم المسيحيون الذين اجتاز الصليبيون أقاليمهم ، ثم من الحكام المسلمين الذين انتابتهم حالة من الذعر وذلك فى مراحل لاحقة · ثانيا بالاغارة على المناطق الريفية القريبة منهم · ثالثا ، وأثناء عبورهم للأراضى البيزنطية قدم اليونانيون لهم المواد الغذائية · وعندما كان الصليبيون فى سوريا ، قدم اليهم الأرمن والسوريون والتجار الغربيون كل مساعدة من المواد الغذائية وغيرها · وبالطبع ، كان الصليبيون على غير اتصال بالذين يمدونهم من المسيحيين وعلى أية حال كان عليهم أن يدفعوا ثمن المؤن التى كانوا يحصلون عليها وكانت الأسعار مرتفعة · وكانوا فى حاجة الى المال ، لذلك كانت الحاجة الى المال عاملا اضافيا لممارسة عمليات السلب والنهب فى المناطق الريفية المحيطة بهم وتجريد كل من يقع فى قبضتهم مما يملك سواء أكان جيشا منهزما أم مدينة أم قلعة ، وشاعت تلك الفكرة بين صفوفهم منذ معركة أرضروم Dorylaeum ، « اليوم سنصبح كلنا أغنياء بمشيئة الله » · وربما كان هذا تعبيرا عن حالة الخوف والقلق · وصارت عمليات السلب والنهب من الأمور العادية الضرورية التى شغلت اهتمامهم ، وهذا يفسر

لنا المنازعات التي قامت بينهم بسبب الغنائم ، وقلق قادة الحملة الصليبية خشية أن ينشغل الجميع بالغنائم في المعركة ، كما حدث في المذبحة البشرية وعمليات النهب التي وقعت عشية سقوط بيت المقدس في أيديهم • والواقع أنها أصبحت رد فعل طبيعي لرجال عاشوا لمدة ثلاث سنوات في عالمهم الخاص بهم ، وقد وضعوا سياجا حول أنفسهم وعاشوا في عالمهم المنعزل والمملوء بالمعاناة حيث صارت عملية الحصول على الزاد مسألة تشغل في المقام الأول تفكيرهم ، مهما كانت وسيلة الحصول عليه •

وبالنسبة للاحتياجات للمواد الغذائية ، فيمكن تقسيم سير الحملة الصليبية الى ثلاث مراحل • وتمتد المرحلة الأولى من غرب أوربا الى نيقية • فالصليبيون الذين بدءوا مسيرهم في خريف ١٠٩٦م استفادوا من المحصول الوافر في وطنهم ، وكان يعني ذلك أن لديهم خبزا بكثرة في بداية الأمر ، على الرغم من أن قادتهم قد انتابهم قلق لحاجتهم للمال ، كما يتضح لنا أن جودفري البويوني حصل على اعانات مالية عنوة من الجاليات اليهودية في ماينتس Mainz ، وكولونيا Cologne • واستفادوا أيضا من الدروس التي تعلموها من مرور الجيوش التي سبقتهم عبر بلاد البلقان • ويبدو أن قادة الجيوش التي مرت بعد ذلك أصدرت تعليمات مشددة لعدم اللجوء الى عمليات السلب والنهب • وكانوا يقومون بشراء المواد التموينية وفقا لموقفهم المالي ، واضطروا الى ممارسة عمليات السلب والنهب حينما أخفقت الترتيبات التي اتخذوها ، وهذا ان دل على شيء ، فانما يدل على قلقهم ازاء توافر المؤن • وقدم

اليونانيون الى الصليبيين المواد الغذائية عندما كانوا يعبرون بوغاز البسفور حين عانوا من نقص شديد في المواد الغذائية لفترة من الوقت ، في مايو ١٠٩٧م ، وعالج بوهيموند هذا الموقف بهمة ونشاط • ويبدو أن الصليبيين الفقراء حصلوا على الطعام دون مقابل عندما كانوا أمام مدينة نيقية ، غير أنه من الواضح أن كل المواد التموينية كان لابد من دفع ثمنها ، ولابد أن هذا قد استنزف معظم المنحة المالية السخية التي قدمها الامبراطور ألكسيوس Alexius الى القادة ، والى الفقراء عندما كانوا في القسطنطينية بعد سقوط نيقية ، على الرغم من أن الصليبيين وجدوا أن هبات الكسيوس ما كانت لتتساوى مع ما كانوا سيحصلون عليه لو أنه سمح لهم بنهب مدينة نيقية ، كما أنه أهدى الجياد للقادة الصليبيين ، فرحبوا بتلك الهدايا ترحيبا كبيرا •

واستمرت المرحلة الثانية للحملة الصليبية لمدة عامين تقريبا منذ مغادرة نيقية في الفترة ما بين ٢٦ ، ٢٩ يونيو ١٠٩٧م الى حدوث التجمع أمام الرقة في منتصف مارس ١٠٩٩م • وتتميز تلك الفترة بالمعاناة والحرمان • وتقدم الصليبيون من نيقية عبر آسيا الصغرى مبتعدين عن مناطق الحصول على الامدادات التموينية • وكانت المطايا ودواب الحمل أساسية بالنسبة لهم جميعا ، وكان أمرا طبيعيا أن يهتم الفرسان بالخيول التي تحفظ لهم مكانتهم الرفيعة ، وتمكنهم من أداء المهام الملقاة على عاتقهم • ومنذ حلول الأول من يوليو ١٠٩٧م كانوا قلقين على جيادهم المعدة للقتال لأنها منهكة وجائعة • وفي الشهر التالي كانت جيادهم ودوابهم تتساقط كالذباب أثناء عبورهم المناطق

القاحلة بوسط الأناضول . وفقد كثير من الفرسان دوابهم ، وامتطى البعض الثيران واستخدموا الماعز والغنم بل والكلاب كدواب للحمل . وعندما وصلوا الى أنطاكية ، كان هناك نقص حاد فى الخيول وتحول الموقف من سيىء الى أسوأ . وعند بداية حصار أنطاكية فى شهرى أكتوبر ونوفمبر ١٠٩٧م بلغ عدد الجياد المتبقية ما بين ٧٠٠ ، ١٠٠٠ ، ولم يكن تحت يد كل من ريموند السانت جيلى وأدهيمار سوى مائة حصان فقط . وبدأت كفاءة الصليبيين تصاب بالضعف نظرا لأن قلقهم على خيولهم جعلهم يحجمون عن تعريضها للمخاطر أثناء المعارك . وقام كل من ريموند وأدهيمار بانشاء جمعية خيرية لها خزانة عامة وأودعوا بها خمسمائة مارك من الفضة لتزويد فرسانهم بالمال ليتمكنوا من شراء مطايا بدلا من التى فقدوها . ومن الواضح أن هذا الاجراء كان ناجحا اذ كان ريموند قادرا على تزويد القادة الآخرين بالخيول فى مناسبات ثلاث لاحقة . وبحلول شهر يونيو ١٠٩٨م ، كان عدد الخيول فى الجيش الصليبى كله قد انخفض الى ما بين مائة الى مائتين ، كما أن حالة الضعف التى انتابت تلك الخيول أثارت القلق أثناء معركة أنطاكية، ولذلك قدموا كمية اضافية من الأعلاف لتلك الخيول بناء على أوامر ادهيمار . وكانت الغالبية العظمى من الخيول الباقية قد ماتت من شدة البرودة والجوع ، والبعض الآخر من تلك الخيول ذبحها الصليبيون وأكلوها على الرغم من أن كثيرا من الصليبيين رفضوا ذبح خيولهم واكتفوا بسد حاجتهم الشديدة للطعام بأن فصدوا خيولهم وشربوا من دمائها . واضطر كثير من الفرسان ومن بينهم شخصيات مشهورة الى

الذهاب للمعركة سيرا على الأقدام أو امتطوا الحمير أو البغال بل ان جودفرى البويونى Godfrey of Bouillon ، وروبرت الفلاندرى Robert of Flanders أجبرتهما الظروف على استجداء الخيول قبل معركة انطاكية • واستبد القلق من ندرة الجياد بعقول الصليبيين • وظهر هذا القلق بصورة جلية حين كان الصليبيون يقومون بغاراتهم على المدن • وخسر الصليبيون احدى المناورات الحربية خارج مدينة أنطاكية لأن فريقا من الفرسان ترك ساحة القتال ليطارد أحد الجياد الفارة ويمسك به • وصار الرجال يتفاخرون بخيولهم وكانت الهدايا من تلك الخيول مناسبة جديرة بالتسجيل ، وكانت تعكس مقدار ما يتمتع به صاحبها من مكانة مرموقة • وظلت الحملة الصليبية فى حاجة ماسة الى الخيول حتى نهاية عامى ١٠٩٨ ، ١٠٩٩م •

وأثناء الزحف عبر آسيا الصغرى داهمهم الجوع فى أراض قاحلة أمام مدينة قونية Konya ، وأثر ذلك الجوع بشدة على القوة العسكرية التابعة لبولدوين البولونى Baldwin of Boulogne التى كانت تتقدم عبر منطقة صغيرة من الأرض البور وهى فى طريقها الى قيليقية Cilicia ، غير أن الصليبيين وصلوا أنطاكية فى أواخر أكتوبر ١٠٩٧م ، وهم فى حالة جيدة نوعا ما • وفى بداية الأمر وجدوا كميات وافرة من المواد الغذائية فى الاقليم ، وأضافوها الى ما عندهم من مؤن ، ويرجع الفضل فى ذلك الى أسطول من جنوة كان قد دخل ميناء السويدية فى منتصف نوفمبر • ومع ذلك فما كان يمكن لجماعة من الرجال

والنساء يبلغ تعدادها حوالى أربعين ألفا أن تظل مقيمة فى مكان واحد لفترة طويلة من الوقت دون أن تشعر بتناقص المواد الغذائية • فلم تكن المواد الغذائية القادمة بحرا تأتى بصورة مستمرة ، كما أن الطريق البرى بين السويدية وأنطاكية والذى يبلغ طوله حوالى عشرين ميلا كان غير آمن • وكانت المنطقة الريفية حول أنطاكية عبارة عن شريط من الأرض الجرداء أو أنها كانت تبدو كذلك • وأخفى السكان المحليون ما تبقى من السلع والبضائع ، على الرغم من أن المسلمين كانوا قادرين على تهريب المواد التموينية الكافية للمدافعين عن المدينة • وشح الطعام فى المعسكرات المسيحية قبل حلول عيد الميلاد، مما دفع بوهيموند وروبرت الفلاندرى الى الاغارة على المدن المجاورة ، ولكنهما لم يظفرا بشىء فى الواقع • والواقع أن الاغارة على المدن المجاورة أصبحت بلا جدوى ، وكان الصليبيون مجبرين على البحث عن الطعام فى الأماكن النائية ، فكانوا يتجولون فى جماعات مهمتها سلب ونهب الطعام • وكانت هذه الجماعات تبتعد عن أنطاكية مسافة خمسين ميلا أحيانا أثناء تجوالها بحثا عن الطعام • كما أقامت مراكز للسلب والنهب فى مناطق بعيدة عن أنطاكية • ويوجد وصف دقيق لهذا النشاط المستمر بحثا عن الطعام من خلال ما ذكره لنا بطرس بارثولومى Peter Bartholomew ، وفيما يلى تفصيلات لما أدلى به • فقد كان بطرس هذا فى المعسكر الصليبى أمام أنطاكية فى الثلاثين من ديسمبر ١٠٩٧م • وفى العاشر من فبراير ١٠٩٨م كان بطرس هذا على بعد خمسين ميلا من أنطاكية ، وكان فى صحبة حملة بقصد سلب ونهب الأطعمة • وفى العشرين من مارس كان فى السويدية ، ثم عاد الى

المعسكر الرئيسى، ومن هناك سافر الى المصيص فى قيليقية ، وظل يباشر مهمة تدبير الأمور حيث ان مستخدمه وليم بير الكونهلاتى William Peyre of Cunhlat حاول ثلاث مرات فى أبريل ومايو أن يبحس من هنـاك الى قبرص • ثم عاد الى السويدية وذهب الى أنطاكية ، حيث وصلها فى الرابع عشر من يونيو ١٠٩٨م • وهكذا فى مدى ستة أشهر كان قد سافر ما لا يقل عن ٣٤٠ ميلا بحثا عن الطعام •

وكانت المجاعة هى النتيجة التى ترتبت على هـذا الانتظار الطويل فى أنطاكيـة • وكان بعض الفقراء قد ماتوا جوعا فى نيقية • وفى أنطاكية ارتفعت أسعار المواد الغذائية وعلف الخيول ارتفاعا باهظا • ووصلت المجاعة حد الذروة فى يناير ١٠٩٨م • وعندما سقطت المدينة فى الثالث من يونيو ، كانت هنـاك فترة من الراحة القصيرة ، والتقاط الأنفاس ، غير أن النقص فى المـواد الغذائيـة لم يلبث أن صار حادا خلال أيام قلائل ثم اشتدت حدته عندما ضرب جيش اسلامى حصارا فوريا حـول المدينـة فاضطر الناس الى أكل أوراق الأشجار والحسك والجلود • وبعـد انتصار المسيحيين فى الثامن والعشرين من يونيو ١٠٩٨م ، أدخلت الغنائم التى تم الاستيلاء عليها البهجة والسرور فى القلوب • وكان الحال كذلك بالنسبة للمواد الغذائية التى كان يرسـلها بلدوين البـولونى Baldwin of Boulogne من مدينة الرها الى أنطاكية • غير أن حالة الشعور بالارتياح كانت مؤقتة ، فقد ظل شبح المجاعة ماثلا أمام أعين الجيش الصليبى • وفى أواخر نوفمبر وأوائل ديسمبر ابان حصار

معرة النعمان التى كانت تقع فى نطاق المنطقة التى ضربتها غارات الصليبيين بحثا عن الطعام ، كان بامكان المرء أن يرى عشرة آلاف رجل منتشرين فى أنحاء الريف يفتشون الأرض بحثا عن الحبوب أو الحنطة أو جذور النبات • وكانت حالة الفقراء من الصليبيين تبعث على الأسى واليأس ؛ مما اضطر البعض منهم الى أكل لحوم البشر ، فكانوا يلتهمون جثث القتلى من المسلمين ، بل انهم لم يتوانوا حتى عن التهام الجثث التى دب فيها الفساد • فقد كان أتباع ريموند السانت جيلى لا يزالون يعانون من النقص الشديد فى الطعام بحلول شهر يناير عام ١٠٩٩م •

وأما المرحلة الثالثة للحملة الصليبية الأولى التى تضمنت الزحف الى فلسطين ، ثم الوصول الى بيت المقدس ، فكانت أكثر بهجة • اذ سارع الحكام المسلمون الى عقد سلام مع الصليبيين ، وقدموا لهم فروض الولاء والطاعة ، وفتحوا الأسواق • ومنذ شهر فبراير واصل الصليبيون تقدمهم بمحاذاة ساحل البحر ليتمكنوا من الحصول على الامدادات التى كانت تأتيهم من البحر وبخاصة من قبرص ، رغم أنه لا يمكن القول بأن المواد التموينية كانت متوافرة لديهم بصفة دائمة • وفى أوائل فصل الصيف استطاعوا أن يعيشوا على المحاصيل المحلية • وعلى الرغم من أن الصليبيين قد عانوا نقصا شديدا فى مياه الشرب ، ونقصا مؤقتا فى الطعام أثناء حصارهم لبيت المقدس فانه يمكن القول ان أسوأ المراحل قد انتهت •

ومن المتعذر البدء في تقييم الآثار المادية على الصليبيين خلال ثلاث سنوات من الضغوط النفسية والأعصاب المشدودة ، وتميزت سنتان منها بالحرمان الحقيقى ، غير أن أكثر النتائج وضوحا تمثلت فى ارتفاع معدل الوفيات ، فقد توفيت كل حاشية آسقف فولينو Foligno ، وتركته وحيدا فى الأرض المقدسة • ويبدو أن الموت جوعا كان أمرا شائعا فى أنطاكية بين الفرسان والفقراء على حد سواء • وتفشى المرض بين رجال الحملة الصليبية الأولى فأثر على الأغنياء والفقراء سواء بسواء • أما ريموند السانت جيلى Raymond of St Gilles الذى كان متقدما في العمر ، فقد أصيب مرتين بمرض خطير • وربما كان ستيفن البلوى Stephen of Blois مريضا وقت فراره من أنطاكية • وعاد جي تروسو Guy Trousseau الى أوربا منهوك القوى ، ووصل هيو الشومونتي Hugh of Chaumont الى بلده مريضا • ومن المرجح أن التيفوئيد كان سببا فى موت أدهيمار فى أول أغسطس من عام ١٠٩٨م ، كما أن الخوف من المرض عمل على تشتيت شمل القادة الآخرين • ويمكن التعرف على مدى تأثيرات المرض على القوى البشرية من خطاب كتبه أنسيلم الريبمونيAnselm of Ribemontالى رئيس أساقفة ريمز Rheims فى نوفمبر ١٠٩٧م ، قبل بداية الفترات العصيبة التى مر بها الصليبيون • حيث طلب أنسيلم الصلاة من أجل أرواح ثلاثة عشر رجلا ماتوا بسبب المرض • ونحن لا نعرف القاسم المشترك الذى كان يربط بينهم فقد كانوا اما أعضاء فى جماعة أنسيلم ـ اذ كان أحدهم قسيسا

لديه ـ أو أنهم كانوا معروفين لرئيس الأساقفة • وقتل سبعة منهم فى الحرب وستة ماتوا من المرض . وبذلك يتضح لنا أن حوالى نصف هذه المجموعة لم تمت بسبب الحرب • ولابد أن الجوع وعدم توافر الأغطية المناسبة فى شتاء عامى ١٠٩٧ ـ ١٠٩٨م ، والبيئة غير الصحية فى المعسكر ثم فى أنطاكية نفسها ، كل ذلك عمل على تزايد حدة المرض واستفحاله • وربما ظهرت صلة بين الجوع وسوء الصحة فى كتاب بطرس بارثولوميو Peter Bartholomew الذى حكى فيه عن خبراته • ففى شهر فبراير ١٠٩٨م مرض ثم بدأ يفقد قدرته على الابصار • وربما كان فقد بصره أحد الأعراض المرضية الناتجة عن قلة الطعام ، غير انه نسب سبب مرضه الى عقاب الرب الذى أنزله به لعدم اطاعته لتعليمات القديس أندرو St Andrew التى اقتضت نقل رسالته لقادة الحملة الصليبية • وبرر سبب عدم تنفيذه لتلك الأوامر بقوله بأنه كان يشعر بالخجل من مفاتحتهم فى هذا الأمر ، وهو على هذه الحالة من الفقر ، خشية أن يظنوا أنه رجل جائع جاءهم بروايات مصطنعة للحصول على الطعام •

وكانت هناك أيضا حالة من الفقر والفوضى المالية • فقد عانت أنطاكية نقصا حادا فى النقد • حيث ان الفقراء بثيابهم الرثة وأسلحتهم التى يعلوها الصدأ هم الذين عانوا وكابدوا ، وكانوا مصدر قلق للقادة الصليبيين ، وشجع أدهيمار اللوبى Adhemar of Le Puy ميسورى الحال على مساعدة أولئك الفقراء ، وجرت العادة على منح المساعدات التى كثيرا ما ارتبطت بالصيام وأعمال التوبة عن الخطايا،

للفقــراء ، » وعنــد مســاعدة الفقراء لم يكن الصليبيون يعتمدون فى بداية الأمر على غنائم الحرب ، بل على أموالهم الخاصة • ولكن هذه الأنشطة لم تكن مستمرة بل متقطعة ، واستبدلت بها أنشطة أخرى • وبعد معركة أنطاكية ، حصل الصليبيون على غنائم كثيرة ، فقرر قادتهم تجنيد كل الفقراء القادرين على العمل فى خدمتهم مقابل منحهم أجورا • وفى مناسبتين حاول ريموند السانت جيلى Raymond of St Gilles تنظيم جماعات مهمتها الهجوم على المسلمين والاستيلاء عــلى ما معهم لمساعدة فقراء الصليبيين • وتقرر فى ربيع ١٠٩٩م فى الرقة اقامة صندوق مالى من العشور tithes التى تجمع عن الغنائم ، ويذهب نصف هذا الى رجال الكهنوت والنصف الآخر الى بطرس الناسك الذى تولى مسئولية الاشراف عــلى أحوال الفقراء •

غير أنه لم يكن الفقراء وحــدهم هم الذين تعرضــوا للمعاناة فقد مات بعض الفرسان جوعا • واضطر البعض الآخر لبيع أسلحتهم وأصبحوا من جنود المشاة • وكان عــلى جودفرى البويونى Godfrey of Bouillon أن يقدم الأطعمة الى اثنين من الفرسان المشهورين الا انهما كانا فى حاجة ماسة للمال وهما قريبه وتابعــه الاقطاعى ، وكان الأول هنرى الأشــــاوى Henry of Ascha والثانى الكونت هارتمان من دلينجن ــ كيوبورج Count Hartmann of Dillingen-Kybourg الذى ورد ذكره من قبل وهو يضطهد اليهود • وكانت هناك حركة تنقلات بين رجال الحملة الصليبية وكان الأفراد الأقل شأنا يغيرون ولاءهم من شخص لآخر • وبقدوم ربيع ١٠٩٨م

تزايد نشاط تلك الحركة عندما فرضت التزامات على القادة الصليبيين بأن يعمل أتباعهم من الصليبيين فى خدمتهم مقابل أجور فقربوا بعض أولئك الأتباع اليهم ، وفى الوقت نفسه ضموا رجالا جددا الى حاشيتهم • وفى التاسع والعشرين من مارس كتب ستيفن البلوى Stephen of Blois إلى زوجته قائلا :

« كان من الممكن أن يهلك كثير من الفرنسيين جوعا لولا رحمة الله ومساعدتنا لهم بالمال » • وكذلك فعل جودفرى البويونى ، وروبرت الفلمنكى الشيء نفسه • وليس غريبا أن بعض قادة الصليبيين أنفسهم كانوا يعانون أحيانا من نقص المال ، بيد أنهم أقاموا صندوقا ماليا عاما لتوزيع أعباء نقص المال بينهم ، فعندما شيدوا حصنا جديدا للحصار وهو حصن لاماهوميرى La Mehomerie فى مارس ١٠٩٨م، حاول بعضهم أن يقوم بحمايته للاستفادة من المبالغ المخصصة للدفاع عنه ، كما ورد أن المهندسين حصلوا على أجورهم قبل اعداد الهجوم على بيت المقدس • وفى يناير ١٠٩٨م كان بوهيموند يهدد بمغادرة أنطاكية لأنه لم يستطع رؤية رجاله وخيوله وهم يموتون جوعا ، كما أنه ليس غنيا وليست لديه المصادر المالية للانفاق على حصار لفترة طويلة • وقد نفدت أموال كل من روبرت الفلاندرى وجودفرى البويونى فى الصيف التالى [١٠٩٨م] ، بعد أن اضطرا الى الانفاق على فرسانهم • وكان عليهما أن يتوسلا الى غيرهما للحصول على خيول قبل معركة أنطاكية كما رأينا • وأنقذ بولدوين أخاه جودفرى حيث أرسل المال والخيول من الرها الى جميع القادة والى أخيه بوجه خاص حيث أرسل اليه العوائد الوافرة للأراضى الزراعية الملحقة بقلعة تل باشر • ولابد أن هذا

المصدر للثروة قد ساعد على اختياره حاكما لبيت المقدس اذ كان قادرا على تجميع الأتباع والأنصار من حوله بشكل ملحوظ .

ولا يصح الافتراض بأن الجميع قد عانوا بصورة متساوية . واستغل البعض محنة الآخرين الذين يئسوا من مجرد الحصول على لقمة العيش ، فتمكنوا من جمع الثروة باستغلال هذه المحنة . وكان هناك أيضا بعض الأثرياء من الصليبيين الذين استطاعوا الاحتفاظ بكل ثرواتهم . وفى التاسع والعشرين من مارس ١٠٩٨م صرح ستيفن البلوى Stephen of Blois بأنه سيضاعف الأموال التى كان قد أحضرها معه من فرنسا وان كان قد ربط بين مضاعفة أمواله وبين اختياره قائدا عاما للصليبيين . وظل ريموند السانت جيلى أغنى رجل بين الصليبيين على السواء . وظل عدد الفرسان التابعين له يفوق ما لدى أى قائد صليبى آخر ، واستطاع أن يدفع لهم أجورهم . ولهذا السبب تولى حراسة حصن لا ماهوميرى La Mahomerie . وعندما تحمل تنكرد مهمة محاصرة الجانب الغربى عند حصار الصليبيين لأنطاكية ، منذ أوائل أبريل ١٠٩٨م قال انه لا يستطيع تحمل هذا العبء دون حصوله على الأموال نظير ذلك ــ ربما كان يقصد دفع أجور فرسانه ــ لذلك أعطاه ريموند أموالا أكثر من أى رجل آخر . وكان ريموند قد أعطى جودفرى البويونى جوادا لتمكينه من خوض غمار معركة أنطاكية ، ثم أعطاه جوادا آخر ، بعد عدة أشهر كهدية بعد تسوية نزاع بينهما . وفى يناير ١٠٩٩م كان

ريموند قادرا على تقديم مبالغ ضخمة من المال الى القادة الآخرين شريطة أن يدخلوا فى خدمته لمواصلة الزحف على بيت المقدس ، واثناء حصار بيت المقدس دفع بمفرده الأموال الى الفنيين التابعين له دون الاستعانة بأموال الخزانة العامة • وليس من الواضح لنا مصدر أمواله ولكن أتباعه كانوا أكثر تنظيما من الآخرين • وعند أنطاكية ، كان يبدو أن فرقة فرسان بروفنسال Provencal كانت تتناول ما لذ وطاب من الطعام ، ولذلك استشهد أحد الكتاب بمثل سائر يقول : « يعيش الفرنجة من أجل الحرب أما أهالى بروفنسال فمن أجل بطونهم » • وربما استفاد ريموند من الاعانات المالية التى قدمتها الامبراطورية البيزنطية للصليبيين • وربما كان مال الكنيسة تحت تصرفه بعد موت أدهيمار ، وازدياد أعداد رفاق أدهيمار • وربما استطاعت بعض الشخصيات الأقل منزلة تحقيق ثروة زهيدة واستخدموها فى تكوين أتباع وأنصار لهم ، فعلى سبيل المثال فان ريموند بيليه ليموزين لورد آليه Raymond Pilet Limousin Lord of Alais ، والذى كان ضمن أتباع وأنصار ريموند السانت جيلى ، لابد أنه قد حصل على غنيمة ثمينة بعد معركة أنطاكية لأنه بعد ذلك بوقت قصير وعندما أعلن القادة الصليبيون عن رغبتهم فى أن يتولى كل واحد منهم تعيين الفقراء فى تبعيتهم ، استطاع ريموند المذكور أن يجند فى خدمته كثيرا من الفرسان والمشاة وقادهم فى حملة حربية الى تل ميناس ، ومعرة النعمان • ومنذ ذلك الحين لعب ريموند دورا مهما كنائب

قائد • وبالطبع فان تزايد الثروة فجأة قد ساعد على تفاقم التضخم المالى •

وفي هذه الظروف لم يكن آمرا مستغربا ان يصاب الصليبيون بالخوف ، ففي أحيان كثيرة كان الرعب يشل حركتهم دون أن يعرفوا هم علة ذلك • وفى الاسبوع الثانى من شهر اكتوبر عام ١٠٩٧م ، انهارت الروح المعنوية لدى الفرسان أثناء عبورهم سلسلة جبال واقعة بين منطقتى جوكسون Goksun ، ومرعش ، حين رأوا الممرات شديدة الانحدار التى كان عليهم اجتيازها وعرض البعض منهم بيع دروعهم بأى ثمن ، فى حين تركها البعض الآخر لتجنب حملها أو ارتدائها • وفقد كثيرون منهم دوابهم التى كانت تحمل أمتعتهم آنذاك ، وفر كثير من الجنود ، فلم يشتركوا في القتال أثناء حصار أنطاكية • وكان الخوف من الموت جوعا هو الذى دفع الكثيرين منهم الى الفرار من المعركة • وأثناء حصار الصليبيين لأنطاكية وصلت قوات القائد الاسلامى كربوغا لنجدة المدينة ، فاستبد الرعب بقلوب الصليبيين ، حتى ان فكرة الهرب الجماعي راودت عقول كثيرين منهم ، فاضطر كل من بوهيموند وادهيمار، الى اغلاق أبواب المدينة ليلتى ١٠ و ١١ يونيو ١٠٩٨ م • وتجدر الاشارة الى آن كثيرا من المؤرخين الأوربيين الذين كتبوا عن تلك الحوادث التاريخية ، وصموا حركات الفرار من المعركة بالجبن والعار • ولكننا لا ينبغى أن ننسى أن أولئك المؤرخين كانوا يسطرون التاريخ وهم يعيشون في دعة ورفاهية بعيدا عن ميادين القتال • وعلى الجانب الآخر نجد أن المؤرخين الذين شاركوا بالفعل في ميادين القتال ، عالجوا

موضوع الهرب من صفوف القتال بشىء من الرأفة واللين ، والتماس العذر لاخوانهم الفارين الذين تعرضوا لضغوط كثيرة · وعاد ستيفن البلوى Stephen of Blois ليكون قائدا للحملة الصليبية سنة ١١٠١م ، كما أن بطرس الناسك أعيد الى صفوف المعركة بعد أن حاول الهرب على نحو مشين، وأرسل سفيرا الى القائد الاسلامى كربوغا بعد ذلك بفترة قصيرة ، وكان خطيبا مفوها أثناء المسيرة الضخمة التى اتجهت الى بيت المقدس قبل الاستيلاء عليها وأحد المسئولين عن تنظيم صلوات الشفاعة فى المدينة المقدسة أثناء معركة عسقلان · أما وليم النجار William the Carpenter الذى كان قد شارك بطرس الهروب ، وتعرض للتوبيخ والتعنيف المرير على يد بوهيموند ـ كانت هناك حادثة مماثلة أثناء الحروب الاسبانية حين أطلق ساقيه للريح ـ فقد استقر مع بوهيموند فى أنطاكية · كما أن رالف الفونتنى Ralph of Fontenay فى أنجو Anjou الذى كان قد هرب مع جماعة من الأنجويين Angeuins من أنطاكية ـ عاد ثانية للمشاركة فى الحملة الصليبية ، واستقر فى فلسطين ثم صار فيما بعد له أملاك وأراض فى المناطق المحيطة بمدينة بيت المقدس وله اقطاعه بين بيت لحم ، والخليل « حبرون » Hebron · ان قبول الصليبيين للفارين من ميدان المعركة ، والانضمام اليهم مرة أخرى ، والغضب الذى صبه أولئك الصليبيون على أولئك الذين بقوا فى أوربا ولم يشاءوا الاشتراك فى الحملات الصليبية ، يوحى بالتفاهم والمشاعر المتبادلة بين الفريقين فقد كان الفريقان يشعران بعدم الأمان ·

وليس مستغربا في مثل تلك البيئة الغريبة أن يفكر الصليبيون فى أوطانهم باستمرار • وتضمنت الرسالتان اللتان بعث آنسيلم الريبموننتي Anselm of Ribemont بهما الى رئيس أساقفة ريمز Rheims التماسات يطلب فيها منه حمايته لاراضيه ، فقال :

أولا [كتب رسالته الأولى فى نوفمبر سنة ١٠٩٧م] نذكرك ونتوسل اليك باسم الرب يسوع بأن ترعى ••• طبقا للواجب الكهنوتي والبابوى الماثل فيك ••• أرضنا ، حتى يستتب الأمن والسلام مع وجهاء القوم ، ويعمل بقية من هم دونهم رتبة على أداء واجباتهم فى سلام ، ويكرسون أنفسهم لخدمة الرب • والآن [كتب رسالته الثانية فى يوليو ١٠٩٨م] نتوسل اليك بأن تحافظ على السلام فى أرضنا ، وتحمى الكنائس والفقراء من استبداد الطغاة •

وفى التاسع والعشرين من مارس ١٠٩٨م ، كتب ستيفن البلوى رسالة الى زوجته يأمرها فيها : (بأن تتصرف بحكمة ، وتدير شئون الأرض الزراعية ، وأن تعامل الأولاد والأتباع الاقطاعيين بكل أمانة) • واذا استثنينا الكتابة للأهل والأصدقاء ، فقد استعان الصليبيون بوسائل أخرى للتعبير عن حنينهم للأوطان • فقد أرسل روبرت الفلاندرى Robert of Flanders آثارا مقدسة كان قد بعث بها من جنوب ايطاليا الى وطنه ، وأوصى بأن ترسل تلك الآثار على وجه الخصوص الى دير واتن Watten الذى شيده والده • وعندما قامت الحرب الصليبية ظل ريموند السانت جيلى Raymond of St Gilles ملتزما باقامة الحفل الدينى

الخـاص بالقـديس ايمـان St Faith ، الذي يوجـد ضريحـه في كونيـو Conyues الواقعة ضمن حدود أراضيه الاقطاعية ، وعندما مرض ريمـوند هـذا في أغسطس ١٠٩٧م ظهر القديس جيل St Gilles – الذي كان ريموند حريصا على اقامة الاحتفالات الدينية له قبل الذهاب مع الحملة الصليبية الأولى – لأحد الرجال الساكسونيين وكان برتبة كونت بالجيش ، وأكد له أن ريموند لن يموت هـذه المرة ، وفي أبريل ١٠٩٩م ظهـر له القـديس بطـرس بارثولوميو Bartholomew في الرؤيا وأبلغـه أنه يجب عليه أن ينقل الحربة المقدسة the Holy Lance الى جنـوب فرنسا ، ويبنى لها كنيسـة تحفظ بهـا في أمان في مكان يطلق عليه Montjoie مونتيجوا ، على بعد خمسـة فراسخ من كاتدرائية القديس تروفيموس St Trophimus بمدينـة آرل Arles لأن القـديس بطرس كان قد أرسـل اليهـا « تلميذه » تروفيموس . وكان التلميذ تروفيموس من أهل مدينة أفسس ، وأحد أتباع الرسول بولس ، وكان يقال انه كان أول أسقف لمدينة آرل Arles . ومن الطبيعي أن يخطر الوطن على بال الصليبيين وهم يحتضرون ، فقد أرسل ريو اللوهياكي Riou of Lohoac آثارا مقدسة الى كنيسة القديس المخلص St Saviour في لوهيك ، وهو على فراش الموت . وكان آخـر اهتمـام أبداه برنارد لوبيـل Bernard Le Baile هـو تقـديم هبـة الى ديره المحلي في مدينة أوري Aureil .

ويتضح لنا أن الحروب الصليبية قد فرضت ضغوطا هائلة على من اشتركوا فيها • ففي هذه البيئة الغريبة عليهم، لم يقتصر الأمر على أهوال الحرب فحسب ، بل امتدت معاناتهم لتشمل التضخم المالى والفقر والمرض والموت ، فكثيرا ما كانوا يعانون الخوف والحنين للوطن • وعانى فرسانهم من الشعور بالذل والهوان بعد أن فقدوا مكانتهم اثر ضياع أسلحتهم وخيولهم • وكان معظم القادة يعانون من متاعب مالية جمة • ولذلك فليس من الصعب فهم الشعور الذى استبد بهم للحصول على الخيول والرغبة فى جمع الغنائم •

أما رجال الكنيسة فقد صوروا الحروب الصليبية فى كتاباتهم ، بعد مرور حقبة من الزمن ، بأنها عمل تعاونى، وديمقراطى لا مثيل له ، بل وأنها كانت مشروعا اشترك فيه الجميع ، وتحملوا أعباءه ، دون أن يكون لهم قائد عام، وكان الروح القدس والرغبة فى الخلاص يحثانهما على المضى قدما ، فقالوا : « وما كان لأحد أن يقوم بعمل يحقق المنفعة له ، الا اذا أجمعت مشورة الحكماء منهم على ضرورة القيام به ، وأقره الجميع ، ذلك لأن الروح القدس هو الذى يدفعهم للقيام بجميع الأعمال العظيمة ويوحد صفوفهم » •

ومن البديهى أن هذا الوصف كان غير حقيقى • ففى الحقيقة شعر الصليبيون والمرتبطون بهم بحاجتهم الطبيعية لوجود قائد عام • وتمت ثلاث محاولات على الأقل لايجاد قائد عام • وكانت المحاولة الأولى فى القسطنطينية فى ربيع ١٠٩٧م ، فقد تباحث القادة فى المدينة وهم ، بوهيموند

التارانتوى Bohemond of Taranto ، وجودفرى البـويونى God frey of Bouillon وروبرت الفلاندرى Robert of Flanders مع الامبراطور الكسـيوس Alexius ، بشـأن توليه المهمـة الصليبية وقيادة الحملة الصليبية الأولى كقائد وامبراطور dux et imperator • وليس واضحا من الذى اتخـذ الخطـوة التمهيدية فى تلك المباحثات ولابد أن آية استجابة للخطـة من جانب الامبراطور كانت سياسية • وعندما حضر ريموند السانت جيلى Raymond of St Gilles ، وجعل تولى الامبراطور الكسـيوس Alexius القيادة العليا للجيش الصليبي مشروطا باعتراف الامبراطور بالخضوع لسيطرة ريموند ، اعتـذر الامبراطور عن تولى القيادة العليا للجيش وقال ان هنـاك أسبابا تستدعى وجوده فى الوطن • وكانت المحاولة الثانية قبل التاسع والعشرين من مارس ١٠٩٨ م عندما كتب ستيفن البلوى Stephen of Blois الى زوجته يبلغها بأنه تم اختياره قائدا عاما • ونظرا لأن ستيفن هذا كان قد تولى مسئولية الصندوق العام ، وليس هناك آية اشارة عنه فى السـجل الخاص بالمباحثات السابقة على شـهر مارس بشـأن رعاية حصن لا ماهوميرى La Mahomerie الذى كان من المفروض أن يتم الانفاق عليه من هـذا الصندوق العـام ، فلابد أنه كتب لزوجته بمجرد اختياره • وذكر لنا ستيفن أنه تولى مهمة القائد ذى النفوذ والسلطان ، ولكن تدل البراهين التى تحت آيدينا أنه لم يكن لديه آى سـلطان يمارسـه ، بل ان مهمتـه انتهت بانسـحابه من انطاكية فى ٢ يونيـو سـنة ١٠٩٨م ، وعدم رجوعه اليها مرة أخرى • وتمت المحاولة

الثالثة في مؤتمر عقد في الروج The Rūj في الرابع من يناير ١٠٩٩م عندما كان ريموند السانت جيلي على استعداد لاعطاء جودفرى البولوني ، وروبرت النورماندى مبلغا قدره عشرة آلاف صوليدى Solidi ، وستة آلاف صوليدى الى روبرت الفلاندرى وخمسة آلاف صوليدى لتنكرد بالاضافة الى جوادين ، وأعطى القادة الآخرين مبالغ مناسبة • وكانت خطته ترمى الى قيام أولئك وأتباعهم بالدخول في خدمته ، حتى يمكن شن الهجوم الأخير على بيت المقدس • ولكنهم لم تكن لديهم الرغبة في الرحيل ، ولكن تنكرد قبل الأموال التي عرضت عليه • ورغم الاغراء الذي تعرض له أولئك القادة ، بعد أن عرض عليهم ريموند الأموال حيث كان يمكنهم سد احتياجات أتباعهم لو قبلوا تلك الأموال ، فانهم كانوا مستعدين للرحيل ، كما كانوا كارهين لفكرة التبعية لريموند والعمل تحت امرته •

وكان واضحا أن هناك حاجة ماسة لوجود قائد عام ، ولكن لماذا كانت فترة وجود القائد قصيرة ؟ ويمكن الاجابة على هذا السؤال على ضوء دراسة تكوين الجيش الصليبى • ويمكن تقسيم الصليبيين الى ثلاث فئات : فئة القادة The principes or Majores وفئة الطبقة الوسطى The minores or Mediocres وفئة العامة The Plebs or populus • ومن السهل معرفة من كانوا ينتمون الى طبقة أو فئة القادة ؛ اذ انهم كانوا يدرجون فى قوائم ومازال هناك أحد الخطابات الصادرة عنهم • ومن أولئك القادة أدهيمار الممثل البابوى حتى مماته ، ثم بوهيموند التارانتوى Taranto ، وجودفرى

البويونى وهيو الفرماندى Vermandrois حتى رحيله ، وريموند السانت جيلى ، وروبرت الفلاندرى ، وروبرت النورماندى ، وستيفن البلوى حتى هروبه • وليس من الصعب معرفة سبب توليهم تلك المناصب التى شغلوها . فقد كانوا من علية القوم فى غرب أوربا ، والواقع أن البابا أوربان توقع حين عقد مجمع كليرمونت أن يتولى الأمراء قيادة الجيش الصليبى • ومن الطبيعى أنهم مارسوا سلطة على الجماعات العسكرية الأخرى أثناء الشهور الأولى من تحركهم صوب مضيق البوسفور : فجيوفرى مالاتيرا Geoffrey Malaterra كاتب سيرة حياة روجر الصقلى Roger of Sicily ، أشار الى أن بوهيموند التارانتوى Bohemond of Taranto انضم للحرب الصليبية لمجرد تحقيق طموحاته فى بلاد اليونان ، وأصبح واضحا أن تظاهره بحمل الصليب أعطاه تلقائيا حق قيادة الصليبيين فى جنوب ايطاليا اذ كانوا ، « بدون قائد » • وقويت شوكة القادة بعد أن أحسن الامبراطور الكسيوس Alexius معاملتهم ، فقد كانوا أول من قدم له فروض الطاعة ، فأغدق عليهم الأموال . وعلى الرغم من تنوع مصادر ثروتهم ، فقد كانوا أكثر ثراء من بقية الصليبيين • وكانت الخزانة العامة تحت تصرفهم ، وكانت لديهم فرصة أكثر لزيادة دخولهم • وأثناء حصار أنطاكية تصرف القادة وفقا للسلطة التى خولها لهم البابا أوربان فى مجمع كليرمونت ، حين يستولون على الأراضى التى تضم الكنائس الشرقية ، وقد تأكدت هذه السلطة فى مجمع أنطاكية الذى انعقد تحت رياسة أدهيمار اللوبوى Adhemar of Le Puy ففرضوا سلطانهم على الأقاليم المجاورة .

وكان يحدوهم الأمل في الحصول على المؤن ، فاستولى بوهيموند على المنطقة القريبة من البحر غرب أنطاكية وشمالا تجاه قيليقية ، أما جودفرى البولونى ، وروبرت الفلمنكى فقد تجاوزا نهر عفرين Afrin ، وسيطرا على الطريق الرئيسي الى الرها ، والذى سيطر عليه فيما بعد شقيق جودفرى • وكانت المنطقة الخاضعة لتنكرد تقع جنوب المنطقة الخاضعة لروبرت الفلاندرى Robert of Flanders وشرق منطقة أنطاكية ، وسيطر ريموند السانت جيلى Raymond of St Gilles على منطقة روج Rug ، وسيطر روبرت النورماندى Robert of Normandy على اللاذقية • ولابد أن ريموند قد شيد أول أسقفية لاتينية فى منطقة البارة على حدود المنطقة التابعة له وفقا لقرار أوربان كما سترى فيما بعد • وكان يصاحب الأمراء عدد قليل من الأتباع الاقطاعيين والمقربين اليهم • وأبرز أولئك الأمراء الأمير جودفرى ، وبوهيموند ، وريموند • وكان لدى أولئك الأمراء جانب من القوة الأصيلة ، لهذا قيل ان حصار الصليبيين لبيت المقدس قد أصيب بالضعف على أثر غياب بوهيموند Bohemond وستيفن البلوى Stephen of Blois ، وهيو الفرماندى Hugh of Vermandois • ورغم أن شهود العيان قد أشاروا الى الأمراء بعبارة « جيش الأمراء » ، فانه من الخطأ أن نرى أولئك الأمراء وكأنهم قادة دائمون لحشد كبير من الناس • وكل ما اعتمد عليه أولئك الأمراء هم أقاربهم وأتباعهم ، كما اعتمدوا على فرسانهم الذين كانوا يحصلون على رواتب نظير خدماتهم •

ولكي ندرك ذلك لابد لنا من الرجوع الى الطبقة الوسطى minores التي شملت كبار الاقطاعيين ورؤساء القلاع وصغار الفرسان ، وقد ضمت هذه الطبقة أهم العناصر التى تألفت منها الحملات الصليبية • فعلى سبيل المثال ، فان سيدا اقطاعيا مثل أنسيلم الريبمونتي Anselm of Ribemont لم يعد نفسه ضمن القادة Princeps رغم وجود قوة تحت امرته • وكان تنكرد الذى قاد رهطا من الرجال أثناء الزحف على بيت المقدس رجلا ينتمي الى هذه الطبقة • وكذلك كان فرالد التوارى Thouars الذى قاد قوة من البواتيين Poitevin ، وجولدمير كاربنيل Galdemar Carpenel الذى كان على جانب كبير من الثراء ، وروجر البرنفيلي Roger of Barneville ، وهو فارس نورماندى تولى قيادة فرقة بصورة شبه مستقلة ، واستدعي للاشتراك في مجلس الأمراء ، نظرا لخبرته كقائد عسكرى وكمفاوض بارع • وفي يونيو سنة ١٠٩٨م ، لقى روجر مصرعه أثناء احدى الهجمات ، فترك وراءه أربعة عشر رجلا من رفاقه المتمرسين على فنون الحرب ، ودفن بسقيفة الكاتدرائية بمدينة أنطاكية • وكان المقاتلون الذين كانوا ينتمون للطبقة الوسطى يحملون بيارق الحرب الخاصة بهم ، ومن المؤكد أن تنكرد وجاستون البيارنى Gaston of Bearn ، وربما بولدوين الهينولتي Baldwin of Hainault قد فعلوا ذلك • وكان لهذه البيارق أهمية كبيرة ، فقد زحف الألمان في جيش بطرس الناسك ، وهم يحملون بيرقا خاصا بهم ، وربما كان الجنود المشاة يقسمون أنفسهم الى فرق ، وكان لكل فرقة منهم بيرق • وكانت الموجة الثانية

من الصليبيين تحمل البيارق عالية خفاقة . وفى احدى معارك القتال بمدينة أنطاكية لاحظ الأتراك عدم وجود ريموند السانت جيلى Raymond of St Gilles ، وبوهيموند ، لأن بيارقهما لم تكن موجودة ، وكان ضياع البيرق أثناء المعركة وصمة عار فى جبين المحارب ، كما كان الحال منع أدهيمار اللوبوى Adhémar of Le Puy فى المعركة في ٢٩ ديسمبر سنة ١٠٩٧م . وبعد ذلك بستة أشهر ، وأثناء معركة أنطاكية ، كان حامل البيرق الجديد حريصا على تسليم البيرق لرجل آخر قبل التأهب لخوض المعركة التى أصيب فيها اصابة قاتلة . وفى نفس المعركة ، أنقذ هيو الفرماندى Hugh of Vermandois ، حين تسلم وليم البوفيى William of Beauvais ، من يد آدو البيوجنسى Odo of Beaugency ـ حامل البيرق ـ بعد اصابته بالجراح . كما استخدمت البيارق كعلامة على الحماية ـ فقد كان المسلمون يرفعون البيارق حين يعقدون الصلح أو يستسلمون أو يريدون الأمان وعدم التعرض للهجوم . كما استخدمت البيارق كعلامة على الفتوحات وما يعقبها من سيطرة على ممتلكات الآخرين ، رغم أن رفع البيارق فى هذه الأحوال قد يؤدى الى النزاع بين الفاتحين . لذا فان امتلاك المقاتلين من الطبقة الوسطى minores لهذه البيارق يستحق وقفة منا . لم يقم المقاتلون أثناء الحصار أو عمل التشكيلات بالتفرقة بين الأمراء وأتباعهم وبين المقاتلين من الطبقة الوسطى الذين لم يكن لديهم الكثير من الأتباع ، أو ربما كانوا دون أتباع . وكان موقفهم هذا ينبع من وضعهم فى

المجتمع ، ومكانتهم كفرسان ، وثرواتهم في أحيان كثيرة • فقد بدءوا حياتهم دون الانضواء تحت لواء أى سيد من السادة الاقطاعيين ، وكانت الخدمة تحت لواء الحروب الصليبية تختلف عن الخدمة فى كنف السادة الاقطاعيين • فكل ما كان عليهم عمله للانضواء تحت لواء الحروب الصليبية هو أن يقسموا القسم المقدس وينذروا أنفسهم للعمل في سبيل الله • ولم يكن ريموند السانت جيلي Roymond of St Gilles يدلى بحقيقة قانونية حين قال ، وهو يرد على مطلب الامبراطور الكسيوس Alexius بأن يقدم له فروض الطاعة ، بأنه قد جاء لا لكى يجعل رجلا آخر سيدا عليه ، ولا لكى يقاتل نيابة عن رجل آخر ، بل قد جاء يكافح فى سبيل الله ، فقد ترك دياره وأهله من أجل نصرة الحق •

ووجدت روابط الدم والخدمات الاقطاعية أساليب للتعبير عنها على امتداد الحرب الصليبية ، ومنح الاستقلال الذى تمتعت به الطبقة الوسطى حرية تشكيل الفرق العسكرية • وكانت الفرقة تتألف من مائتين من الرجال • وجاءت الحروب الصليبية تعبيرا عن روابط الدم ، فقد كان من الطبيعى أن ينضم الأفراد الى أقاربهم ، فقد ذهب ستيفن الالبمارلى Stephen of Albemarle مع عمه روبرت النورماندى Robert of Normandy ، وكانت المجموعات المتألفة من الناس تربط نفسها بأقرب سيد اقطاعى سيرحل إلى فلسطين • كما رافق البريتونيين Bretons ، روبرت النورماندى • كما كان هناك الفرسان الذين انضموا الى قادتهم • فقد انضم بولدوين كولدرين ، من مقاطعة أندر -Indre الى فرقة

روبرت الفلاندرى ، بينما انضم ونيرتش الفلاندرى Winrich of Flanders الى جودفرى البولونى . كما انضم فريق من الفرسان الفرنسيين الى بوهيموند التارانتوى Bohemond of Taranto ، وكان المقاتلون من الطبقة المتوسطة Minores يخدمون تحت لواء أى فريق يحتاج اليهم أثناء زحف الحملة الصليبية ، أو أية مهمة قتالية أخرى . فقد خدموا مع روبرت النورماندى Robert of Normandy ، كما خدموا أيضا مع بوهيموند ، وربما مع هيو الفرماندوى Hugh of Vermandois وكان من الطبيعى أن يحول الفرسان ولاءهم اذا منيت القوة التى يخدمون بها بالكوارث، أو رحل القائد . فقد كان كلارمبولد الفندويى Clarembold of Vendeuil ودرجو النسلى Drogo of Nesle وهارتمان الدلنجنى Hartmann of Dillingen ، وتوماس المارلى ، ووليم النجار William the Carpenter يخدمون فى جيش امتش الليننجنى Emich of Leiningen . وبعد أن تشتت شمل هذا الجيش على حدود المجر ، ذهب كلارمبولد ، ودرجو ، وتوماس ، ووليم الى ايطاليا حيث انضموا الى هيو الفرماندى . وظل هارتمان مستقلا حتى أجبره الفقر على الدخول فى خدمة جودفرى البويونى Godfrey of Bouillon . وبعد رحيل هيو الفرماندى عن الحملة ، انضم درجو الى بولدوين البولونى Beldwin of Boulogne ، كما امتلك وليم اقطاعية فى مدينة أنطاكية تحت حماية بوهيموند Bohemond ، كما سافر فريدريك الزمارينى Frederich of Zimmern والفارس فولشر الشارترى



أحد الأبراج الحصينة فى سور مدينة القدس.



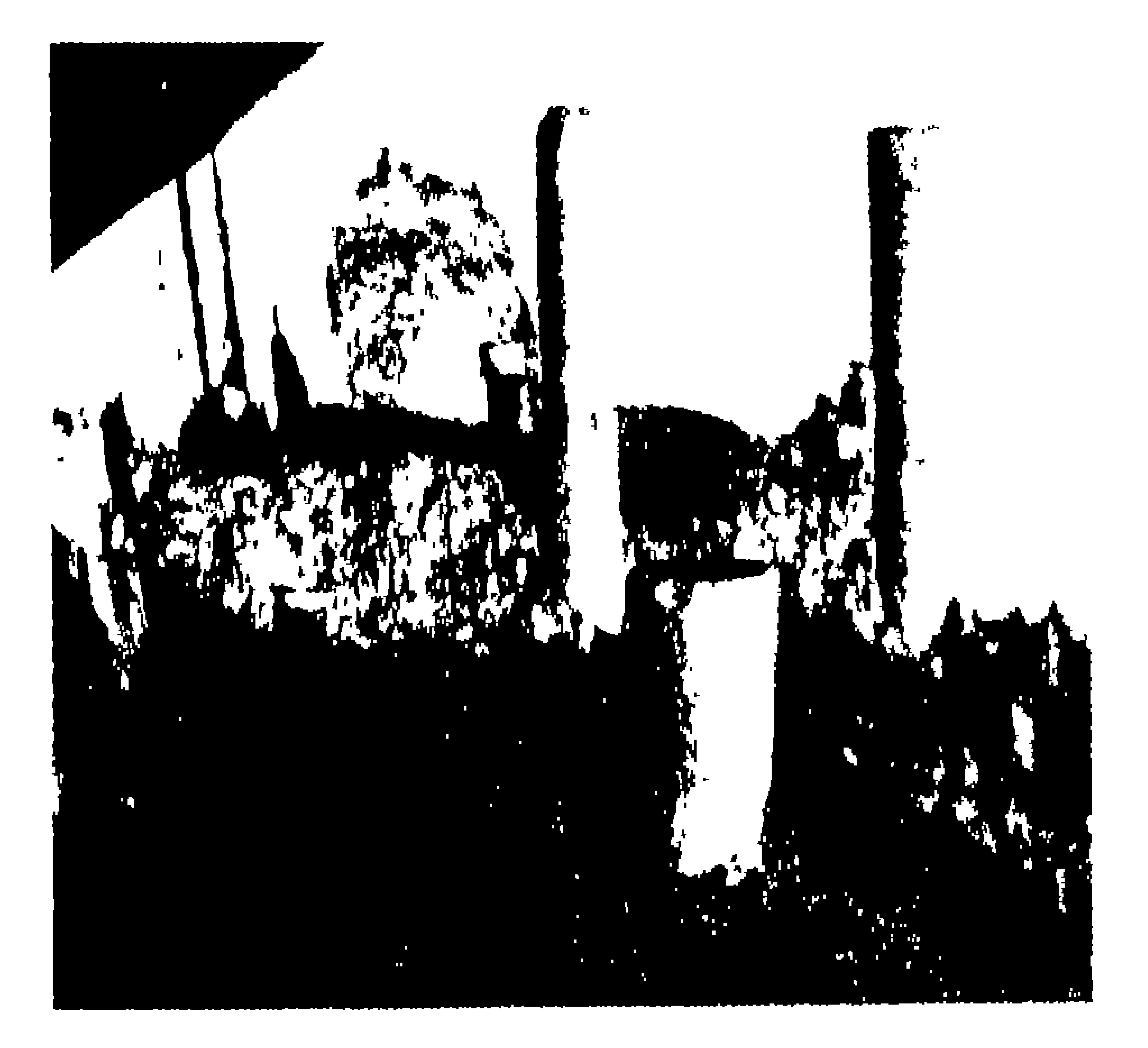
بوابة قلعة صليبية فى صحراء الأردن منقورة فى صخرة وتتصل بالقلعة عن طريق جسر



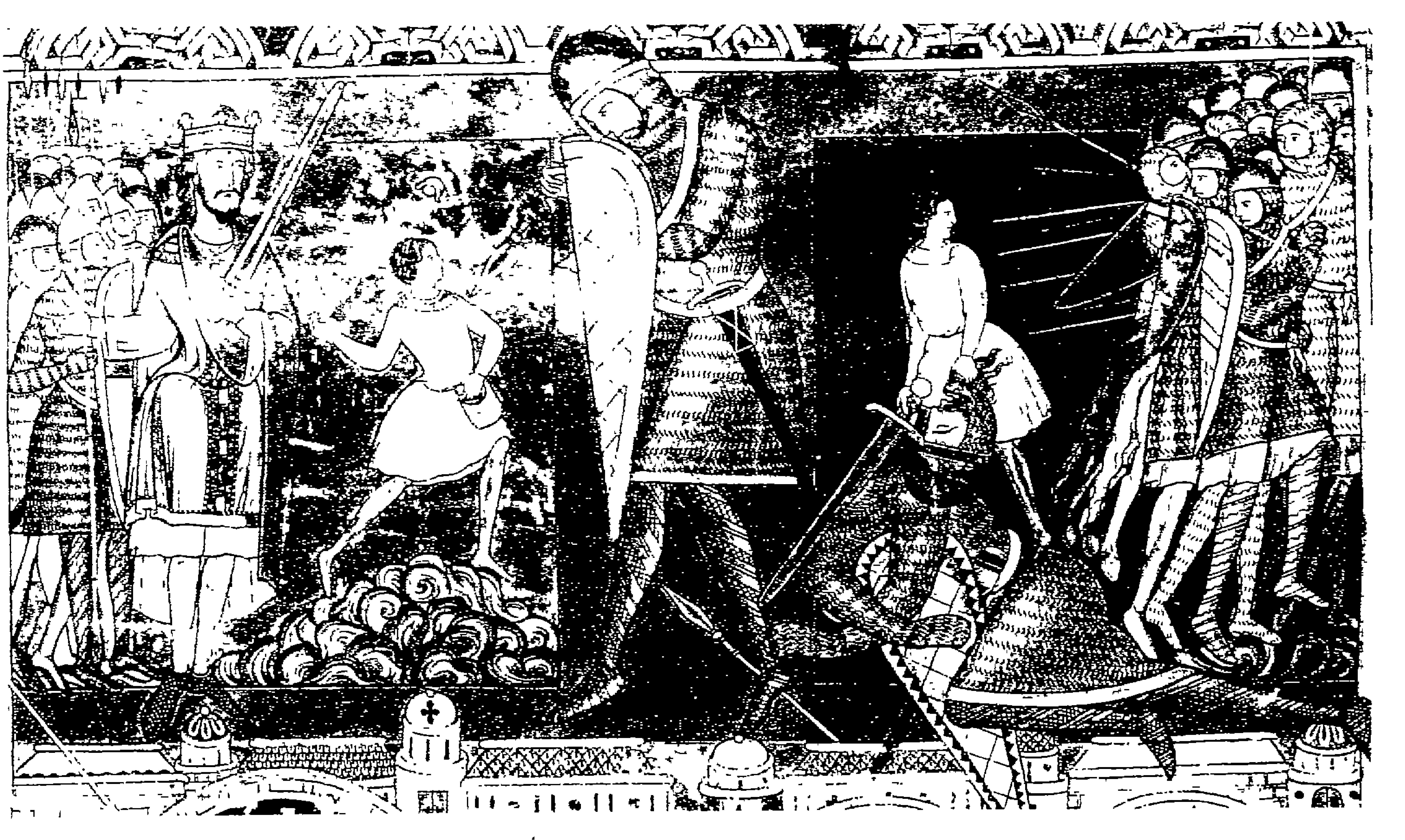
محاربان ألمانيان من القرن الثانى عشر.



تاج عمود من كاتدرائية القديس سرنان فى مدينة تولوز الفرنسية يصور شيطاناً يشد القوس المصلبة



أعمدة رومانية قديمة أعيد استخدامها لتدعيم أسوار عسقلان المطلة على البحر



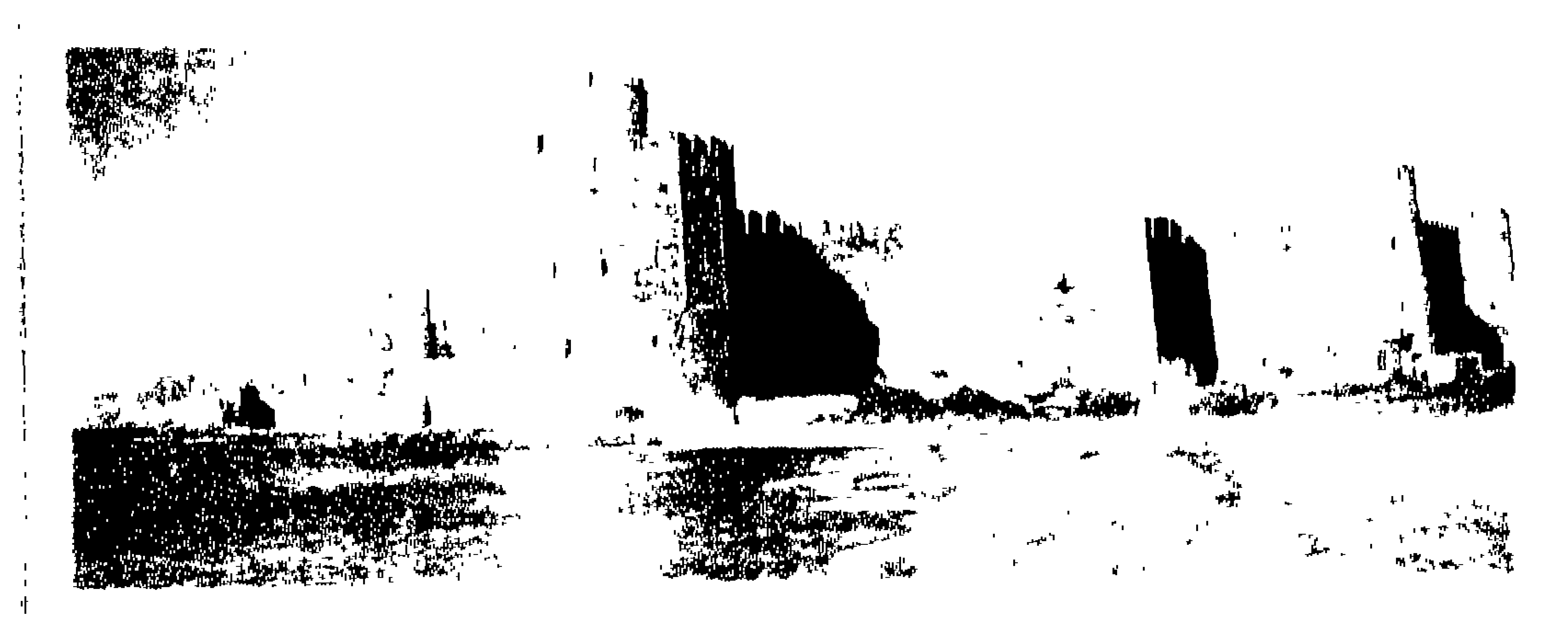
مخطوط انجليزى قديم يعود إلى عام ١١٥٠م، يصور المعركة بين داود وجوليات التى كثيراً ما استخدمها الصليبيون كرمز للحرب المقدسة



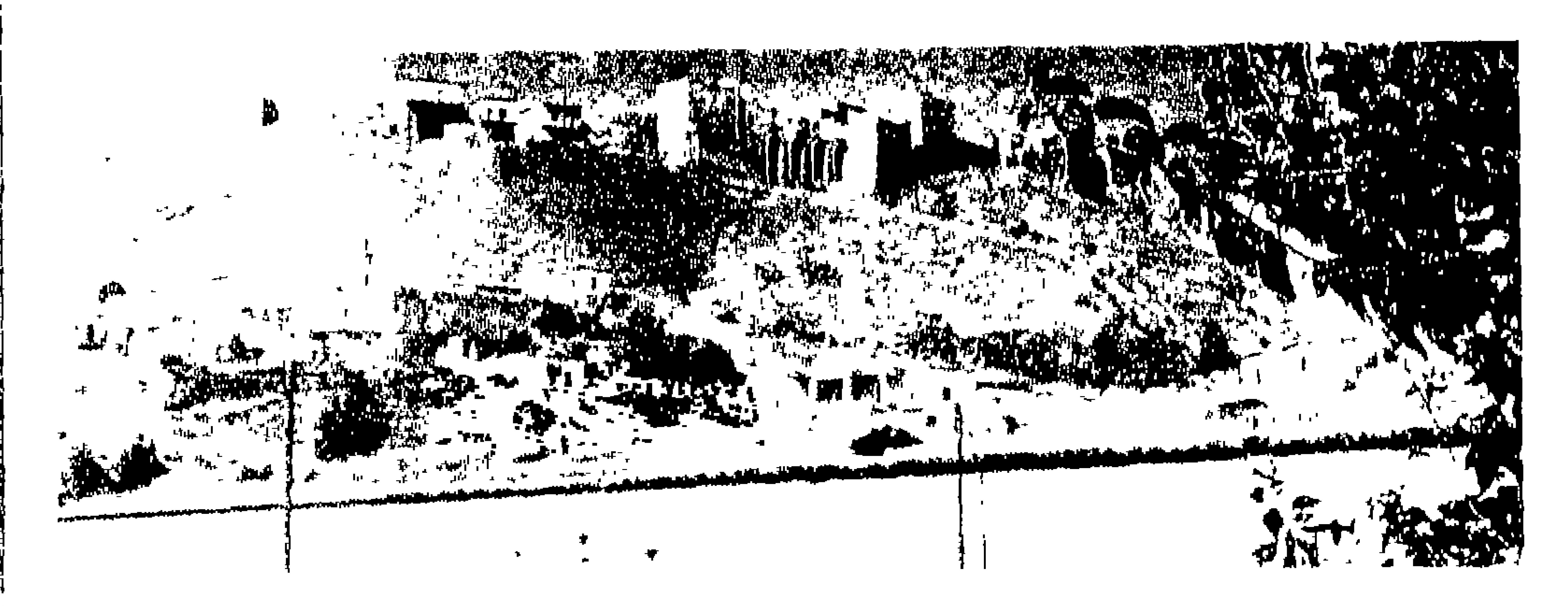
تاج عمود يعود إلى بداية القرن الثانى عشر ويصور أزياء المحاربين وأسلحتهم فى فرنسا آنذاك.



تاج عمود يقال إنه يصور أحد الرهبان المحاربين.



قلعة مماري، وهي في الأصل قلعة رومانية



قلعة مديق التي كانت تشكل الحد الجنوبي لإمارة أنطاكية



قلعة الكرك في جنوب الأردن.



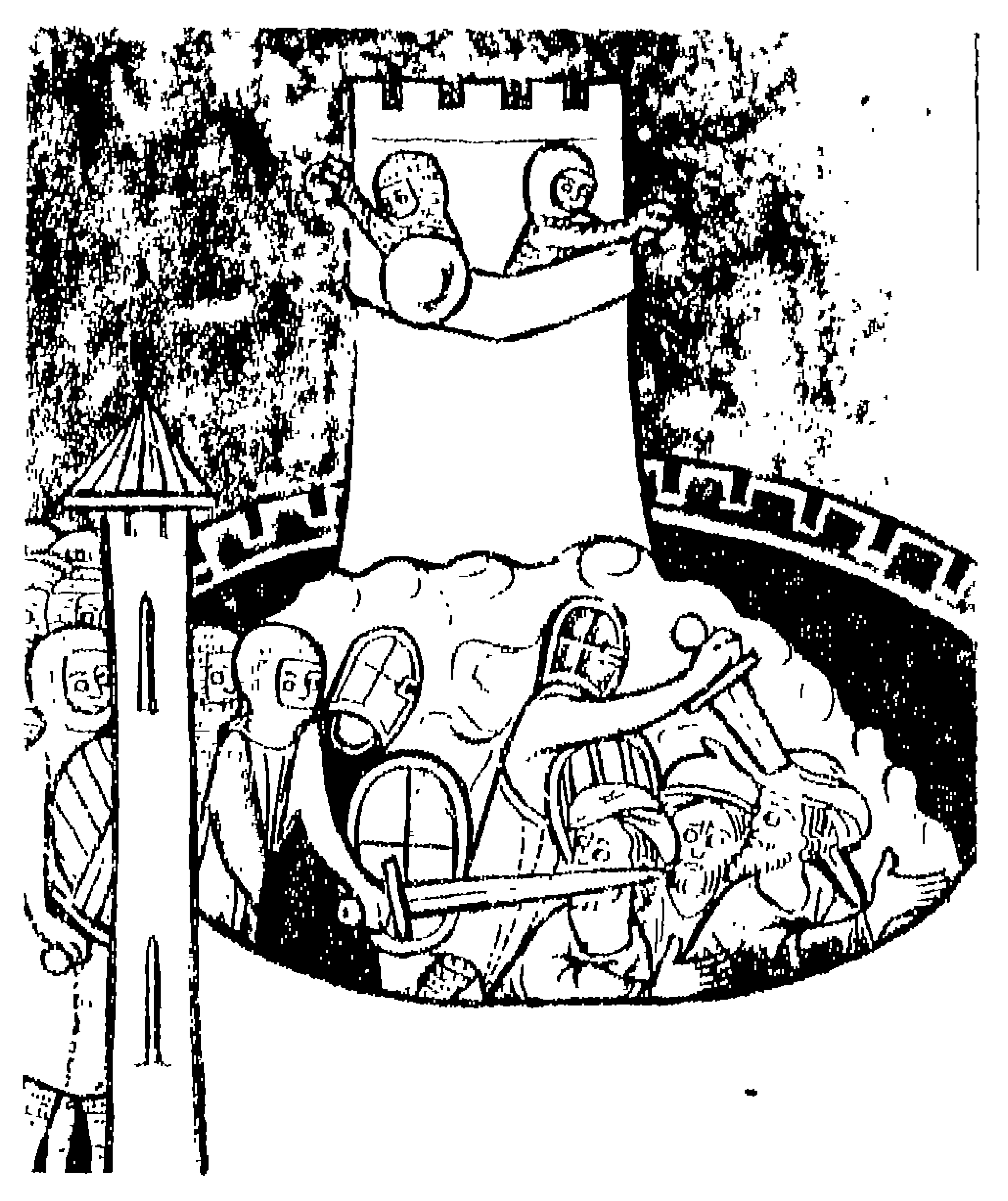
زخرفه معمارية تصور فارسا فى رداء المحاربين الفرنسيين فى منتصف القرن الثالث عشر



إحدى القلاع الصليبية المقامة على الفرات عند تقاطعه مع الطريق المؤدى إلى إمارتى الرها و أنطاكيه



نقش يصور جنديا ممسكا بترس قتال من الطراز الذي كان مستخدما في الشرق في عصر الحروب الصليبيه



مذبحة أنطاكية حيث نرى الجنود الصليبيين يفتكون بأهل المدينة (مخطوط من عكا ١٢٩٠م).



نقش يصور القبض على المسيح، لاحظ أزياء الجنود الحربية (قبرص ١٢٠٠م).



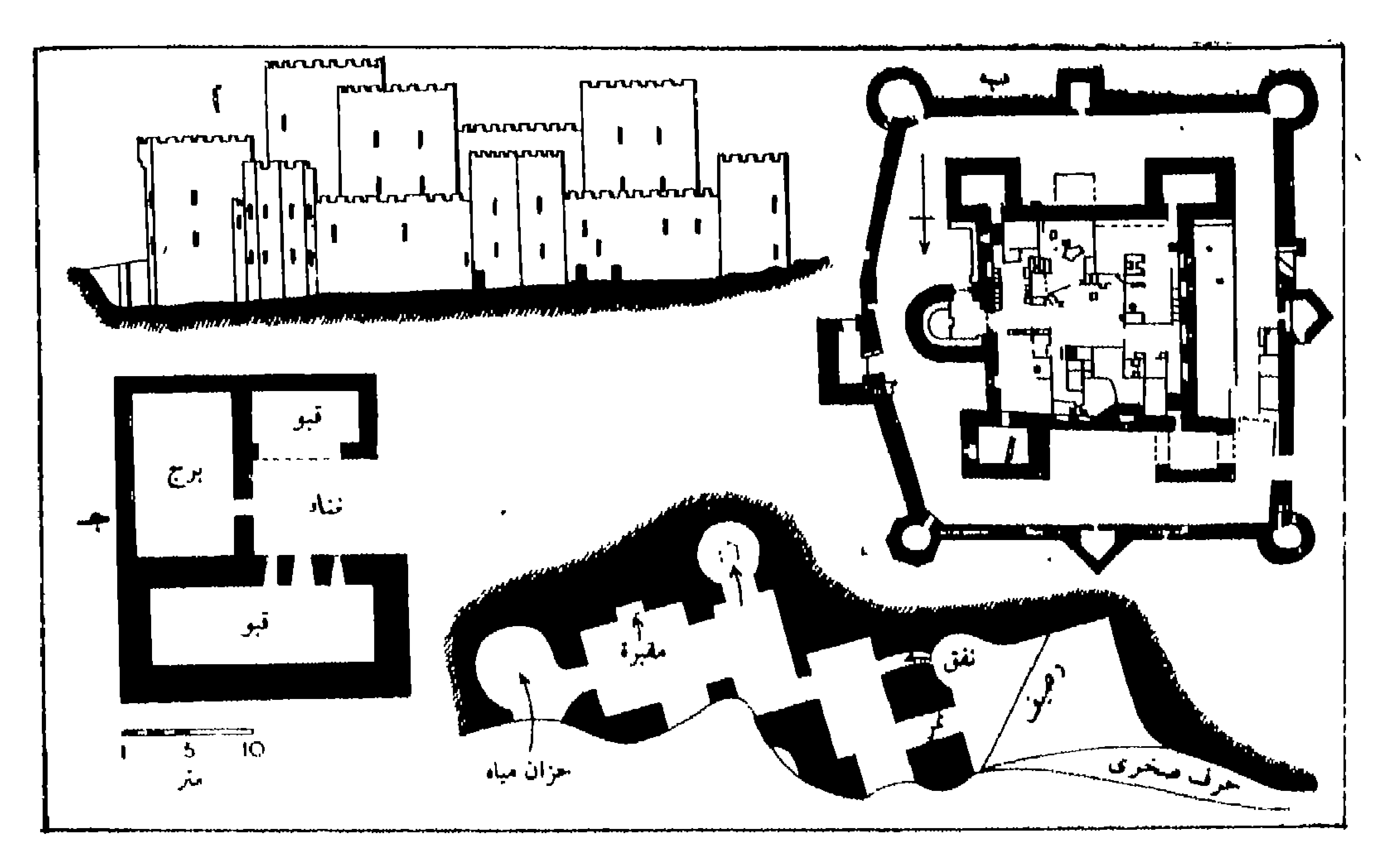
مخطوط يصور المعدات والأسلحة التي كانت مستخدمة في جيش ريتشارد قلب الأسد.



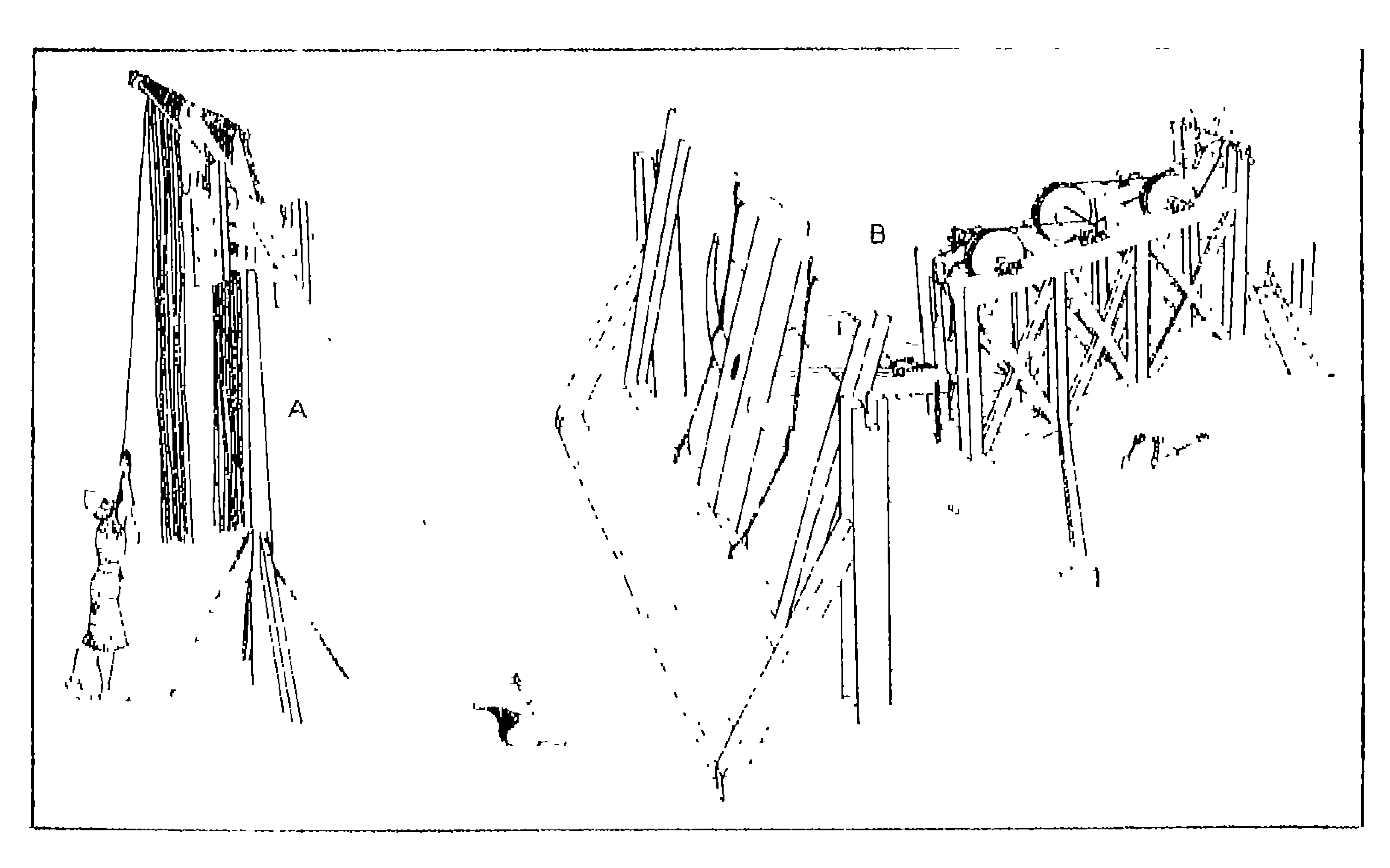
نقش يصور جنديا يرتدى زى المحاربين الأوربيين (بداية القرن الثالث عشر).



نقش يصور العدة الحربية
لأفراس الصليبيين.



(أ) رسم تخيلى لإحدى القلاع التى أسسها الفرسان الهوسبتالية تصور نظام القلعة المركزية، (ب) مسقط أفقى لها، (جـ) جزء من قلعة فوربليه فى فلسطين، (د) الجزء العلوى من قلعة عين حبيس المنقورة فى الصخر.



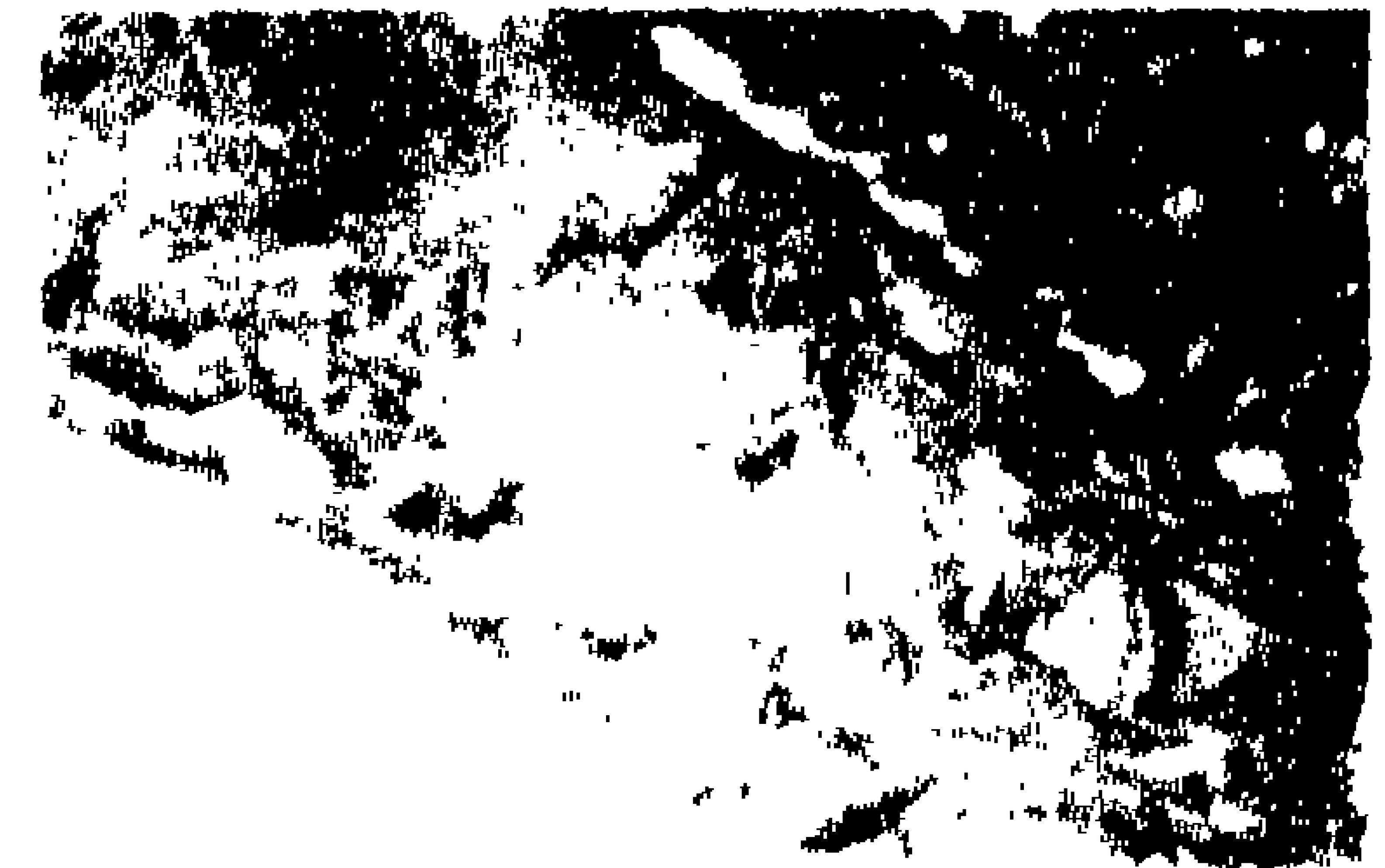
أ ــ منجنيق يستخدم فى هدم الأسوار (القرن الثانى عشر). ب ــ قوس آلى ضخم استخدمه الصليبيون.





نقش يصور فرساناً وجنود مشاة من ميليشيا مدينة فيرونا.

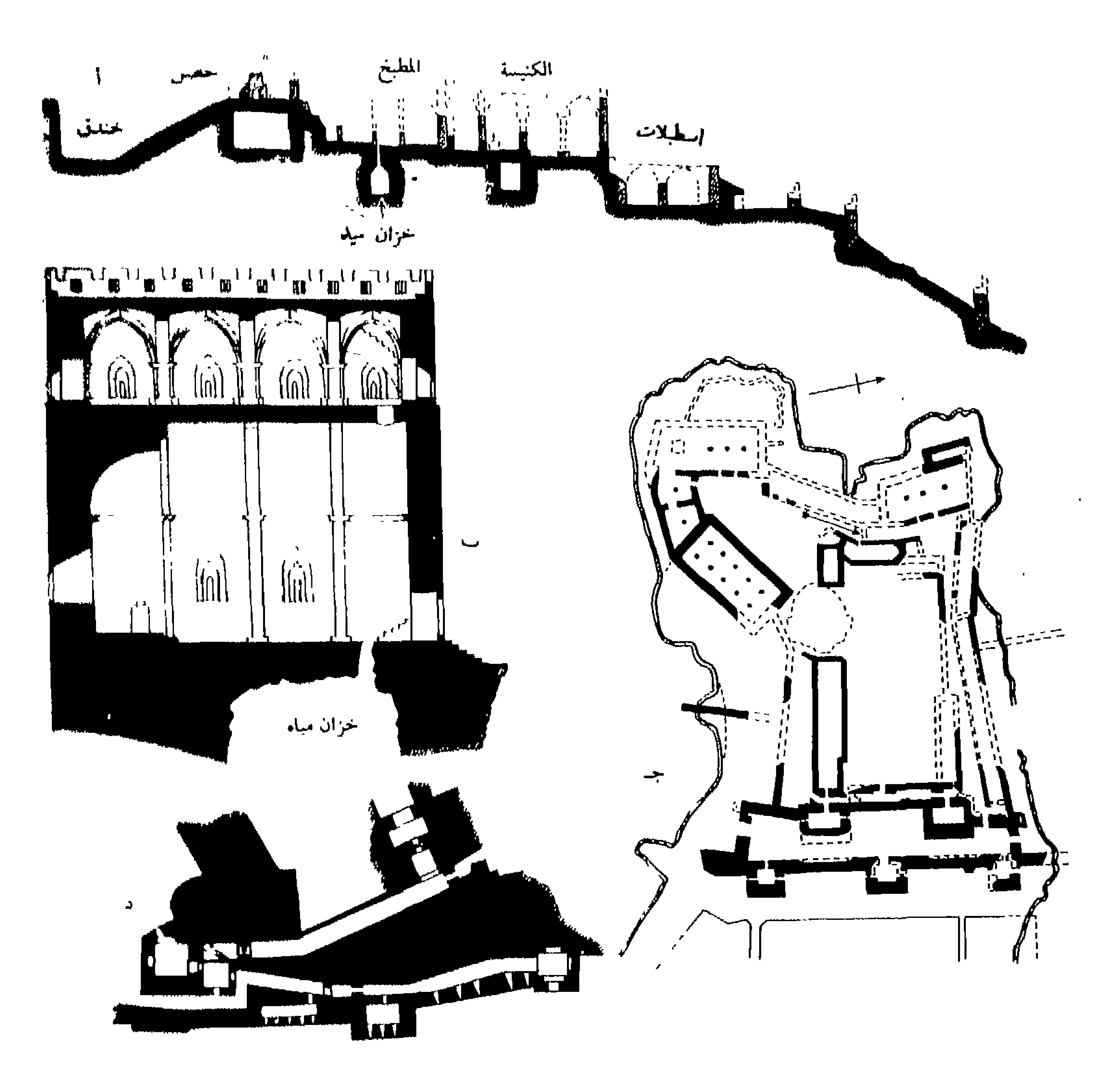




نقش يصور حصار مدينة القدس أثناء الحملة الصليبية الأولى (بداية القرن الثاني عشر).



نافذة من الزجاج المعشق يصور أحد الفرسان الصليبيين (منتصف القرن الثالث عشر).



قلعة مونفور فى الجليل (١٢٢٦ ــ ١٢٢٩).

أ) قطاع طولى فى القلعة التى أسسها فرسان المعبد.

ب) قطاع طولى فى الحصن.

ج) مسقط أفقى للقلعة الساحلية المعروفة باسم قلعة الحجاج فى جنوبى جبل الكرمل (القرن الثالث عشر).

د) مدخل قلعة الكرك فى سوريا (حالياً فى الأردن).



قلعة فرعون على جزيرة قبالة ساحل سيناء.



قلعة الكرك، القسم العلوى من الواجهة الجنوبية لمعقل القلعة، الذى أعيد بناؤه فى عصر صلاح الدين.

إحدى قلاع الاسبتارية (الهوسبتالية) فى أرمينيا.



برج جبيل الذى يعتبر من أفضل نماذج المعاقل الحربية فى العصور الوسطى.



رسم جلدى صليبى يخرج لملاقاة جيش الأمير نور الدين زنكى (١١٦٣).

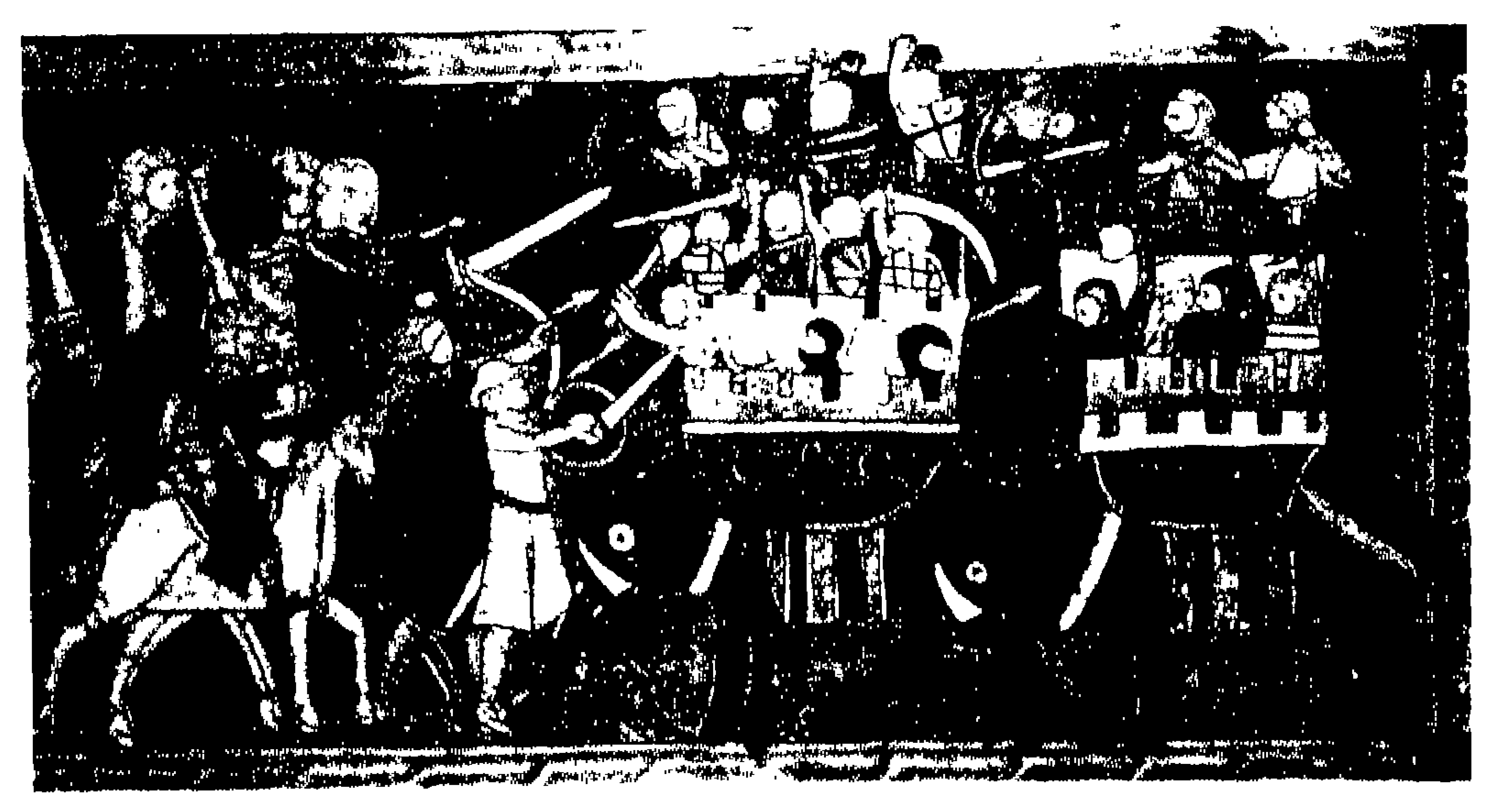


ختم ريتشارد قلب الأسد.



أسد يفتك بفارس أوروبى.





مخطوط يصور معركة بين جيش الإسكندر الأكبر وجيش هندى (عكا ١٢٨٧م) وعلى الفيل الأول نرى جنديين يلقيان بنـــوع مـــن القذائف الحارقة التى كانت مستخدمة آنذاك.



مخطوط يصور الملك نمرود وجنوده (عكا ١٢٨٦) ونرى فى الصورة خليطاً يجمع ما بين الطرز البيزنطية والغربية والإسلامية.



تاج عمود يصور مبارزة بين جنديين.



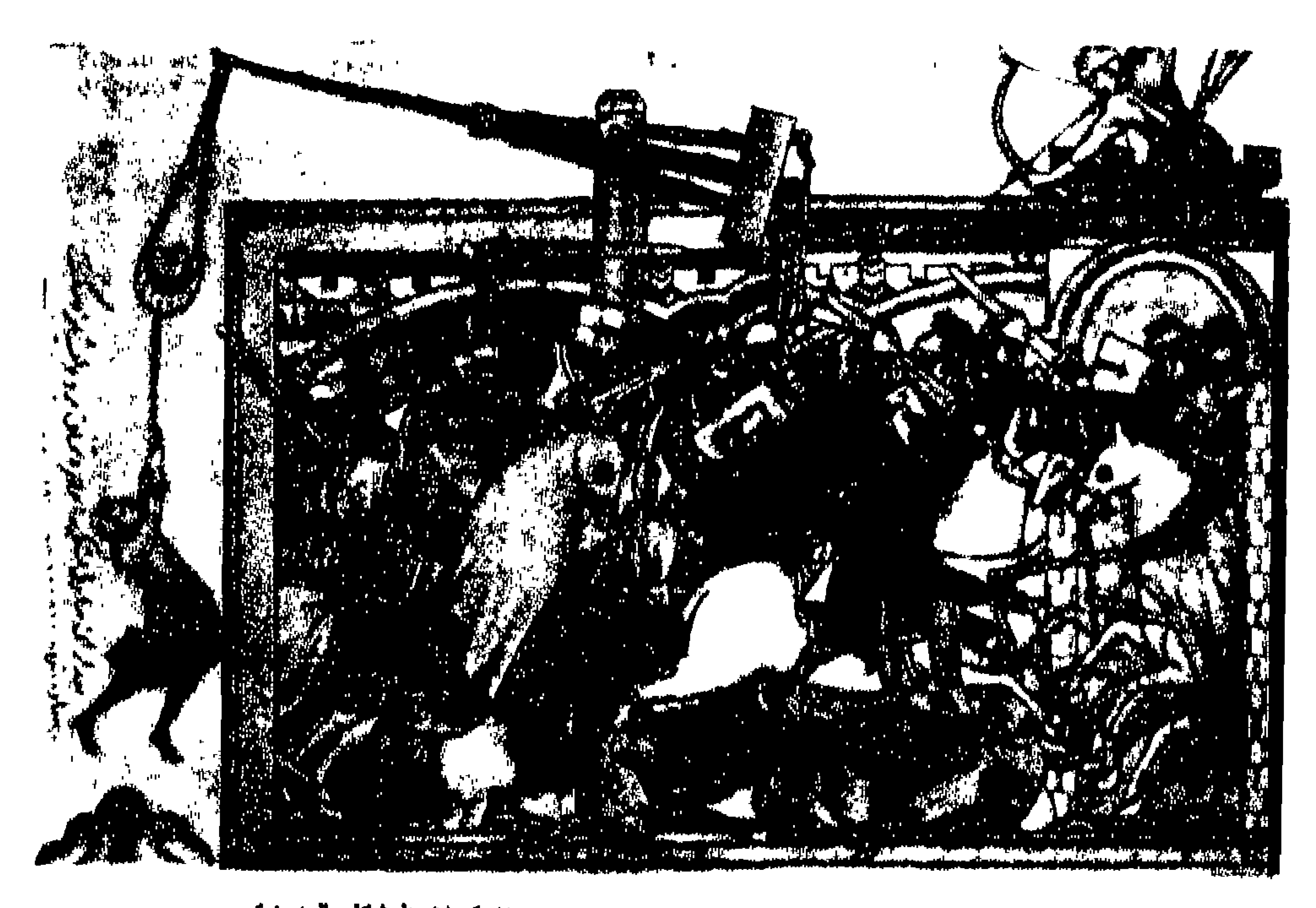
جنود ألمان يهاجمون إحدى القلاع (نهاية القرن الثاني ء



كوكبة من الفرسان الإيطاليين مسلحين بالرماح و الدروع المستديرة
و القمصان المدرعة. من مخطوطة تعود إلى عام ١٢٩١م.



مدخل كنيسة فرنسية يصور مجموعة من المحاربين يعود إلى عام ١١٨٥.



مخطوط يصور مجموعة من الفرسان الفرنسيين يهاجمون قلعة، لاحظ شكل المنجنيق.



نقش خشبي يصور محارباً إيطاليا من القرن الثاني عشر.

نقش من كنيسة القديس بارثلميوس فى ليج يصور محارباً آسيوياً من القرن الثانى عشر يلبس قميصاً مدرعاً وخوذة مدببة.



نقش من قبر المسيح فى القدس يعود إلى عام ١٣٠٠ تقريباً يصور جنديين من جنود الحراسة الألمان نائمين، لاحظ شكل الخوذات والدروع المدببة.



Fulcher of Chartres الى آسيا الصغرى مع بطرس الناسك . وانضم فريدرك الى جودفرى البويونى فيما بعد . وانضم اشارد المونتميرلى Achard of Montmerle، وأنسيلم الريبمونتى Anselm of Ribemont ــ اللذان كانا يخدمان في كنف هيو الفرماندى في وقت من الأوقات ــ الى ريموند السانت جيلى، بعد أن ترك هيو الحملة الصليبية . وخدم هيو التشمونتى Hugh of Chaumont ورالف البيوجنسى Ralph of Beaugency لفترة من الوقت مع بوهيموند Bohemond ، بعد انسحاب ستيفن البلوى Stephen of Blois . وعند وفاة أدهيمار اللوبوى Adhemar of Le Puy نقل فرسانه ولاءهم الى ريموند السانت جيلى ، الذى كان تربطهم به علاقة وثيقة . وأصبح وليم هيو William Hugh ، من أخلص أتباع ريموند .

وقام الصليبيون الأثرياء بتعيين الفقراء منهم في خدمتهم مقابل أجر وذلك في مراحل تالية للحرب الصليبية . وربما كان المؤلف المجهول لكتاب أعمال الفرنجة Gesta Francorum فارسا نورمانديا من جنوب ايطاليا ، وكان قد سافر مع بوهيموند ، ويبدو أنه دخل في خدمة ريموند بايليت Raymond Pilet كما فعل غيره ، مقابل أجر . ويبدو أنه زحف الى بيت المقدس تحت قيادة ريموند السانت جيلى ، والذى عمل عنده ريموند بايليت ورجاله . وفى المرحلة الأخيرة نشب صراع على السلطة بين ريموند السانت جيلى ، وجودفرى البويونى مع استخدام المال كوسيلة لتحويل الولاء . وكانت الأموال تصل الى جودفرى من أخيه فى الرها

في ذلك الحين . وفي الرابع من يناير ١٠٩٩م وافق تنكرد ابن أخت بوهيموند على الدخول في خدمة ريموند مقابل مبلغ كبير من المال . وبعد حدوث نزاع غير معروف بشأن هذا الاتفاق ، انفصل عن ريموند وانضم الى جودفرى ، ولابد أنه دخل معه في اتفاق مماثل ، لأنه منذ الاستيلاء على بيت المقدس اعتبر نفسه أحد فرسان جودفرى ، مما ساعد على خلق مشاعر غير ودية أحدثت انشقاقا خطيرا في صفوف الجيش . فهجر جاستون البيرنى Gaston of Bearn ، الذى قاد القوات التابعة له بنفسه ، ريموند الذى كان يعمل معه كتابع له . وكان جودفرى قد أرسله مع تنكرد لاحتلال بيت لحم ، فكان مسئولا عن ادارة آلات الحصار بقيادة جودفرى ، وروبرت الفلاندرى ، وروبرت النورماندى ، أثناء حصار بيت المقدس كما ساعد تنكرد في احتلال منطقة المعبد . ومن المحتمل أن كلا من جولدمار كاربينيل Goldemar Carpenel ، ووليم المونبلياوى William of Montpellier — وهما من الشخصيات المهمة في قوة ريموند المحاربة — قد سلكا نفس الدرب ، حيث انهما ظلا مع جودفرى في فلسطين عندما عاد ريموند الى أوربا في الخريف التالى .

وهكذا نرى أن تركيبة طبقة القادة كانت متغيرة ، فلم يكن أتباع القائد من التماسك والثبات بحيث يتمكن من فرض سيطرته ويمد نفوذه على الآخرين .

ولم يقم رجال الدين الذين صاحبوا الحملة الصليبية بتوحيد صفوف هذه الحملة . وكان أدهيمار اللوبوى Adhemar Le Puy بمثابة القوة التى تؤلف بين صفوف الحملة ، وكان له سلطة اصدار التشريعات ، ولكن سرعة

مواقف وأنشطة رفاقه عملت علي بث الفرقة بين صفوف الحملة بعد وفاته • فقد غادر عشرة أساقفة أبرشياتهم في غرب أوربا على الأقل ، غير أن أحدهم وهو أودو البيبوى Odo of Bayeux ، مات في جنوب ايطاليا ، فعاد جلبرت الافريوى Gilbert of Evreux الى وطنه اثر ذلك • أما الآخرون فهم أساقفة ستراسبورج Strasbourg ، وأسقف أورانج Orange ، وأسقف أبت Apt البورجندى Burgundy وأسقف لو بوى Le Puy في جنوب فرنسا ، وأساقفة آريانو Ariano وفوليىنو Foligno ، ومارتيرانو Martirano ، وأنانى Anagni في ايطاليا • وبالاضافة الى ذلك ، كان هناك ما لا يقل عن اثنين من رؤساء الشمامسة وخمسة من رؤساء الأديرة ، وبضعة رهبان وراهبة من دير القديسة مارى St Mary بمنطقة ترير Trier ، وقد أسر الراهبة أحد الأتراك ثم أغواها أثناء القضاء على جيش بطرس الناسك ، وما لبث الصليبيون أن فكوا أسرها ، ولكنها فرت الى عشيقها التركى • وكان هناك عدد كبير من القساوسة ، ويمكن حصر أسماء ثلاثين منهم • وكان هناك عدد آخر من رجال الكهنوت الأقل رتبة ، وكان بطرس الناسك نفسه بينهم • وارتبط معظم القساوسة بالأساقفة والأمراء وعملوا معهم كمساعدين لهم أو تابعين لهم • وكان لأدهيمار حاشية خاصة من القساوسة والكهنة • وكان لدى جودفرى البويونى رئيس لأحد الأديرة يدعى بولدوين بالاضافة الى رئيس شمامسة متز Metz وربما رئيس شمامسة تول Toul • وكان

لدى ستيفن البلوى قس يدعى الاسكندر ، وآخر هو فولشر الشارترى كاتب الحولية Fulcher of Chartres الذى انتقل الى خدمة بلدوين من سولونا فى أكتوبر ١٠٩٧م ، وأصبح قسا خاصا له • وصار كاتب الحوليات ريموند الأجوليرى Raymond of Aguilers ، الذى تمت رسامته كهنوتيا خلال الحرب الصليبية أحد قساوسة ريموند السانت جيلى ، وكان منهم بطرس الناربونى الذى كان أسقفا للبارة فى سوريا ، وكان فى صحبة ريموند أيضا أسقف أبت Apt • وكان فى صحبة بوهيموند التارانتوى Bohemond of Taranto اثنان من الأساقفة الايطاليين على الأقل • وكان أرنولف الشوكوى Arnulf of Chocques قسا لدى روبرت النورماندى ، غير أنه كان لديه أيضا اثنان من القساوسة على الأقل فى صحبته وهما فيليب المونتجومرى Philip of Montgomery وروبرت الريونى Robert of Rouen ، وكان للقرار الذى اتخذه البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت أهمية خاصة ، وتكمن أهميته فى أنه نص على تعيين أول بطريرك لاتينى فى فلسطين ، وأول أسقف لاتينى فى فلسطين من النورمان • وأدى هذا التعيين الى حمل المرء على الاعتقاد بامكانية أن يصبح الدوق روبرت أحد حكام بيت المقدس فى المستقبل • واذا عدنا لموضوع الطبقة الوسطى minores فقد كان روجر Roger قسا خاصا لأنسيلم الريمبونتى Anselm of Ribemont وكان بطرس دزيدريوس Peter Desiderius قسا خاصا لايزوراد الديى Isord of Die • وكان بطرس البيكاوى Peter of Picca ، قسا خاصا لبرنارد السكابريكاوى .

Bernard of Scabriea ومن الجدير بالذكر أن الكهنـة الذين رافقوا الحملة الصليبية لم يكونوا من صفوة رجال الكنيسة المعاصرة فقد عمل عدد كبير منهم لدى بيوت علية القوم ٠

وبرغم ذلك فقد كانوا يعتدون بأنفسهم ، فعندما انعقد اجتماع للأساقفة والقادة العلمانيين فى أنطاكية تحت قيادة أدهيمار Adhémar لمناقشة موضوع اقامة كنيسة لاتينية أصبح هذا الاجتماع معروفا باسم مجمع أنطاكية ٠ شارك كل من اسقف ابت Apt ، والقس ريمـوند الأجـوليرى Raymond of Aguilers ، وقس آخر يدعى سمعان Simeon وبطرس برثولوميـو Peter Bartholomew الرائى ، الذى اختاره رجال الدين بمقاطعة بروفنسال Provencal ٠ ومن المرجح أن رجال الدين عاشوا بمعزل عن العامة ٠ وكانوا تحت رياسـة أدهيمـار ممثـل البابا حتى وفاته فى أول أغسطس ١٠٩٨م ، على الرغم من أن البابا عين اثنين عـلى الأقل من بين الكهنة للعمل قساوسة للأمراء وهما . أرنولف الشـــوكى Arnulf of Chocques ، والاسـكندر للعمـل كمفوضين مسـاعدين ٠ ومن المحتمـل أن الأسـقف وليم الأورانجى William of Orange وبطرس الناربونى Peter of Narbonne قد حصـلا عـلى تفويضـات أيضـا ، اذ أخذ وليم الأورانجى على عاتقه تحمل المسئولية الى أن وافتـه المنية فى العشرين من ديسمبر ١٠٩٨م ٠ وبعد أن انفرط عقد الجيش ، أصبحت السلطة مقسمة بين بطرس الناربونى Peter of Narbonne الذى صار أسقفا للبارة ، ورجل الدين

الوحيد الذى استطاع الصمود فى وجه الأمراء ، وتزعم قيادة القساوسة المصاحبين لريموند السانت جيلى Raymond of St Gilles ، وبين أرنولف الشوكى Arnulf of Chocques ، الذى تولى قيادة رجال الدين بالقوات الأخرى •

أما أولئك القوم الذين كرسوا أنفسهم للعمل لدى عامة الناس ، فلم يكونوا معروفين بالاتجاه العقلى المستقل ، أو تزعم حركة الاصلاح بالكنيسة • وكانت المدة الأخيرة من القرن الحادى عشر الميلادى فترة تغير سريع فى الفكر الكنسى ، وكانت الحملة الصليبية تعبيرا عن هذا التغير فى الفكر ، غير أن رجال الدين المسيحى بصفة عامة كانوا جماعة من الرجال من أصحاب النظرة الرجعية • لقد كان أدهيمار رجل اصلاح يتمتع بالكفاءة • وكان وليم الأورانجى أيضا صاحب شخصية متميزة ، وكان البابا قد أرسله الى جنوة فى مهمة تتعلق بالحروب الصليبية ، وعلق ريموند الأجوليرى على حالة الضعف التى اعترت رجال الدين المسيحى المرافقين للحملة الصليبية نتيجة لوفاة هذين الأسقفين اللذين كان فى استطاعتهما مقاومة الضغوط التى مارستها الشخصيات العلمانية • وكان أسقف فولينو Foligno ، وهو بونفيليوس المبارك Blessed Bonfilius مصلحا غيورا ، وعاش كناسك فى الأرض المقدسة لمدة عشر سنوات بعد الحروب الصليبية الأولى • كان ستيفن البلنسى Stephen of Valence صاحب سيرة فاضلة • وكان بطرس النربونى Peter of Narbonne على درجة كبيرة من النزعة الاستقلالية والكفاءة ، واشتهر بعلمه الواسع ، وعاش حتى العشرينات

من القرن الثانى عشر جامعا بين منصبى أسقف البارة ورئيس أساقفة أفامية Apamea • وكان أرنولف الشوكى Arnulf of Chocques ـ الذى صار فيما بعد بطريركا لبيت المقدس ـ عالما مشهورا • وكان قبل ذلك معلما خصوصيا لسيسيليا Cecilia ابنة وليم الأول ملك انجلترا ، ومعلما خصوصيا أيضا لرالف الكاينى Ralph of Caen كاتب سيرة حياة تنكرد Tancred • وكان روبرت النورماندى ـ الذى كان أرنولف يعمل قسيسا ومستشارا لديه ـ قد وعد بأن يساعد أرنولف فى تولى منصب أسقف نورماندى بمجرد أن يصبح هذا المنصب شاغرا ، وذلك بعد الحاح شقيقته على ذلك • وكان أرنولف خطيبا مفوها وكانت مواعظه مثار اعجاب الكثيرين من الصليبيين • وكتب شهود العيان ثلاث أو أربع روايات ، قام القساوسة بكتابتها كلها أو بعضها ، وهؤلاء القساوسة هم ريموند الأجوليرى ، وبطرس التيدبودى Peter Tudebode وفولشر الشارترى • وكان ريموند خير مثال على القس الذى يعظ فى المنازل وكان فولشر متوسط الثقافة •

ومن ناحية أخرى كان أرنولف الشوكى Arnulf of Chocques مشهورا بالتفوه بالألفاظ المنحطة فضلا عن ولعه بمغازلة النساء ، ويقال انه تم تأليف الأغانى المبتذلة أثناء الحروب الصليبية للتشهير به • وكان صديقه الحميم الأسقف أرنولف المارتيرانوى Arnulf of Martirano رجلا فاسدا

ويكاد أن يكـــون أميـــا . أما أدلبرو اللوكســـمبورجى Adelbero of Luxembourg فقد كان شابا أرستقراطيا وشغل وظيفة رئيس شمامسـة متز Metz ، وقد ذهب مـع بعض أصدقائه ومعهم امرأة جميلة ليلعبوا النرد dice بين الشجيرات النامية بالقرب من أنطاكية ، غير أن جماعة من المسـلمين نصبوا لهـم كمينـا وقتلوهم . كمـا أن برتراند البـاسى Bertrand of Bas ، وهـــو كاهن فى كاتدرائيـة لوبوى Le Puy ، كان قد وضع يده على عشور بوزاك the tithes of Beauzac بطريقة غير شرعية . ولما تعرض لمرض خطير فى عرض البحر ــ وربما كان ذلك فى طريق العودة للوطن ــ طلب من رفاقه أن يشهدوا بأنه تركهم للتوجه الى كنيسـة الأبرشية التى يتبعونها . وانضم عدد من الرهبان الى الحملة الصليبية دون الحصول على اذن من رؤسائهم ، وكان أحدهم من كلونى Cluny ، وقد شارك فى الحملة ، « ليس بدافع الورع وانما من منطلق الطيش » . فقد ضبطوه مع امرأة ، وضربوه بالسـياط علنـا أمام الجميع . ومن الطبيعى أن تجذب الحرب الصليبية اهتمام المتحمسين والمحتالين ، ومن بينهم أتباع فرقة شاذة كانت تحت رياسة امتش الليننجنى Emich of Leiningen ، وهـم الذين بجلوا اوزة الليننجنى ، واعتقدوا أنها مملوءة بالروح القدس the Holy Spirit كما قام عدد من الأفراد برسم صلبان على أجسادهم عن طريق الوشم باللون الازرق أو الوشم بالنار ، وربمـا كانوا تحت تأثير حالة من الهسـتريا او ضحية للخداع . وكان الأب بولدوين Abbot Baldwin القس التابع لجودفرى البويونى اكثر اولئك

تأثرا وشم جبهته بالنار بعلامة الصليب ، ومول رحلته الى الشرق بما قدمه المؤمنون من اعانات، فقد كان أولئك المؤمنون يعتقدون بأن احد الملائكة يقودهم الى الشرق • وفى أنطاكية أعلن الأب بولدويين توبته ، وأصبح فيما بعد رئيسا لدير القديسة مريم وأول رئيس أساقفة لاتينى فى قيصرية Caesarea • وعلى الرغم من عدم وجود دليل على أن أدهيمار قد سبق له حمل السلاح ، فمن المؤكد أنه كان لديه قوات تحت امرته • كما كان هناك أحد الكهنة ، وهو قس من بروفنسال Provencal وكان مولعا بالقتال ، واستخدم القوس والنشاب ضد اليونانيين وهو فى مؤخرة سمينة • وعندما نفدت السهام الصغيرة لديه ، استخدم الأحجار والأوانى الفخارية الصغيرة ، وبذلك اقحم نفسه فى القتال مخالفا أوامر القانون الكنسى التى حظرت القتال على رجال الدين ، وكانت الحاجة تقضى بضرورة طاعة هذه الأوامر • وما كان يمكن للمرء أن يتصور امكان قيام رجال الدين بفرض القيود على الصليبيين ، فى الوقت الذى كان قادة أولئك الصليبيين اسيادا لرجال الدين •

ومع ذلك فقد احتفظ رجال الكنيسة ببعض السلطة من خلال حقهم وواجبهم فى القاء العظات ، ويعتقد الملفقون أن أدهيمار سلم ، « مهمة التعليم الكهنوتى » ، وهو على فراش الموت الى أرنولف • وهناك عدة عظات دينية رصينة العبارة ، نقلها كتابها عن أصحابها كما هى دون تغيير ، غير أن الدليل على صدق محتوى العظات الدينية لا يتوافر الا من خلال العظات التى ألقيت فى الموكب التكفيرى العظيم الذى سار حول مدينة بيت المقدس فى الثامن من يوليو ١٠٩٩م ،

حين خف حصار المدينة ، وانقسم الجيش بسبب المشاعر العدائية التى انتشرت بين المقاتلين بعد آن فر تنكرد Tancred من عند ريموند السانت جيلى ، وذهب الى جودفرى البويونى • وتوقف الموكب عند جبل الزيتون وهناك ربما انقسم الى مجموعات أو أنه استمع الى مواعظ دينية ألقاها أرنولف الشوكى ، وبطرس الناسك ، وريموند الأجوليرى ، وغيرهم• وتعرض الوعاظ فى حديثهم لموضوعين هما : نعمة الرب التى مكنت الصليبيين من الوصول الى مكان صعوده الى السماء ، والحاجة الى الوئام المتبادل بينهم • وتأثر الجيش بهذه الموعظة تأثرا بالغا •

ولعب رجال الكنيسة دورا ايجابيا أيضا عندما قاموا بمهام التعبد الخاصة بأسرار الكنيسة المقدسة • فكان القداس يقام بانتظام ويتكرر قبل خوض غمار المعارك المهمة ، كما حدث قبل معركة أنطاكية ، وقبل أن يخرج الجيش المسيحى من بيت المقدس لملاقاة المصريين فى أغسطس ١٠٩٩م• ويبدو أن كل الصليبيين اعترفوا لكهنتهم ومارسوا سر التناول المقدس بعد عبور مضيق البوسفور « عند مداخل أرض الأتراك » ، وقبل القيام بأى عمل عسكرى • وتوجد اشارة واحدة تدل على حدوث أمر كان كثير الوقوع : وهو أن المصابين اصابات خطيرة أقبلوا على ممارسة سر التناول المقدس ، بعد مسحهم بالزيت • وكان الصليبيون يحتفلون باستيلائهم على الأماكن المقدسة ، بعد تخليصها من أيدى المسلمين ، بممارسة طقوس التطهير • ولسوء الحظ ، فان البراهين المتوافرة لدينا لا تشير الا الى حادث واحد من هذه الحوادث التاريخية ، وهو استعادة كاتدرائية القديس بطرس

فى أنطاكية من أيدى المسلمين ، بعد أن كانوا قد حولوها الى مسجد . وتم وضع صورة المسيح والقديسين فى أماكنها . وقام الصليبيون باعادة ترميم هذه الصور . وتمت دعوة رجال الدين الاغريق واللاتين ، وتم اعداد أثواب كهنوتية من الغنائم التى جمعت عندما تعرضت أنطاكية للسلب وللنهب بعد الاستيلاء عليها . وقبل خوض المعارك الحاسمة توقع الصليبيون الحصول على البركات المقدسة . وارتدى أدهيمار ورجال الدين الملابس البيضاء وباركوا القوات الصليبية قبل معركتى أرضروم وأنطاكية ، وخرج الجيش من بيت المقدس فى شهر أغسطس ١٠٩٩م ، ويقال انهم عثروا على جزء من الصليب الحقيقى ، واحتفظوا بهذا الأثر ، وكانوا يكنون له كل احترام وتبجيل . وكانت الصلوات الشغل الشاغل لرجال الدين عندما تدور رحى الحرب . وعندما شن الصليبيون هجوما مضادا لفك الحصار الذى ضرب عليهم أثناء وجودهم داخل أنطاكية فى الثالث والعشرين من يونيو ١٠٩٨م ، وانطلق أدهيمار وجماعة من رجال الدين الذين كانوا يرددون الصلوات وتبعهم قساوسة آخرون ، ارتدوا الملابس البيضاء ، وكانوا حفاة ويحملون الصلبان ـ يرددون الدعوات ، وهم على أسوار مدينة أنطاكية . وكانت الشموع الضخمة تضاء فى الكاتدرائية وفى كنيسة تحمل اسم مريم ابنة عمران لزيادة الأثر النفسى الذى تحدثه تلك الصلوات . ووقف قساوسة وكهنة وهم فى زيهم الكهنوتى الأبيض يصلون خلف برج محاصر عند معرة النعمان فى ديسمبر ١٠٩٨م ، ويقال انه عندما توقف النشاط داخل برج عند محاصرة بيت المقدس فان صلاة القساوسة وهم فى زيهم الكهنوتى الأبيض

جعلت الحركة تدب فى ربوع البرج الذى توقف عن العمل ٠ وأثناء المعركة المحدودة التى سبقت معركة عسقلان نظم بطرس الناسك صلاة مستمرة قدمها رجال الدين فى بيت المقدس ٠ وفى الحقيقة كان الجيش الصليبى فى حالة صلاة مستمرة ، فكل مسيرة وكل حادث كبير ، وكل خطوة يخطوها الجيش لبدء مرحلة جديدة من مراحل الزحف ، كانت مصحوبة بصلوات الشفاعة ٠ وكان هناك اهتمام شديد بأداء الطقوس الدينية بين القوات المتحاربة ٠ وكان الصليبيون يهتمون اهتماما شديدا بالتعاليم الدينية التى تحض على تحمل المسئولية ، وكان رجال الدين يترنمون بهذه التعاليم فى صلواتهم على مدى خمسة أيام متصلة ، ويشاع أن عيسى عليه السلام أبلغ القس ستيفن البلنسى Stephen of Valence بهذه التعاليم فى رؤى عام ١٠٩٨ م ٠ وكانت الصلاة التى أدخلها بطرس بارثولوميو Peter Bartholomew الرائى ، والخاصة بالحربة المقدسة ، مثار دهشة رجال الدين حين سمعوا هذه الصلاة من هذا الرجل الأمى ٠ وكان حرص فارس يدعى متى ــ وكان ضمن فرسان بطرس الناسك ــ على أداء الشعائر الخاصة بزيارة الأماكن المقدسة بالقسطنطينية أمرا جديرا بالملاحظة ٠

وكانت صلوات الحروب الصليبية تبرز بكل وضوح الطقوس الدينية المصاحبة لزيارة الأماكن المقدسة ٠ وخلقت الحرب الصليبية انطباعا فى نفوس المعاصرين كأنها دير مسلح متنقل ، وفى حالة صلاة مستمرة ٠ وفى مرتين شبه ريموند الأجوليرى نظام الجيش أثناء المعركة بالموكب الكنسى ٠ وكان أمرا شائعا فى ذلك العصر أن تجد مخاوف

الصليبيين وآمالهم متنفسا لها فى صـــورة مواكب تكفيرية ٠ وبعد أن داهم زلزال معسكر الصليبيين عنـــد أنطاكيـــة فى الثلاثين من ديسمبر ١٠٩٧م ، لم يكتب أدهيمار بأمر رجال الدين باقامة الصلوات والقداسات ، وانما آمرهم بالســير فى مواكب ٠ وفى آخر يونيو ١٠٩٨م وأثناء الاســتعدادات التى استغرقت ثلاثة أيام قبـــل أن يقـــوم الصليبيون الذين كانوا داخل أنطاكية بشن هجمة مفاجئة لفك الحصار الذى ضربه كربوغا حولهم ، كانت هناك مواكب دينية سار الجميع فيها حفاة من كنيسة الى أخرى داخل المدينة ٠ وفى الثـــالث عشر من يناير ١٠٩٩م قاد كل من ريموند السانت جيلى ، وبطرس الناربونى ، ورجال الدين جيشا من معرة النعمان متجهين صوب الجنوب وهم حفاة ٠ وكان بطرس بارثولوميو قد نقل التعليمات التى تقضى بألا يزيد اقتراب الجيش من بيت المقدس على فرسخين ٠ ويذكر لنا أحد التقارير الخاصة بالتعليمات التى نقلهـــا أدهيمـــار للصـــليبيين أن موكبـــا عظيما شق طريقه خارج مدينة بيت المقدس ، بصحبة رجال الدين الحفاة الذين كانوا يرتدون لباس الكهنوت ، ويحملون الصـــــلبان ويدقون الطبول ويغنون بالمزامير ، وانتقل هذا الموكب من مكان مقدس لآخر خارج أسوار المدينة المقدسة ٠ وعلى جبل الزيتون ألقيت المواعظ الدينية ، وبعد سقوط بيت المقدس فى الخامس عشر من يونيو ١٠٩٩م ، سار موكب دينى مهيب آخر وكان الجميع حفاة ، وكانوا ينشـــدون ، « أنشودة جديدة للرب The Lord » ٠ وتحرك الموكب الى القبر المقدس ، وواصـــل مســـيرته حتى كنيســـة القيـــامة The Temple ٠ وفى العـــــاشر من أغســـطس ١٠٩٩ م ،

وبعد أن ذهب الجيش الصليبى لملاقاة المصريين فى فلسطين خرج رجال الدين الاغريق واللاتين فى بيت المقدس فى موكب وكانوا حفاة يرتدون الملابس الكهنوتية ويحملون الصلبان ، ومروا على القبر المقدس وكنيسة القيامة . ومنذ أن وصل الصليبيون الى بيت المقدس قامت جماعات منهم بزيارات مقدسة لنهر الأردن ، حيث أجروا طقوس التعميد من جديد . وكانت الحملات الصليبية خير تعبير عن مشاعر التوبة المتأججة فى صدور الصليبيين ، بكل ما عرف عن هذه الحملات من تنظيم للمسيرات ، واقامة الشعائر الدينية ، كما عبرت مشاعر التوبة عن نفسها فى صورة تقديم العشور والصوم . وصام الصليبيون فى آخر يونيو ١٠٩٧ م قبل مغادرة مدينة نيقية ، وفى منتصف آبريل ١٠٩٩م قبل أن يفرضوا الحصار على مدينة الرقة ، وقبل القيام باختيار الحاكم الجديد لمملكة بيت المقدس فى الثانى والعشرين من يوليو ١٠٩٩م . ووضع أدهيمار سنة جديدة تتمثل فى الصيام ثلاثة أيام ، وذلك بعد وقوع زلزال فى الثلاثين من ديسمبر ١٠٩٧م ، قبل معركة أنطاكية التى دارت رحاها فى الثامن والعشرين من يونيو ١٠٩٨م ، ثم تكرر هذا الصوم قبل المحنة التى تعرض لها بطرس بارثولوميو Peter Bertholomew فى الثامن من آبريل ١٠٩٩ ، وقبل الموكب الدينى حول بيت المقدس فى الثامن من يونيو ١٠٩٩م . ولا ريب أن هذا الصيام المتكرر كان له وقع كبير فى نفوس الصليبيين ، فما كان بامكانهم أن يمتنعوا عن هذا الصيام ، لأن عدم الصيام كان يعنى ازدياد حدة مشكلة المجاعة التى كانوا يعانون منها بالفعل . ويروى أنه أثناء

صيام الصليبيين فى أنطاكية ، وصل الأتراك الى أسوار المدينة ، ومعهم أرغفة من الخبز الأبيض لاغراء الصليبيين الذين يتضورون جوعا داخل المدينة ، والسخرية منهم . وتصبح الانجازات التى قام بها الصليبيون آكثر روعة — الى الحد الذى لا يصدق — حين نعلم أنهم كانوا يقبلون على خوض المعارك وهم جياع ،وكانوا يحرصون على تزويد جيادهم بمزيد من العلف ، فى الوقت الذى كان ينبغى عليهم ملء بطونهم قبل خوض المعركة . وقد يتساءل المرء قائلا كيف كان لأولئك القوم طاقة على الحرب ، وهم يتضورون جوعا ؟! .

وقام رجال الدين بوضع سلسلة من صيغ القسم المقدس التى كان لها آثر كبير فى جعل الجيش الصليبى متماسكا . ومن الممكن اعتبار هذا القسم المقدس نوعا من التجديد للنذور القديمة الأولى ، وربما عند بدء محاصرة نيقية ، وعند بدء محاصرة أنطاكية ، أقسم الصليبيون على مواصلة تطويقهم للمدينة الى أن تسقط مهما تكن مدة الحصار . وأقسم كل من روبرت النورماندى ، وجودفرى البويونى ، وروبرت الفلاندرى بألا يهربوا من المعركة بعد أن شاهدوا علامات الهروب الجماعى الذى حدث من مدينة أنطاكية فى يونيو ١٠٩٨م . وأضاف تنكرد Tancred قائلا بأن لديه الأموال التى تمكنه من دفع رواتب الجند ، وأنه لن يهرب من بيت المقدس ، طالما بقى معه أربعون فارسا تحت امرته . وعند الرملة كان هناك تجديد للقسم المقدس ، وتوسلات لشفاعة القديس جورج St George عند انشاء أسقفية لاتينية عند قبره بالقرب من مدينة اللد Lydda ،

وما كان لقوة الدين الرامية لتوحيد صفوف الصليبيين واقتناعهم بأنهم يدافعون عن قضية مقدسة ، أن تساعد قيادة الجيش الضعيفة على أن توحد صفوف الجيش الممزقة . وتفتت شمل الجيش الصليبي بسبب الاختلافات القومية . وعلى الرغم من أن الحملة الصليبية الأولى كان ينظر اليها على أنها مشروع فرنسي وعمل قومي، فانها احتوت على أعداد كافية من جنسيات أخرى الى الحد الذى أعطى انطباعا لمن شارك فيها بأنهم كانوا فى جيش يتكون من جنسيات مختلفة . وبالاضافة الى ذلك فان سكان فرنسا ذاتها لم يعتبروا أنفسهم ينتمون الى أمة واحدة . فعلى الرغم من أن مصطلح « فرنجة » اشتمل على أناس من غرب ألمانيا ، فقد كان أهالى بروفنسال Provencals يعاملون ، وكأنهم ينتمون الى جنس آخر غير الفرنجة ، وتوترت العلاقات بينهم وبين الفرنسيين . ومن الجدير بالذكر أنهم تخلوا عن صيحة المعركة : « هذه ارادة الله Deus hoc vult » ، التى استخدمها الفرنسيون الشماليون ، والنورمان فى جنوب فرنسا ، واستخدموا صيحة أخرى هي . « الله فى عوننا » . ويقال ان صيحة المعركة جاءتهم عن طريق شخص كثير الرؤى ونصحهم باستخدامها . وتفاقمت العلاقات المتوترة بين الجماعات التى اعتبرت نفسها تنتمى لأجناس مختلفة بسبب الخلافات حول الغنائم .

ومع وجود الانقسام بين الصليبيين ، وعدم وجود قائد قومى بينهم ، كان لابد من وجود لجان تنظم أمورهم . وعلى قمة هذه اللجان كان هناك مجلس الأمراء الذي ازداد

فيه عدد الحاضرين من وقت لآخر • وشارك الأساقفة ممثل البابا فى اجتماعات المجلس أحيانا ، وحضر تنكرد فى مناسبة واحدة على الأقل ، وتمت دعوة روجر البارنفيلى Rogor of Barneville المحنك لحضور مداولات المجلس • وعقد هذا المجلس بعض اجتماعاته فى كاتدرائية انطاكية واختار أعضاء المجلس السفراء الذين سيمثلون الجيش كله وناقشوا الخطط الحربية • وفى شتاء ١٠٩٨ ــ ١٠٩٩م كانت هناك مباحثات مضنية بشأن الوقت الذى يجب فيه استئناف الزحف على بيت المقدس • وكان المجلس منعقدا لدراسة وضع المؤن حين يشتد العجز ، وينبىء بالخطر ، واختار المجلس أسقفا للرملة واللد Lydda • وانعقد هذا المجلس فى وقت حرج فى أنطاكية • وأثناء الاجتماع المهيب وعد الأمراء بعضهم بعضا بعدم ترك ميدان القتال • كما أنه انعقد أيضا لبحث من يجب أن يحكم أنطاكية ، وربما بيت المقدس ، على الرغم من أن القرارات الرسمية تم اتخاذها فى اجتماع أكثر عددا • فلم يكن هذا الاجتماع هو الاجتماع الوحيد من نوعه الذى كان يحضره الأمراء ؛ اذ انهم كانوا فى بعض الأحيان يحاولون معرفة آراء أتباعهم فىاجتماعات مصغرة ، ومن حين الى آخر كان الجيش كله يحضر اجتماعا عاما ، فقد اختار الأمراء ستيفن البلوى Stephen of Blois قائدا عاما فى اجتماع ضم كل أفراد الجيش ، وقال ستيفن : « ان كل الأمراء اختاروه وبموافقة كل أفراد الجيش » • ويبدو أن المناقشات المتعلقة بنظام الحكومة فى أنطاكية وبيت المقدس دارت على نفس المكان، ويمكننا معرفة الاجراءات التىاتخذت أثناء انعقاد الاجتماعات فى كاتدرائية أنطاكية حيث انتحى

الأمراء والأساقفة جانبا عن الباقين وتجمعوا حول ما كانوا يعتقدون أنه العرش الأسقفي للقديس بطرس ، وأصدروا قرارا أبلغوه للناس فيما بعد · وأصر عامة الصليبيين على انتهاج طريقة متطرفة في أكتوبر ١٠٩٨م عندما تقرر تنصيب أسقف لاتيني في البارة · وأراد ريموند السانت جيلي أن يتصرف وفقا لقرار أوربان في مجمع كليرمونت وعلى نفس المنوال الذي اعتاده في فرنسا ، وذلك بمناقشة التعيين مع القساوسة ورؤساء تابعيه فقط ، قبل أن يتخذ قرارا شخصيا · بيد أن عامة الشعب الصليبي طالبوا بعملية التصويت ، ومن ثم تحديد المرشح الذي اختاره ريموند عن طريق التصفيق · ومن الجدير بالذكر أن طريقة الاختيار هذه التي طالب بها جميع الصليبيين الذين تأثروا بأفكار الاصلاح ، لم تكن هي الطريقة المتبعة حين تم تعيين أسقف الرملة واللد · وفي ذلك الحين كان كل الأمراء موجودين في الجيش ، وفي فبراير ، وأبريل ، ويونيو ١٠٩٩م ، كانت هناك اجتماعات عامة أيضا لمناقشة أمر الزحف صوب بيت المقدس ، وما كان يلقاه من استحسان ، وفي اجتماع آخر تقرر القيام بمسيرة تكفيرية في الثامن من يوليو من نفس العام ·

وهكذا كانت هناك لجنة تضم كبار السادة تتولى شئون الحرب الصليبية معظم الوقت · وليس هناك شيء غير عادي في ذلك ، بيد أنه لا أحد من هؤلاء الرجال الكبار كان واثقا من قوته ، كما لم يكن أحد منهم متأكدا من ولاء أتباعه له ، اذ كان في استطاعتهم الانصراف عنه والانضمام الى غيره بسهولة · وباستثناء فترة القيادة القصيرة التي تولاها

ستيفن البلوى ، وربما خلالها أيضا كان أدهيمار يسيطر على هذه اللجنة : ففى ليلة العاشر من يونيو ١٠٩٨م ، شاهد ستيفن البلنسى Stephen of Valence المسيح فى المنام ، وأبلغه بأن ، « لا يوجد سيد أعلى بينكم ، وانما على الشعب الثقة فى الأسقف أدهيمار أكثر من أى شخص آخر » . وليس من المدهش أن موت أدهيمار فى الأول من أغسطس ١٠٩٨م قد أضعف عزيمة الجند . وفى بداية الأمر انتشر القادة فى المناطق التى يمكن الحصول منها على المؤن والعلف بالسطو والنهب ، وسيطر عليهم الخوف من الوباء الذى راح أدهيمار ضحية له . بيد أنهم بعد عودتهم واجتماع كلمتهم لم يتمكنوا من الموافقة على الخطوة التالية وظلوا منقسمين على أنفسهم لمدة ستة أشهر ، قبل أن يسيروا متثاقلين خلف ريموند السانت جيلى الذى أجبره أتباعه على الزحف الى بيت المقدس ، وما من شىء يستطيع الكشف عن مواطن الضعف فى الجيش أكثر من وجود قيادة ممزقة .

ان نوعية القيادة ، أو بالأحرى الافتقار اليها انعكس على معنويات الجند وانضباطهم ، وكان بالجيش عناصر منحلة وسط هذا الحشد الهائل والمتنوع من الجند ، بل ان هذا الجيش عانى المشكلات المتعلقة بالجريمة وفساد الأخلاق، رغم أن كثيرا من المعلقين حاولوا اضفاء طابع النقاء والطهارة على هذا الجيش . وفى غرب أوربا اعتقدت بعض الدوائر أن الانضباط كان جيدا أثناء محاصرة نيقية ، وأثناء حياة أدهيمار ، وكان هناك شىء من السيطرة على الفوضى حتى أثناء شتاء عامى ١٠٩٧ ــ ١٠٩٨م . وفى ذلك الحين أصدر الأمراء والأساقفة ورجال الدين تشريعات لكل الجيش

الصليبى تنص على معاقبة استخدام الأوزان والمكاييل الزائفة ، واللجوء للخداع ، والسرقة ، والغش ، والزنا ، وكانت عقوبات هذه الجرائم هى السجن والجلد والكى بالنار • فعلى سبيل المثال كان الزناة يجردون من ملابسهم ويجلدون بالمسكر • وكانت كثرة عدد النساء ـ سواء اللاتى جئن من أوربا للحج ، أو النساء الشرقيات ـ تمثل مشكلة خاصة ، ولكنها كانت مشكلات فردية ، وذلك لأن قوانين وشرائع الحج كانت تقضى بالامتناع عن ممارسة العملية الجنسية • وكان الحل الذى توصل اليه أدهيمار اللوبوى Adhémar of Le Puy بسيطا • فمع بداية ظهور المجاعة فى ديسمبر ١٠٩٧م أصدر قرارا بطرد كل النساء من معسكر الرجال سواء المتزوجات أو غير المتزوجات ، ومعنى ذلك أنه قد تم عزل النساء فى معسكر خاص بهن • وانتهى عزل النساء بعد سقوط أنطاكية بنتائج طيبة ، غير أنه عندما أصبح الصليبيون محاصرين داخل أنطاكية ، وأحاط المسلمون بالمدينة أمر أدهيمار بالعودة الى عزل النساء ثانية •

وفى يوليو ١٠٩٨م ، وعند موت أدهيمار ، تنازع الأمراء حول امتلاك أنطاكية ، وانهار النظام كلية • ولجأ القادة ومعهم أتباعهم الى عمليات السلب والنهب ، وتبعهم عامة الصليبيين • ويقال ان كل فرد أخذ ما أراد لأنه لم يكن هناك قضاة لمحاكمة المجرمين • وزاد الموقف سوءا بعد موت أدهيمار ، واستمرار الانقسامات بين الأمراء الصليبيين • ولم يقم رجال الدين باتخاذ أية مبادرة من أجل تحقيق الانضباط ، بالرغم من أن الأساقفة شاركوا الأمراء فى محاولة

للفصل في المنازعات التى قامت بشأن امتلاك انطاكية ، وقام رجال الدين من بروفنسال Provencal بفرض العقاب على بطرس بارثولوميو Peter Bartholomew ، وهو ما سنعرض له فيما بعد . وفي رؤيا بطرس بارثواوميو اشارة الى عدم وجود العدل فى الجيش ، وفى احدى الرؤى التى كانت ليلة الخامس من أبريل ١٠٩٩م ، أمر المسيح بوجود نظام جديد للعدالة فى المعسكر الصليبى مع وجود قضاة من سلطتهم حق مصادرة ممتلكات المذنبين . وان كشفت هذه الرؤى عن شيء ، فانما تكشف عن مدى القلق الذى ساور الصليبيين العاديين بسبب غياب القانون .

كانت حالة الفوضى ثقيلة الوطأة على الفقراء بصفة خاصة ، ممن كانوا لا يتبعون قائدا شهيرا . واتضح استقلالهم عن القادة فى الطريقة التى سلكها المنادون heralds قبل معركة أنطاكية عندما كانوا يدعون الفقراء للانضمام الى أية فرقة عسكرية يرغبون فى الانضمام اليها . غير أن استقلال الفقراء كان موطن ضعف من الناحية الواقعية لأنه كان يعنى حرمانهم من حماية الشخصيات الكبرى لهم ، وكان الحل الذى اهتدى اليه بعضهم هو تنظيم أنفسهم فى صورة مجموعات . وانتشرت اشاعة فى أوربا ، أن الأولاد اليتامى قاموا بتشكيل فوج عسكرى وتوجهوا الى أنطاكية . وهناك جماعة مشهورة من المقاتلين أطلق عليها اسم الطافور The Tafurs ، وكان يتولى أمر قيادة الجماعة فارس رومانى فقد كل شيء ، وجرد من رتبته ، وأصبح أحد الجنود المشاة . وتزايدت أعداد القصص عن ذلك القائد المهم ،

وذلك بعد الحملة الصليبية الأولى وتحول الى أسطورة كشخصية مهمة كانت تتعامل مع الأمراء معاملة الند للند تقريبا • وربما كان رد فعل ظهور تلك الجماعة وظهور حركات مماثلة بين الفقراء أنه في شهر فبراير أو مارس ١٠٩٩م ، وافق ريموند السانت جيلي ، ومستشاره على تعيين بطرس الناسك قائدا رسميا للفقراء مع منحه صلاحية توزيع واحد على عشرين من كل الغنائم • وكان بطرس يحظى باحترام الفقراء وربما بقبولهم أكثر من القادة الذين كانوا من بينهم •

وفى الحقيقة بدأ صوت العامة من الصليبيين يسمع مع شتاء عامى ١٠٩٨م ــ ١٠٩٩م ، وأن هؤلاء هم الذين عملوا على مواصلة الحرب فيما بعد خشية المجاعة • وفى منتصف نوفمبر ١٠٩٨م ، عندما لم يتمكن الأمراء من تقرير ما يفعلون ، تجاسر العامة على انتقادهم ، وهددوا باختيار فارس ليكون قائدا عاما عليهم • وفى الثالث والعشرين من نوفمبر أجبر عدد كبير منهم كلا من ريموند السانت جيلى ، وروبرت الفلاندرى على أن يتوليا قيادتهم صوب معرة النعمان • وبعد سقوط معرة النعمان فيما بين الحادى عشر والثانى عشر من ديسمبر ، كان هناك تأخر مرة ثانية عندما كان الأمراء يرتجفون من شدة البرد • وزدا على الضغوط والمطالب الشعبية قاد ريموند الحملة الصليبية جنوبا ، ودعا الأمراء الآخرين الى اجتماع كبير حيث عرض عليهم أن يعملوا فى خدمته لقاء أجر ، غير أن أتباعه قاموا بتدمير أسوار معرة النعمان فى الخامس من يناير عام ١٠٩٩م ، عندما سمعوا أن المؤتمر انتهى الى طريق مسدود • وكان

ريموند يتميز غيظا غير أنه لم يكن أمامه خيار سوى معاودة المسيرة تجاه بيت المقدس فى الثالث عشر من يناير ١٠٩٩م بعد أن حرم من وجود قاعدة عسكرية له ، وفى الوقت نفسه ، فان عامة الصليبيين الذين ظلوا فى أنطاكية أصبحوا أكثر سخطا · وانحنى كل من جودفرى البويونى ، وروبرت الفلاندرى ، وبوهيموند أمام الضغط الشعبى ، ودعوا الى اجتماع عام فى الثانى من فبراير ١٠٩٩م ، حيث تقرر حشد القوات فى اللاذقية فى الأول من مارس لمتابعة سير الحملة جنوبا ·

وفى وقت المعاناة من الجوع والخوف كانت القيادة دون المستوى المطلوب ، وبخاصة بعد موت أدهيمار · وأخيرا ، فان عامة الصليبيين هم الذين أجبروا القادة على الزحف صوب بيت المقدس ·

الفصل الرابع

أفكار الصليبيين

يتأثر أى انسان حين يقرأ الخطابات التى كتبها الصليبيون ويطلع على الحكايات التى رواها شهود العيان ، فقد كان يسيطر على الصليبيين الشعور بالعجب والدهشة ، وقد أصابهم هذا الشعور بسبب تعاظم المهمة التى خرجوا من أجلها ، وبدأ يسيطر عليهم حين تركوا آسيا الصغرى واقتربوا من أنطاكية • وفى رسالة كتبت فى الثامن عشر من أكتوبر ١٠٩٧م ، لخص كل من أدهيمار وبطريرك بيت المقدس اليونانى الانجازات التى تحققت وقالا : « ان عددنا قليل بالنسبة للمسلمين • والواقع أن الله يدافع عنا » • وتأكد هذا المفهوم فى يناير التالى ١٠٩٨م فى خطاب أرسله الأساقفة فى الجيش الصليبى فقالوا : « كيف يواجه شخص ألف شخص ؟ فاذا كان عندنا نبيل واحد فلدى الأعداء أربعون ملكا ، واذا كان عندنا فوج من الجند regiment فلدى الأعداء فيلق ، واذا كان لدينا جندى من المشاة فلديهم سيل ، واذا كان لدينا قلعة فلديهم مملكة • اننا لا نثق فى أى حشد ولا فى أى قوة ولا فى أى سلطان •

وانما نثق فى درع المسيح الواقى ، وفى عـدالة قضيتنا ، فى ظل حماية جورج George ، وثيـودور Theodore وديميتريوس Demetrius ، والقديس بلير St Blaise ' المسيح الذين رافقونا بأمانة » ٠

وفى ظل افتقار الجيش الصليبى الى المؤن ، والى حسن القيادة ، كان رجال الدين يعزون الانتصارات التى كان يحققها ذلك الجيش الى عون الله له ٠ وبعد استيلاء الصليبيين على انطاكية وبيت المقدس ، وايقاع الهـزائم بالجيـوش الاسلامية ، انطلقت الأناشيد الصليبية تردد ، « ان يد الله معنا تشد أزرنا وتدود عنا » ٠ وعنـدما كان المقـاتلون يسترجعون الحوادث التاريخية التى مروا بها ، كانوا يدهشون مما وقع بهم ، فكانوا يقـولون : « من ذا الذى لا يصـاب بالدهشة ، فها نحن استطعنا مقاومتهم بل وبقينـا أحيـاء رغم قلة عددنا » ٠ وكان طبيعيا بالنسبة لهم أن يسترجعوا مآثر بنى اسرائيل ويقارنوها بمآثرهم ٠ فكانوا يهتـدون بصبر أيوب ، وقت المعاناة ، وأثنـاء زحفهـم ومشـقاتهم ونعيمهم ، وكانوا يتمثلون الاسرائيليين الذين خرجوا من مصر ، وذهبوا فى رحلة شاقة الى أرض الميعاد ٠ وكان أدهيمار يمثل بنبى الله موسى [عليه السلام] بالنسبة لهم ، وكمـا فعـل المكابيـون Maccabees [أسرة معـروفة فى تاريـخ العبرانيين] فقد حاربوا من أجل بيت المقدس ، وواجهـوا الموت ، وظهر عطف الله عليهم وتأييـده لهـم فى صـورة معجزات ٠ وفاقت المعجـزات التى تحققت أثنـاء الحـرب الصليبية جميع ما تحقق لبنى اسرائيل والمكابيين فى حين لم تزد معاناة الصليبيين عن المعاناة التى تعرض لها القدامى

من بني اسرائيل أو المكابيين الذين سار الصليبيون على هديهم واتخذوهم قدوة لهم .

وازداد عمق ايمانهم الراسخ بأنهم يعملون فى ظروف عامة فوق الطبيعة ، اذ بعد فترة من الهدوء أصبحت الأحوال الجوية مضطربة ، بمجرد تحركهم من آسيا الصغرى الى سوريا . ففى أوائل أكتوبر ١٠٩٧م ، ظهر مذنب ، Comet له ذيل يشبه السيف ــ وقد ورد ذكره من قبيل المصادفة فى السجلات الصينية والكورية . وعندما اهتزت الأرض أثناء زلزال وقع فى الثلاثين من ديسمبر توهجت السماء وتحولت الى اللون الأحمر ، ثم ظهر ضوء باهر على شكل صليب ، وربما كان ذلك اشارة مبكرة الى ، « الأضواء التى تصاحب الزلزال » . وفى ليلة الثالث عشر من يونيو ١٠٩٨م ، سقط نيزك meteor من الغرب على معسكر المسلمين خارج أنطاكية . ويبدو أن ليلة السابع والعشرين من سبتمبر كانت ليلة غير عادية ، اذ ظهر شفق قطبى aurora ، وكان ضخما لدرجة أمكن معها مشاهدته فى جزء كبير من نصف الكرة الشمالى . وفى الخامس من يونيو ١٠٩٩م ، حدث خسوف للقمر عندما اقترب الصليبيون من بيت المقدس . وتم تفسير تلك الأمور على أنها بشائر للنصر المسيحى . وقيل آنذاك انه لو انعكست الآية وحدث كسوف للشمس بدلا من خسوف القمر ، لكان ذلك نذيرا بهزيمة الصليبيين . وبالطبع كان ذلك العصر هو العصر الذى كان الناس يهرعون فيه بحثا عن آراء المنجمين وتدوينها . ويقال ان الأسقف جيلبرت الليزيوى Gilbert of Liseux ، فى غرب أوربا كان قد تنبأ بهجرة شعوب غرب أوربا قبل دعوة البابا أوربان

لذلك فى مجمع كليرمونت ، وكذلك تنبأ منجم مسلم بانشيء نفسه، عند مقابلته مع الكونت روبرت لو فريزون الفلمنكى Robert Le Frison of Flanders الذى كان فى طريقه الى بيت المقدس لزيارة الأماكن المقدسة فى الثمانينيات من القرن الحادى عشر • وأثناء الحملة الصليبية الأولى ، كشف أحد تلاميذ آرنولف الشوكى Arnulf of Chocques له عن نبوءة تدل على انتصار الصليبيين فى أنطاكية ، وكان ذلك التلميذ من المنجمين • وهناك مثال كان شائعا عن اهتمام الصليبيين بعلم التنجيم ويظهر هذا المثال فى قصة كانت شائعة بينهم خلال الأسابيع التى سبقت وقوع المعركة فى أنطاكية ، ووردت القصة فى أعمال الفرنجة Gesta Francorum ، وفى تاريخ بطرس التيودبودى History of Peter Tudebode وتذكر لنا هذه القصة الحوار الذى دار بين القائد التركى كربوغا ــ الذى كان مغرورا وجاهلا وساذجا ــ وبين والدته التى حاولت أن تثنيه عن خوض معركة ضد الصليبيين ، على أساس أن مقاومة المسلمين لهم ستكون عديمة النفع لأن الصليبيين لا يحاربون وحدهم ، فهم أبناء الله ، كما أن غزوهم لسوريا ، قد تنبأ به الكتاب المقدس ، وأكدت الحسابات الفلكية صدق هذه النبوءة •

والواقع أن اكتشاف الصليبيين لبعض الآثار المقدسة التى كانوا يكنون لها احتراما فائقا ، ساعد على تدعيم المهمة التى جاءوا من أجلها ، والتى أنبأت عنها السماء بكل ما كانت تأتى به من ظواهر غير طبيعية ، كما أنهم كانوا يحملون بعض الآثار المقدسة حين تركوا أوربا • كما أخذ ريموند السانت جيلى كأس القربان الخاص بالقديس روبرت

الشيز ــ ديوى Robert of Chaise - Dieu • وبالاضافة الى ذلك كان جودفرى البويوني يحمل معه مذخرا reliquary يحتوى على آثار مقدسة للقديس سمعان St Simeon ، حين تأهب لخوض معركة أنطاكيـة • واعتقد مؤلف النسخة البروفنسـالية Provencal Version لأنشـودة أنطاكيـة Chanson d'Antioche أن سمعان هو الذى ابتهج عند ظهور الطفل يسوع في المعبد • غير انه لو افترضنا ان ما جاء بالأنشودة كان صحيحا ، فمن المرجـح انهـا كانت تخص القديس سـمعان الترايرى St Simeon of Trier الذى كان ناسـكا صقليـا بونيـا ، واستقر به المقـام فى ترير ، بعـد أن كان يعيش فى فلسـطين فى أواخـر القـرن الحـادى عشر الميـلادى ، ومـات هنـاك ، لـذا كـان من اللائـق نقل رفاته مـع الجيش • وكان أدهيمار يحمـل معـه قطعـة من الصليب الحقيقى ، والتى يظن أنه قد أحضرها معه من غرب أوربا ، أو وجدها فى القسطنطينية أثناء زحف الحملة ، وتم نقل هذا الصليب الى مقر معركة أنطاكية • وبعد موت أدهيمار ورحيل الصليبيين عن أنطاكية ، قام كل من جودفرى البويونى وروبرت الفلاندرى بنقل هذا الصليب وبقية الآثار الأخرى الموجودة بكنيسة أدهيمار من أنطاكية الى اللاذقية ، مما ضايق شخصا كثير الرؤى كان مع ريموند السـانت جيـلى ، فقد زاره شبح أدهيمار فى حلم ، وأبلغه رسالة تتعلق بنقل بقايا الصليب • وكلف ريموند السـانت جيلى وليم هيـو المـونتييلى William Hugh of Monteil بالبحث عن هـذا الصليب وعاد وليم هيو بهذا الصليب الى معسـكر الرقة ، مما أثار أتباع ريموند فخرقوا خيامهم • وبذلك مهـدوا

الطـريق الي فك الحصـار واسـتئناف الـزحف • وكان الصليبيون قد وقفوا على حقيقة الأوضاع حين فشل بطرس بارثولوميو Peter Bartholomew فى اجتياز المحنة التى تعرض لها • وزادت درجة تقديسهم للآثار المقدسـة بعـد اجتيازهم القسطنطينية ، حيث استطاعوا جمع كمية كبيرة من الآثار منها ، وكذلك حينما أتيحت لهم فرصـة تبجيـل الأيقونات العجيبة ـ مثل ـ أيقونة المسيح فى أنطاكيـة ، التى تركها المسلمون فى قبور كاتدرائية أنطاكية بعد أن حولوها الى مسجد • ويقال ان أحدا لم يستطع نقل هـذه الأيقونة من مكانها ، وقد لقى رجل تركى مصرعه حين حاول انزالها • وكانت هذه الآثار المقدسة ـ التى هى عبارة عن بقايا آثار القديسين المعروفين لدى الصـليبيين ـ بمثـابة حلقة الوصل بين هذه البيئة الشرقية الغريبة التى لم يألفها الصليبيون ، وبين بيئتهم الأصلية • ولا يشق علينا تصور المشاعر المضطربة فى صدور الصليبيين حينما شاهد الجيش الصليبى معالم بيت المقدس ، ولو قدر لهـذه المعـالم ذات الأهمية الدينية الفائقة أن تكون بغرب أوربا ، لصـارت أهم مراكز العبادة هناك • فها هى مدينة صور التى زارها المسيح عيسى [عليه السلام] ، وها هى مدينـة قيصرية ، حيث كان الرسول بطـرس يلقى موعظتـه فى بيت قائد المائة • ويقال ان حاكم مصر قد هدد بالقضاء التام على كافة الأشياء المتعلقة بعيسى [عليه السلام] حتى لا يأتى الفرنجة ويطالبوا بها • ولكن فلسطين كانت تغص بالآثار المقدسة ، وظلت الأرض تحتفظ فى جوفها بهذه الآثار التى أخـذت تتكشف أمام أعين الصليبيين يوما بعد يوم •

والواقع أن الصليبيين كانوا قد بدءوا يجمعون الآثار المقدسة بمجرد أن غادروا أوطانهم • فأعطى الدوق روجر Roger روبرت الفلاندرى بعض الآثار المقدسة فى مدينة أبوليا Apuila • وفى الامبراطورية البيزنطية سرق جيربو الليلى Gerbault of Lille ذراع القديس جورج St George من أحد الأديرة اليونانية • وعند موت جيرارد البنوكى Gerard of Buc عهد الى ذلك الفلاندرى بالمحافظة على ذلك الأثر ، فاحتفظ به فى خيمته • وبسبب محبته الشديدة للقديس أصبح يعرف ، « بابن القديس جورج » • وما أن اجتاح الصليبيون سوريا حتى تم اكتشاف آثار مقدسة أخرى • وتم اكتشاف مذخر reliquary فى كنيسة القديس أندرو St Andrew فى أنطاكية ، وكان يحتوى على اصبعين من أصابع القديس • وتلقى بطرس دزيدريوس Peter Desiderius تعليمات بأن يجمع أربع ذخائر reliquaries للقديسين الأربعة ، وهم : القديس سيبريان Cyprian ، والقديس ابيماخوس Epimachus ، والقديس لوينتيوس Leontios والقديس يوحنا ذهبى الفم John Chrysostom من كنيسة القديس St Leontios بأنطاكية • ووجد بطرس هذا ومعه ريموند السانت جيلى ، ووليم الأورانجى ، وريموند الأجوليرى المذاخر الأربعة ، ومعها مذخر خامس ليس عليه توقيع صاحبه ، على الرغم من أن بعض السكان المحليين اعتقدوا أن هذا المذخر يخص القديس ميركيورى St Mercury ولأسباب لاهوتية ، لا يصح تكريم عظام لا يعرف صاحبها، لذا تركوا العظام التى وجدوها فى مكانها بالكنيسة •

بيد أن بطـرس دزيدريوس Peter Desiderius رأى القديس جورج St George في المنام مرتين ، وأبلغـه القـديس جورج بأن تلك الرفات المجهولة تخصه أيضا · وطلب من بطرس أن يحفظها مع آثار القديسـة ثيـكلا St Thecla وكما سنرى عاد كثير من الصليبيين الى بلادهم ومعهم آثار مقدسة حصلوا عليها من الشرق ، ومن بين هؤلاء الفـارس النورمانى ايلجر بيجود Ilger Bigod الذى كان نائبا لتنكرد Tancred ، القائد العام للقوات الصليبية فى بيت المقدس، والذى كان قد كشف عن مخبأ به خصلة من شـعر السـيدة العذراء Our Lady ، كانت قد مزقتها بيدها حزنا عـلى المسيح عيسى [عليه السلام] ·

ويقال ان الحربة المقدسـة التى طعن بهـا الجنـدى الرومانى جنب المسيح ، كانت أغرب الاستكشـافات ، ففى الفترة الواقعة بين ٣٠ ديسمبر ١٠٩٧م ، و ١٠ يونيـو ١٠٩٨م قال بطرس بارثولوميو Peter Bartholome وهو كاهن من جنوب فرنسا ـ بأنه رأى خمس رؤى للقديس أندرو St Andrew الذى انتقل به الى معسكر المسلمين فى أنطاكية على نحو يشبه الاعجاز ، كما انتقل به الى كاتدرائية القديس بطرس · ثم ما لبث هذا الرجل أن أخرج الحربة التى كانت مدفونة بالأرض على مقربة من الهيـكل · وكان القـديس أندرو قد قال بأن من يحمل الحربة لن يهزم فى حرب أبدا · وحين تعرض الصليبيون لمحنة شـديدة بعـد أن تعرضـوا لحصار المسلمين فى أنطاكية ، أبلغ بطـرس جميع الأمراء بما رآه فى المنام · وعـلى الفور دخـل بطرس فى حمـاية الكونت ريموند Count Raymond الذى عهـد الى ريموند

الأجوليرى Raymond of Augilers بأمر رعايته • ولدينا عدة روايات تفصيلية للحوادث التاريخية التالية المتعلقة بالحربة ، وان عبر كل طرف من الأطراف عن هذه الحوادث التاريخية من وجهة نظره ، وقال بطرس بارثولوميو ان القديس آندرو جاءه فى المنام مرة أخرى فى تلك الليلة حيث أكد له على أن الله أمر باعطاء الحربة الى ريموند السانت جيلى ، وأصدر تعليمات مفصلة بخصوص قداس الاحتفال الدينى The Office للاحتفال بالعثور على الحربة •

ان شائعة اكتشاف الحربة حولت معنويات الصليبيين ، وكانت احدى العوامل المهمة فى اتخاذ قرار الخروج من أنطاكية وشن هجوم مضاد لفك الحصار ومقاتلة جيش كربوغا • ونظر الصليبيون الى تلك الحربة بكل احترام، وحرص ريموند السانت جيلى على تنفيذ تعليمات القديس آندرو من أجل المحافظة عليها • ومن الواضح أن الحربة كانت مصدر ربح لريموند ؛ لأن العطايا انهالت عليها ـ حتى أدهيمار قدم منحة صغيرة ـ واستفادت خزانة ريموند ، وفيما بعد اتهمه الناس بأنه شخص جشع • ومن ناحية أخرى أبدى القادة الآخرون الارتياب ـ بل والعداء ـ فى البعض الآخر فيما يتعلق بالحربة ، فقد كانت هناك بالفعل حربة أخرى بالقسطنطينية ، ولم يختلف رد فعل أدهيمار عن رد فعل أى أسقف كاثوليكى آخر ، ازاء المزاعم غير المادية وغير الدينية المبالغ فيها ، لذا فقد عبر عن ارتيابه صراحة فى أمر الحربة علنا • وحذا حذو أدهيمار كل من أرنولف الشوكى Arnulf of Chocques ، وأسقف أبت Apt

وانتابت الشكوك كلا من روبرت النورماندى ، وروبرت الفلاندرى ، وتنكرد ، وبوهيموند ، واعتقدوا أن بطرس أحضر معه مجرد قطعة من الحديد الى الكاتدرائية • بيد أن شعورا بالبهجة والحماس قد سيطر على الجيش • ولاذ المتشككون فى أمر الحربة بالصمت بعض الوقت ، فى الوقت الذى كانت تجرى فيه بعض الحوادث التاريخية وفقا لما يرتضيه المؤمنون ، وكان ريموند السانت جيلى Raymond of St Gilles مريضا أثناء معركة أنطاكية ، فتبع رجاله — الذى كان بينهم ريموند الأجوليرى Raymond of Aguilers حامل الحربة — أدهيمار Adhemar • وبدا الأمر وكأن أدهيمار نفسه أمر بحمل الحربة فى المعركة • بل وشاعت رواية تحكى أن أدهيمار نفسه كان يحمل الحربة • على أن أكثر القصص غرابة هى التى قالت ، ان جيشا من القديسين والموتى الصليبيين شاركوا المسيحيين فى معركة أنطاكية وان هذا الجيش قدم التحية للحربة عند مرورها ، وذلك بأن نكس لها بيارقه وأعلامه •

وهناك رواية أخرى تقول انه قبل الهجوم المضاد الذى شنه الصليبيون لفك الحصار الذى وقعوا فيه فى أنطاكية ؛ عرض أدهيمار الحربة على كل القادة على التعاقب ، غير أنهم جميعا رفضوا حملها على أساس أنهم يرغبون فى المشاركة الفعلية فى القتال ، ولذلك وافق أدهيمار على حملها بنفسه ، وأقنع ريموند السانت جيلى أن يعيرها له • ونتيجة لذلك ساد اعتقاد لدى الأوساط الأوربية — حتى الراقية منها — بأن هذه الحربة هى الحربة الحقيقية ، ويرجع ذلك الى الاعتقاد الخاطىء بأن أدهيمار

قد سلم بأنها الحربة الحقيقية • وزاد على ذلك ظهور أسطورة في القرن الثالث عشر تقول انه قد تم اكتشاف أحد أكفان المسيح في دير كادوان Cadouin ، في نفس مكان الحربة . واحتفظ أدهيمار بالكفن ، وعزا الصليبيون انتصارهم في أنطاكية للحربة ، وذكر ريموند الأجوليرى أنه لم يصب احد من الذين كانوا يقاتلون بالقرب منها • وبلغ الحماس حدا جعل القادة أنفسهم ــ بما فيهم بوهيموند ، وروبرت النورماندى ، وروبرت الفلاندرى ــ يعزون سبب انتصارهم الى هذه الحربة حين كانوا يبلغون أخبار انتصارهم للبابا • وبالاضافة الى ذلك ، فقد تم دفن جثمان أدهيمار في الحفرة التى وجدوا فيها الحربة • وذكر بطرس بارثولوميو أن أدهيمار جاءه في المنام ، واعترف له بأن الحربة حقيقية ، وأن الله عاقبه على عدم ايمانه بصحتها •

ولفترة من الوقت ارتفعت الروح المعنوية لدى الجيش الصليبى • ونظر عامة الصليبيين الى ريموند السانت جيلى على أنه القائد الطبيعى للصليبيين لأنه عهد اليه بحمل الحربة ، وأبلغه بطرس بارثولوميو بالمكان الذى يضع فيه الحربة في جنوب فرنسا بعد انتهاء الحرب الصليبية • بل اضطر قائد المتشككين ــ أرنولف الشوكى Arnulf of Chocques أن يعد بأنه سيعمل على اصلاح ما وقع فيه من خطأ على مسمع من الجميع ، وذلك بعد أن واجه اجتماعا أقر فيه جميع الحاضرين بأنهم مروا برؤى تؤكد حقيقة الحربة ، غير أنه لم يف بما وعد به • وتزايد تأييد الجيش له منذ شهر أبريل ١٠٩٩م ، بعد أن اتسمت رؤى بطرس بارثولوميو Peter Bartholomew بالغرابة • وكان بوهيموند وفرسانه

يسخرون من هـذه الرؤى وحنق بطـرس بارثولوميو عـلى أرنولف الشوكي ، فاقترح على رجال الدين بأن يمر بمحنة، وصادف ذلك الاقتراح هوى فى نفوسـهم ، فوافقوا عـلى الفور . لذا ارتدى الزى الكهنوتي وحمل الصليب ، واجتاز حفرة مشتعلة بأخشاب شجرة الزيتون فى الثامن من ابريل ١٠٩٩م ، واجتاز هذه المحنة بسـلام ، وقيـل انه اصيب بالأذى بعد ذلك ، حين تزاحمت حوله الجموع ، لجمع الرماد المتبقى فى الحفرة . ويقال ان طائرا شـوهد يحلق فوق رأسه ، وان رجلا يرتدى الزى الكهنوتي قد شـوهد وهـو يتقدمه فى اجتياز النيران . والواقع أن بطرس قد ذكـر أنه تقابل مع المسيح وسط الحفـرة المشـتعلة بالنيران . ولكنه أصيب بأذى شديد ، ومات بعد مضى اثنى عشر يـوما على هذه الحادثة . وكان من الطبيعى أن يقف الصليبيون على حقيقة الأمر . وشعر أرنولف الشوكى ، والأسقف أرنولف أسقف مارتيرانو Arnulf of Martirano بضرورة الحاجة الى خلق بديل ينصب حوله اهتمام الصليبيين ، فوضعا صورة ذهبية للمسيح على احدى آلات الحصار التى كان يستخدمها جودفرى البـويونى Godfrey of Bouillon أثناء حصار بيت المقدس، وشجعا على تقديم الهبات لها ، بيد أن ريموند السانت جيلى ظل مقتنعا بأن هذه الحربة هى الحربة الحقيقية ، وحنق على أرنولف الشوكى ، وأرسل رجاله لمطاردته وطرده . واضطر روبرت النورماندى وروبرت الفـلاندرى الى حمايتـه . وبعد سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين نفذ ريموند بعض التعليمات التى وردت اليـه من القـديس أندرو عن طريق بطرس بارثولوميو ، وقام بتنفيذها بكل وقار وجهالة اذ انها منافية للعقل ، ومثيرة للضـحك ، فقـد كانت تلك

التعليمات تقتضى بأن يعبر نهر الأردن على رمث (طوف) ، وهو مرتد قميصا قصيرا وبنطلونا قصيرا breeches ، وأن يجدد تعميد نفسه بنفسه ، ثم يحتفظ بتلك الملابس الداخلية مع الحربة • وحمل كاهنه الحربة أثناء معركة عسقلان ثم أخذها معه الى القسطنطينية فيما بعد ، ويبدو أنه فقدها فى آسيا الصغرى بعد تعرض الصليبيين لنكبة سنة ١١٠١م • ورغم هذا يحتمل آن القشرة المعدنية سقطت من على الحربة قبل ذلك التاريخ ، اذ ان قطعة منها ظلت موضع تبجيل فى بيت المقدس فى العشرينيات من القرن الثانى عشر • وبعد ذلك بقرن قالت كنيسة أردر Ardres ان أرنولد الأردرى Arnold of Ardres كان قد أحضر معه قطعة صغيرة من الحربة •

واذا كانت الحربة هى أكثر الآثار غرابة ، فان الصليب الحقيقى كان أشهرها جميعا • فما أن وضعت قطعة الصليب فى كنيسة القبر المقدس حتى اختفت قبل الحملة الصليبية الأولى • وتم اكتشاف قطعة الصليب للمرة الثانية فى الخامس من أغسطس ١٠٩٩م على يد أرنولف الشوكى Arnulf of Chocques بطريرك بيت المقدس الجديد ، الذى كان قد قام بالبحث حتى وجد الصليب مدفونا فى ردهة كنيسة atrium ، وربما كان فى رقعة الأرض التى بها القبر المقدس ، وذلك بعد عملية تنقيب مشابهة لتلك التى أجريت عند اكتشاف الحربة المقدسة • وحمل أرنولف تلك القطعة من الصليب فى معركة عسقلان • ومنذ ذلك الحين ظلت تحفظ فى كنيسة القبر المقدس ، ويحملها الصليبيون معهم فى كل معركة يخوضونها ، اذ كانت مصدر تبجيل

عظيم فى العالم المسيحى اللاتينى الى أن فقدوها فى معركة حطين ١١٨٧م ٠

ان العلامات التى ظهرت فى السماء ، واكتشاف الآثار المقدسة ، والأطياف التى كانت تظهر لبعض الصليبيين ، التى سأتحدث عنها فيما بعد ، والتى صاحبت الانتصارات الرائعة التى حققها الصليبيون قد جعلتهم اكثر ميلا الى الاعتقاد فى امكان تحقيق المعجزات ٠ فكانوا يؤمنون فى امكان تزايد عدد الجنود وقت الحرب ، كما اكتسب الزمان أهمية غير طبيعية لديهم ٠ فعلى سبيل المثال ، استولى الصليبيون على بيت المقدس فى عيد تفرق تلاميذ المسيح وحزنهم عليه ، وبذلك حول الصليبيون هذا العيد الذى اتسم بطابع الحزن من جانب تلاميذ المسيح ، الى مناسبة للاحتفال بعد سيطرتهم على بيت المقدس ٠ وكان الصليبيون يرون أن حملتهم الصليبية تتسم بطابع الاعجاز مثل أى حدث حربى ورد ذكره فى العهد القديم من الكتاب المقدس ٠ لذلك صاروا ينظرون الى أى تزامن للحوادث والمواقف على أنها معجزات ، منها على سبيل المثال عندما أصيب أحد الرجال بجرح خطير فى معرة النعمان وعاش أسبوعا دون طعام ، أو عندما أصاب أحد الصليبيين حمامة زاجلة تابعة للمسلمين ، فقالوا : « فبعدها لم يتمكن الحمام من مجرد الطيران حتى يصيبنا بأذى » ٠ ــ أو عندما أربكت حركات القطعان الشاردة جيش المسلمين ، وساعدت على تقدم الجيش المسيحى أثناء معركة عسقلان ٠ ومن ناحية أخرى ، نظر الصليبيون الى الحوادث الطبيعية غير المتوقعة على أنها حدثت بفعل العناية الالهية ٠ فعلى سبيل المثال ، هبت ريح شديدة غطت على صياح الصليبيين أثناء دخولهم مدينة

أنطاكية ، كما أن المطر الخفيف ساعد على انعاش الصليبيين ، عند خروجهم لملاقاة العدو فى أنطاكية ، وملأ المطر خندقا مائيا أمام مدينة أنطاكية : وبذلك باءت بالفشل كافة محاولات العدو لحرمان الصليبيين من الماء أمام معرة النعمان • وساعد يوم ملبد بالغيوم الصليبيين فى معركة عسقلان •

واندهش الصليبيون حين أدركوا أن قدرة الله قد ساعدتهم على استيعاب المبادىء التى اقرها البابا أوربان ، وذلك حين لبى « فرسان الصليب » دعوته لحشد الحملات الصليبية • ولم يكن الصليبيون جماعة من الحمقى ، فعلى الرغم من مبالغتهم فى عدد جنودهم ، فانهم كانوا يدركون مواطن الضعف لديهم ، وضعف قيادتهم ، ونقص مؤنهم • واعتقد الصليبيون أنهم خرجوا للجهاد فى سبيل الله ، وبدأت الدعوة للحرب الصليبية من هذا المنظور ، وكانت صيغة المعركة ، « هذا ما يريده الله Deus hoc Vult » • وظهر هذا الايمان الراسخ فى أول خطاب مازال موجودا حتى الآن عن الحملة الصليبية كتبه ستيفن البلوى Stephen of Blois فى الرابع والعشرين من يونيو ١٠٩٧م بعد سقوط نيقية • وأشار ستيفن فى الكتابات التى أملاها الى الحملة الصليبية على أنها « جيش الله » ، وكانت هناك تعبيرات مغايرة وصفتها خطابات أخرى مثل « فرسان المسيح » • ووصف الصليبيون استسلام نيقية على أنه نصر منحه الله لهم ، كما قالوا ان الرحمة الالهية أحبطت النوايا الشريرة التى أضمرها الأتراك • وظلت فكرة الحرب فى سبيل الله مقبولة تماما لدى الجميع • وأنهم كانوا يخوضون حربا مقدسة فى سبيل اعلاء كلمة الله الذى ظهرت مساعدته المادية لهم

بكل وضوح . وكلما حقق الصليبيون انتصارا زاد تمسكهم بهذه المعتقدات . وأشاعوا أن مقاومة المسلمين لن تجدى لأنهم يحاربون ضد مشيئة الله . « والا لماذا ولى القائد الاسلامى كربوغا الادبار ، فى الوقت الذى كان تحت امرته الرجال والجياد ؟ » .

وبالاضافة الى ذلك ، فقد ظهرت نبوءات الله بشأن الحملة العسكرية ، ففى سبتمبر ١٠٩٩م، اتضح للمشاركين فى تلك الحملة ان انتصارهم جاء وفقا للنبوءات التى وردت فى الكتاب المقدس ، اذ جاءت هذه النبوءة ، « الله الذى وسعت رحمته كل شىء نفذ وعوده التى وعد بها فى الأزمنة القديمة » . وقد أيد ذلك البابا بسكال الثانى Paschal II فى أبريل ١١٠٠م . فقال البابا بسكال الثانى فى هذا الصدد : « أنتم توفون بما وعد به الرب شعبه من خلال النبى . فقد قال النبى : « سأحيا معهم وأمشى معهم » . وقد عاش الله فى قلوبكم بفضل ايمانكم كما سترونه من خلال هزيمتكم لأعدائه . فمما لا شك فيه أن الرب قد جدد معجزاته القديمة » .

وتجلت قدرة الله أيضا من خلال ما شاهده بعض الصليبيين من رؤى متعددة . وفى هذه الرؤى كان الله أو المسيح يعنفهم أو ينصحهم ، اما شخصيا أو عن طريق الوسطاء من القديسين أو الموتى من الصليبيين ، الذين حسبما شاع الاعتقاد كانوا يشاركون فى القتال بجانب الأحياء من حين لآخر . ويقال انه فى أوائل أغسطس ١٠٩٧م ظهر القديس جيل St Gilles فى المنام الى كونت سكسونيا، وأكد له أن ريموند السانت جيلى Raymond of St Gilles سيشفى من المرض الذى يعانى منه . وبعد الثامن عشر من

آكتوبر ١٠٩٧م يقال ان بطريرك بيت المقدس اليونانى شاهد فى المنام المسيح بنفسه يصنع تاج الاستشهاد على رءوس قتلى المعارك الصليبية · ولم يشا بطرس بارثولوميو أن يخبر القادة بما شاهده فى المنام حتى يونيو ١٠٩٨م ، وان كانت تلك المشاهدات قد حدثت فى الثلاثين من ديسمبر ١٠٩٧م ، فى وقت الزلزال الذى تعرضت له أنطاكية · وأثناء عبور آسيا الصغرى بدأت القوى الخارقة للطبيعة تفرض نفسها ·

وعلى الرغم من أن الرؤى كانت تحدث للمسيحيين الشرقيين واللاتين أيضا ، وتحدث على نطاق واسع بين طبقات الصليبيين ، فان عدد الرؤى التى شاهدها صليبيون من جنوب فرنسا ، واقليم بروفنس Provence لا يقل عن ست رؤى وكلها لأتباع ريموند السانت جيلى ، وأدهيمار اللوبوى Admémar of Le Puy ومن بين الذين شاهدوا رؤى أسقف ابت Apt ، القس سيمون، والقس برتراند Bertrand ، وكلاهما من باسى ، وشاهد كل منهما رؤيا واحدة ، وشاهد قس من بورجوندى السفلى Lower Burgundy رؤيين ، واسمه ستيفن البلنسى Stephen of Valence · وشاهد قس آخر ست رؤى واسمه بطرس دزيدريوس Peter Desiderius الذى كان قسا خاصبا عند ايسورد الديى Osoard of Die وشاهد بطرس بارثولوميو Peter Bartholomew ثلاث عشرة رؤيا · ومن الممكن وجود شيء ما فى اتجاهات الصليبيين من جنوب فرنسا ، وفى بروفنسال Provencal ساعد على حدوث الرؤى المتكررة التى تتم أثناء النوم وكان ينظر اليها على أنها رؤى صادقة Vision · ومن الواضح أنهم كانت لهم شهرة خاصة فى هذا المجال ، وقد يرجع ذلك إلي ايمان

ريموند السانت جيلى الراسخ بالرسائل التى نقلها أشخاص كل منهم كثير الرؤى • ومن الجدير بالذكر أنه برغم عدم ظهور القديس جيل St Gilles سوى مرة واحدة ، فان القديسين الآخرين اللذين لهما كل احترام وتبجيل عند ريموند وهما القديس روبرت St Robert ، والقديس فيث St Faith لم يظهرا على الاطلاق • وعامل جيش جنوب فرنسا رسائل بطرس بارثولوميو التى وردت فى الرؤى بكل جدية واهتمام • وكما علمنا فقد غيرت الرؤى صيحة الحرب battle-cry ، وكان هناك شعور بالقلق لأن الصليبيين الذين كانوا على مقربة من بيت المقدس لم يكونوا حفاة كما أمرهم بطرس وفقا لنص المنام الذى شاهده • وقد قام القس ريموند الآجوليرى Raymond of Aguilers بتسجيل كافة التجارب المرتبطة بهذه الرؤيا وأثرها على الصليبيين • وهناك ميل في الوقت الحاضر الى حذف كل التفاصيل التى أوردها القس ريموند على أساس أن أسلوبه وتصوراته كانت مستمدة من الكتاب المقدس ، والطقوس الدينية ، ومن ثم لم يكن أسلوبا وصفيا كاملا ، بيد أن ذلك كان أسلوب معظم الكتابات المعاصرة • ومن حين لآخر أيدت كتابات ريموند ما ورد عن ذكر الرؤيا التى نسبت الى ستيفن البلنسى Stephen of Valence ، وبطرس بارثولوميو Peter Bartholomew ، وبالاضافة الى ذلك فقد كان فى حوزته قدر كبير من المعلومات المفصلة التى توحى بأنه كان يكتب ما كان يعتقد أنه الحقيقة وشاركه كل أفراد جماعته الاعتقاد نفسه • ومن ناحية أخرى فاذا كان قد قبل صحة معلومات البطريرك اليونانى ، وستيفن البلنسى بعد أن أقسم ستيفن على صدق ما قاله ، فانه عاد وأبدى شكوكه فيما

شاهده بطرس بارثولوميو فى منامه وشاركه كثير من كبار رجال الكنيسة الموجودين معه تلك الشكوك ·

وهناك روايات تحكى عن قيام المسيح بعدة زيارات · ولقد أشرت الى رؤيا البطريرك اليونانى · وكان هناك ظهور ملحوظ فى ليلة العاشر من يونيو ١٠٩٨م · وفى فترة المحنة الحقيقية فى انطاكية ذهب ستيفن ومعه آخرون للصلاة فى كنيسة القديسة مريم St Mary · واستغرق زملاؤه فى النوم غير أنه شاهد شكلا وسيما أثناء صلاته وسأل ستيفن اذا ما كان يعرفه ، وعندما شاهد ستيفن صليبا خلف راس ذلك الشكل أدرك أنه المسيح · واعترف الشكل بأنه المسيح · وأمر المسيح ستيفن بأن يعترف بايمانه ، واستفسر عن تشكيل قيادة الجيش ، وذكره بالمساعدات التى قدمها للصليبيين · وعبر المسيح عن لومه الشديد لسلوك الصليبيين المشين فى أنطاكية · وفى تلك اللحظة ظهرت السيدة العذراء ، والقديس بطرس St Peter للشفاعة عن المسيحيين ، وعندئذ أبدى المسيح شفقة ورحمة ، ثم أمر ستيفن بأن يبلغ الأمراء بالعودة الى طريق الفضيلة والتقوى · وأنه سيقدم لهم مساعدة قوية خلال خمسة أيام ، وكان ذلك اكتشاف الحربة · وفى الوقت نفسه أمرهم بأن ينشدوا فى القداس الاحتفالى اليومى ترنيمة ، « كونوا رعايا الكنيسة Congregati Sunt » ·

وبعد ذلك بتسعة أشهر ظهر المسيح لبطرس بارثولوميو فى الخامس من أبريل ١٠٩٩م · وفى هذه المرة كان الصليبيون أمام الرقة ، وكانوا منقسمين فى الرأى بشأن مواصلة حصار المدينة أو الاندفاع صوب بيت المقدس ·

وكان ريموند السانت جيلى رافضا فك الحصار عن المدينة وليس من المدهش أن يرى بطرس رؤيا تعطى تأييدا مقدسا لوجهة نظر ريموند المذكور • وجاء كل من المسيح ، والقديس أندرو St Andrew ، والقديس بطرس St Peter ، ورجل أسمر الى بطرس عندما كان مستغرقا فى التأمل فى كنيسة الكونت التابع له ، وكان يفكر بشيء من الغيرة والحسد بشأن تجربة ستيفن البلنسى • وأعلن المسيح عن نفسه ، ثم تغيرت صورته ، وظهر مرة ثانية وهو معلق على صليب خشبى ، عاريا الا من مئزر من القماش الأرجوانى ينتهى بأشرطة بيضاء وحمراء وخضراء ، والرسل من حوله يشدون من ازره • وأبلغ المسيح بطرس بأن الصليبيين يستطيعون الوصول الى درجات متميزة ، على قدر اخلاصهم للمهمة التى أتوا من أجلها ، وعلمه كيفية التعرف على الخونة الذين يجب اعدامهم فورا • وأصدر تعليمات لتنظيم الجيش ، وأعطى بطرس سلطة اصدار قرار الحرمان الكنسى ، فى حالة اتباع القضاة الطريق المستقيم • وقبل أن يموت بطرس بارثولوميو أبلغ ريموند الأجوليرى أن المسيح قابله وسط اللهب وأمسك بيده وقال انه سيؤذى جسديا ، لأنه شك فى رؤاه الباكرة وعلى الرغم من ذلك ، فانه لن يدخل نار جهنم •

وفى مرات أخرى ، ظهر المسيح ملتزما الصمت ففى الفترة ما بين ٣٠ ديسمبر ١٠٩٧م و ٢٢ سبتمبر ١٠٩٨م ظهر المسيح سبع مرات لبطرس بارثولوميو فى شكل شاب واقف وصامت ، فى حين تكلم كل من القديس أندرو St Andrew ، وأدهيمار الذى كان قد مر على وفاته وقت

قصير • وفي الخامس عشر من يونيو ١٠٩٨م تم التعرف على شخصية المسيح عن طريق جرح فى قدمه ولم يحدث ذلك الا بعد مرور اربع مرات على ظهوره • وعندما تكلم المسيح الى الأشخاص الذين شاهدوه فى الرؤى ، عبر لهم عن غضبه لتفشى الخطيئة ، وأعلن ارتياحه لوجود الشفاعة ، وللأداء السليم للشعائر الدينية والحياة المستقيمة • وكان المسيح يقدم التشريعات • كما عبر المسيح عن كراهيته الشديدة لغير المسيحيين •

ومعظم الذين ظهروا فى الرؤى كانوا من القديسين فى غالب الأحوال • وظهر لكل من اسقف أبت Apt ، ولبطرس بارثولوميو رجل طويل أسمر جاحظ العينين أصلع تقريبا (هل كان هذا هو القديس حنا ذهبى الفم St John Chrysostom والمعروف من احدى الأيقونات اليونانية ؟) ، وشاهد ستيفن البلنسى رؤيا عبارة عن شاب يحمل شمعتين وهو فى صحبة القديسة أجاثا St Agatha ، ورسول مقدس أبلغ بطرس دزيدريوس Peter Desiderius أن يجمع الآثار المقدسة • وكان لكل من القديسة أجاثا ، والقديس نيقولاس Nicholas دور أساسى ، غير أن سيدتنا [مريم ابنة عمران] ، والقديس ديميتريوس St Demetrius ، والقديس جورج St George والقديس جيل St Gilles والقديس مرقص Mark وميركيورى Mercury وبطرس كانت لهم أدوار أساسية ومهمة •

وليس من المدهش أن الحب الشديد للسيدة العذراء كان احدى السمات البارزة للحملة الصليبية • وكان مخططا فى الأصل أن تبدأ الحملة الصليبية فى الرحيل الى الشرق فى يوم عيد الاحتفال بصعود السيدة العذراء مريم الى

السماء Assumption [أى في الخامس عشر من أغسطس] عام ١٠٩٦م • وعندما عبرت جماعة أدهيمار آسيا الصغرى كانت تحمل راية عليها صورة العذراء مريم • وظهرت العذراء مريم ثلاث مرات ، في مرتين منها قامت بدور الشفيعة • وشاهد ستيفن البلنسى أهم هذه الرؤى في منتصف شهر أبريل ١٠٩٩م ، عندما ظهرت في شكل بشرى صامت ومعها القديسة أجاثا St Agatha ، وروح أدهيمار التى قامت بنقل أوامرها نيابة عنها • فكان على ستيفن أن يعطى خاتمه الى ريموند السانت جيلى ومعه رسالة شفوية على أساس أنه هدية من العذراء مريم • واذا ما نادى ريموند السيدة العذراء فسيلقى العون من الله • ويجب أن يحمل الحربة المقدسة من كان مرتديا الثياب الكهنوتية وأن يتقدمها الصليب • وانهى أدهيمار حديثه بانشاده ترنيمة عن مريم العذراء وأنشدت من خلفه جوقة من المنشدين من السماء • وكانت السيدة العذراء قد بدأت تأييدها للحرب الصليبية واستخدام القوة • وكانت أهم سمة تميزت بها الحملات الصليبية هى سمة الولاء لها في منتصف العصور الوسطى •

وليس من المدهش أن يظهر القديس بطرس في رؤيا للأحياء • لكن الشيء المدهش هو الدور الصغير نسبيا الذى لعبه ، اذا ما وضعنا في الاعتبار أن البابا هو الذى دعا للحرب الصليبية ، وأن الحرب الصليبية قامت تحت قيادة البابوية في جو مميز من الرومانسية الكارولنجية Carolingian romance ، وكان ينظر الى الحملة الصليبية الأولى على أنها حملة فرنسية ، وفاخر الفرنسيون بما ورثوه من ولاء ومحبة للقديس بطرس والكرسى البابوى الرسولى •

وظهر بطرس الرسول مرات معدودة بالنسبة لغيره ، اذ كانت النظرية البطرسية Petrine theory — المهيمنة على الادارة البابوية — عامل كبت وتقييد ، وفى معظم التطورات ربط الصليبيون بطرس بكرسيه الأسقفى فى أنطاكيـة أكثر من كرسيه الثانى البابوى فى روما • بل ان الامراء ذهبوا بعيدا الى حد دعوة البابا أوربان للذهاب الى أنطاكيـة « المدينـة الجديدة والأولى ذات الاسم المسيحى » ، حيث دعى التلاميذ من أهـل منطقـة الجليـل بفلسـطين The Galileans بلفظ « مسيحيين » بعد أن تم تتويج بطرس الرسول • وقالوا فى هذا الصدد يدعون البابا أوربان للمجىء الى أنطاكية . « تم تتويج بطرس الرسول فى هذه المدينـة ونحن نرجـوك — باعتبارك أب الكنيسة ورئيسها — أن تأتى الى هذه المدينة لتتولى مهمة الأب ، والراعى للكنيسة خلفا لبطرس الرسول ، حتى تكمل رسالته الدينية » •

ومن الجدير بالذكر أن الميول الشخصية للمشاركة فى الحملة الصليبية كانت نابعة من الطوائف الغربية ، وكان هناك تحول طفيف نحو تبجيل القديسين الشرقيين ، ونحـو الربط بينهم وبين القديسـين الغربيين • وعنـدما انتقـل الصليبيون الى خارج حدود العالم المسيحى مروا فى منطقـة حافلة بالشخصيات • وفى الوقت الذى لعب فيه القديسون الغربيـون أدوارا ثانـوية نسـبيا فى العبـادات ، كان القديسـون خارج العـالم المسيحى اللاتينى فى ذلك الحين يلعبون أدوارا أكثر أهمية وبصفة شـهيرة • وكان أعظـم شىء بالنسـبة لأهالى أنطاكيـة أن يظل القـديس بطـرس الرسول فى مقدمة أفكارهم ، وبالنسبة للجندى اليونانى فان

القديسين هم الذين يساعدون الجيش المسيحى عـلى الدفاع عن أراضيهم •

والواقع أن اثنين من القديسين كانا يبزان القـديس بطرس ، وكان لهما ارتباطات خاصة بالشرق ، على الرغم من أنهما كانا مبجلين فى الغرب أيضا • وأحدهما هو القديس جورج St George • ويبدو أن أول هذه التداخلات لتغيير الأحوال جاء بعد سرقة الأثر المقدس للقديس جورج لأن أحد الأتراك الفارين بعد معركة أرضروم Dorylaeum ادعى أنه فى اليوم الأول من يوليو ١٠٩٧م ، شاهد اثنين من الفرسان كانا يتوليان قيادة الصليبيين وتلمع درعهما ، ووجهاهما فى غاية البشاشة • فيما بعـد تم التعـرف عليهما ، فتبين أنهما القديسان جورج وديمتريوس Demetrius • وفى يناير ١٠٩٨م كتب الأسـاقفة اليونانيون واللاتين فى الجيش عن هذا الأمر ، فقالوا انهم تحت حمـاية القـديس جـورج ، وثيودور ، وديمتريوس ، وبليز Blaise • وبناء عليه ، فقد كان الصليبيون عـلى استعداد لقبـول ما ادعاه البعض من مشاهدة جيش من الملائكة القديسين والموتي من الصليبيين وهم يحملون رايات بيضاء ويمتطون خيـولا بيضـاء تحت قيادة القديس جورج ، والقديس ديمتريوس ، والقـديس ميركيورى • وقد شارك هذا الجيش فى مساعدة الصليبيين أثناء معركة أنطاكية التى وقعت فى الثامن والعشرين من يونيو ١٠٩٨م • وترك هذا الحادث التاريخى غير العادى انطباعا قويا لدى الصليبيين ، اذ لابد أنه كان وراء ظهور صورة القديس جـورج عـلى عمـلات ولاية أنطاكية بعـد خضوعها للصليبيين ، وفى أوربا ظلت مسـاعدة القـديس

جورج للحملة الصليبية موضوعا للرسومات والتماثيل لعشرات السنين • وبعد ذلك بعدة أشهر خاطب القديس جورج ، فى المنام ، شخصا كثير الرؤى ، يدعى بطرس دزيدريوس Peter Desiderius بشأن مذخر آخر به آثار مقدسة له فى أنطاكية ، ورغب القديس بان يحمل الجيش هذا المذخر reliquary • وفى ذلك الحين تزايدت محبته من قبل الجميع ، واعتبروه حامل لواء الجيش • وعندما وصل الصليبيون الى الرملة بالقرب من اللد Lydda فى المكان الذى قيل انه دفن به ، اختاروا أسقفا لاتينيا ، وقدموا الهبات لكنيسته وأقاموا صلاة شفاعة له •

وظهر قديس آخر هو القديس أندرو St Andrew تسع مرات على الأقل لبطرس بارثولوميو Peter Bertholomew ومرة واحدة لبطرس دزيدريوس Peter Desiderius • وجاء فى وصف القديس أندرو انه رجل كهل ، شعره أحمر يتخلله بعض الشعر الأبيض ، ولحيته بيضاء كثة ، وأسود العينين • وكانت الزيارات الخمس الأولى تتعلق بالحربة المقدسة ، بيد أن بطرس بارثولوميو ذكر أنه أثناء تلك الزيارات أبلغه أندرو أيضا أن الله أحب الصليبيين ، وأنه قد اختارهم من دون البشر جميعا ، وأن القديسين سيعودون للحرب بجانبهم ، وبعد أن اكتشف الصليبيون الحربة المقدسة ، أبلغ بطرس أوامر القديس أندرو للصليبيين ، حيث أمرهم بتقديم صدقات خمس مرات استعدادا لخوض معركة أنطاكية ، وان لم يستطيعوا ذلك ، ينبغى تقديم خمس صلوات ربانية — Peternosters احياء لذكرى المسيح • وذكر بطرس أن القديس أندرو أبلغه بضرورة أن يتمسك المسيحيون بالايمان بالبعث

Resurrection ، وطلب منهم أن يؤمنوا بأن قتلاهم سيحاربون بجانبهم فى المعركة . وكان القديس أندرو قد أصدر تعليمات بشأن صيحة المعركة ، وقد منعهم من أن ينشغلوا بجمع الغنائم . وفى الثالث من أغسطس ١٠٩٨ م تدخل القديس أندرو فى النزاع القائم بشأن امتلاك أنطاكية ـ من خلال بطرس ـ وانحاز الى جانب ريموند السانت جيلى . وأمر الصليبيين بتعيين بطريرك لاتينى ، وأن يساعدوا الفقراء ، وأن يصلوا من أجل هداية الله لهم ، وهم فى طريقهم الى بيت المقدس وأمر بمعاملة المسيحيين الذين ارتدوا عن دينهم ، واعتنقوا الاسلام أثناء وقوعهم فى الأسر عند المسلمين ، وكأنهم من المسلمين . ويجب أن يسجن بعضهم ليكونوا عبرة لغيرهم . وفى النصف الثانى من سبتمبر قيل ان القديس أندرو ظهر وأبلغ بأنه غضبان ؛ لأن المدخن الذى به أصابع يده والذى أكتشف فى مدينة أنطاكية ، ليس موضوعا فى المكان الجدير به ، ولكى يؤكد على أهمية ذلك رفع يده عاليا ، فظهر عدم وجود بضع أصابع . ووعد ريموند السانت جيلى بظهور علامة على قدرة الله وتتمثل هذه العلامة فى الشمعة الضخمة التى أراد ريموند اشعالها من أجل الاحتفال بعيد القديس فيث St Faith ، فلن تستمر هذه هذه الشمعة الضخمة مشتعلة على الرغم من وجود شمعة صغيرة بجوارها ستظل مشتعلة لمدة تزيد على ثلاثة أيام . وكان قد أمر ريموند بأن يعلن توبته وندمه ، ولم يوافق على آراء مستشارى ريموند . وكان قد حذر ريموند من امتطاء صهوة جواده على مدى فرسخين من بيت المقدس . وفى الأول من ديسمبر ، عندما كان الجيش الصليبى أمام معرة النعمان ، ظهر القديس أندرو مرة ثانية بصحبة القديس

بطرس الذى تولى أمر الحديث وظهر القديسان هذه المرة فى ثياب رثة ، ويعلو الغبار وجهيهما • وأبلغ بطرس دزيدريوس عن ظهور القديس أندرو فى أوائل مايو ١٠٩٩م، حيث قدم القديس أندرو كلمات تشجيع الى ريموند السانت جيلى • غير أنه أنذره بضرورة توزيع الغنيمة بالعدل لأنه ان فعل ذلك ، فلن يمنحه الله بيت المقدس فحسب ، وانما سيعطيه الله مصر أيضا •

من الواضح أن الرسائل التى أبلغها القديس أندور والرؤى ــ المتعلقة بالحربة المقدسة ، ودور ريموند السانت جيلى ، والنزاعات بالجيش ــ كانت ذات مغزى كبير • فهذه الرسائل كانت عنصر تنوير وارشاد ، كما كانت ترتبط بالسياسات الداخلية للحملة الصليبية • واستمالت تعاليم القديسين أولئك الصليبيين الذين سمعوا بأخبار الرؤى ، لأن أولئك القديسين ، كانوا يقدمون لهم اجابات عن مسائل كانت عالقة بأذهانهم ، ورغم أن هذه المسائل تبدو هامشية لنا كانت قضايا تحيرهم واختلطت هذه التوجيهات بالنصائح الدينية والولاء الدينى ، فكان لهذا كله أثره فى ازدياد حماس الصليبيين للمهمة التى خرجوا من أجلها •

وقد ساعد كل ما تقدم على تدعيم الايمان الراسخ بأن الحرب الصليبية كانت حربا فى سبيل الله • وليس هناك ريب فى أن الصليبيين اعتقدوا بأنهم خاضوا تلك الحرب تحقيقا لمبدأ العدل فشجع احتلال بيت المقدس أحدهم على انشاد أنشودة الشكر والتمجيد paean of Praise التى كانت تحتوى على معلومة دينية مهمة تظهر بكل وضوح مدى

الارتباط بين نجاحهم وبين البعث the Resurrection وتجديد الكنيسة ، وتقول كلمات الأنشودة . « انه يوم جديد ... هذا اليوم الذى كسرت فيه شوكة كل الكفار ، واشتد أزر المسيحية ، وتجدد فيه ايماننا . ان هذا اليوم من صنع الرب ، ولذا يحق لنا أن نفرح ونبتهج . وذلك لأن الله تجلى على شعبه وأنعم عليه ... ويحق لنا أن نحتفل بهذا اليوم ... الذى تحققت فيه الاستجابة لصلوات الكنيسة ، وفزنا فيه بالمدينة والأرض التى وعد الله بهما الآباء واستردها الأبناء . وفى هذا اليوم نشد قداس عيد الفصح the Office of Easter ، لأنه فى هذا اليوم صعد المسيح من القبر من بين الأموات بارادته وأراد لكنيسته البقاء بفضل نعمته » .

وسوف نظل نذكر دائما أن البابا أوربان الثانى دعا الى الحرب الصليبية تحقيقا لهدفين : الهدف الأول هو تخليص المسيحيين من الأذى الذى لحق بهم على أيدى المسلمين ، والثانى هو تخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين . وأما الهدف الأول فلا يوجد الكثير من الأدلة والشواهد الدالة على تحقيقه فى كتابات المشاركين ، حيث استفاض وبالغ فولشر الشارترى Fulcher of Chartres فى كتابه فى الحديث عن معاناة نصارى بيت المقدس وهم أخوان الصليبيين فى الدين . وأشار ريموند الأجوليرى Raymond of Augilers الى أحوال المسيحيين السيئة الذين عانوا تحت حكم المسلمين . وتمثلت أصداء ذلك فى المواقف المعتدلة التى اتخذها الصليبيون تجاه النصارى بالشرق بصفة عامة ، برغم عدائهم الشديد للهراطقة الشرقيين . والواقع أنه فى احدى الرسائل تم تصنيف « اليونانيين » ضمن أولئك

الهراطقة في سوريا ، ولكن الكاتب ربما لم يكن يقصد بهذه الاشـــارة الارثوذوكس • وفى الحقيقـة ليس هنـــاك دليل على أى حقد أو حتى حسد تجاه الشعب اليونانى ، على الرغم من وجود فكرة عن عـدم مقـدرتهم العسـكرية وأن الحكومة البيزنطية وموظفيهـا كانوا ظلمـة وموصـومين بالخيانة • وورد وصف المسـيحيين الشرقيين كاخـوة فى العقيدة ، وأنهم عانوا من الوثنيين ، وأنهـم بحـاجة الى المساعدة والثـأر لهـم • ولذلك حـرص الصليبيون عـلى تصويرهم على أنهم كانوا يحـاربون من أجلهـم ، وأنهم لم تمتد أيديهم الى أمتعة اليونانيين •

وفاقت قضية الاستيلاء على بيت المقدس قضية مساعدة النصـارى فى المشرق فى الأهميـة • ويبـدو أن الصليبيين اعتقدوا ، وفقا للقانون الـكنسى ، أن الأرض التى كانت تابعة للعالم المسيحى ، لابد لها أن تظل مسيحية ، وظهر ذلك في خطاب أرسله قادة أنطاكية الى حاكم دمشق [المسـلم] يوضحون فيه أن خطتهم قاصرة على الاسـتيلاء عـلى الأراضى التى كانت تابعة لليونانيين • وبالاضافة الى ذلك ؛ فمدينة بيت المقدس شهدت آلام المسـيح بين ليلة العشـاء الأخيرة وقيـامه من بين الأمـوات Resurrection وشهدت عمل يدى الله عـلى الأرض ، لذلك فهى ليست مجـرد قطعـة من أرض ، بل انهـا تضـم كذلك الآثار المقدسـة ، فهى ارث المسيح ، لذا فان الهدف من الحرب الصليبية كان تحـرير بيت المقدس ، وعلى وجه التخصيص تحرير القبر المقـدس من دنس الوثنيين • وهذا يفسر الاشارات الكثيرة التى نادت بالذهاب الى طريق القبر المقدس the Via Sancti Sepulchri والأعمـال التى أجريت « من أجـل الله ومن أجـل القبر

المقدس » • ولذلك فأول ولاية أقامها الصليبيون فى آسيا الصغرى تولاها بطرس الأوبسى Peter of Aups ، « على أن يكـون الولاء لله وللقبر المقــدس وللأمراء ، وللامبراطور البيزنطى » • وبالطبع كان هذا هــو الســبب الذى جعــل الحملة الصليبية عملية أداء فريضة الحج pilgrimage ، وأشار الصليبيون الى أنفسهم « على أنهم حجاج القبر المقدس » ، حيث ذهبوا الى هناك ليفوا بنذورهم •

وكان هناك شعور جعلهم يعتقدون بأنهم يحاربون من أجل نشر المســيحية • وفى ســبتمبر ١٠٩٩م كتب كل من دايمبرت البيزى Daimbert of Pisa، وريموند السانت جيلى Raymond of St Gilles يقــولان : « ان قوة المســلمين قد اندحرت ، فى الوقت الذى أخذت فيه الكنيسة تمتد حاليا فى كل الاتجاهات من البحر للبحر » • وفى المراحل الأخيرة من الحرب الصليبية كان لدى البعض طموحات فى غزو مصر ، كمقدمة للاستيلاء على بيت المقدس • وبعد ذلك بوقت قصير كان هناك حديث عن السيطرة على آسيا • وأثار ذلك مسألة التفكير فيما اذا كانت الحرب من أجل اجبار الغير على اعتناق النصرانية أيضا • ولا يمكن للمرء أن يغض النظر عن الحوادث المروعة التى وقعت فى أوربا فى ربيع وأوائل الصيف من عام ١٠٩٦ م ، ومما لا شك فيه أن فكرة الحرب التى نادت بنشر النصرانية قد اقترنت بازدراء الحكم الوثنى ، وكشفت فكرة الحرب هذه عن نفسها فى المواقف التى اتخذها الصليبيون والتى تقضى بارغام الآخرين على اعتناق النصرانية ، حتى لو اقتضى الأمر استخدام القوة ، غير أن المواقف التى اتخذها الصليبيون كانت تعنى بطبيعة الحال بالحكومات التى تحكم

الشعوب الأخرى ، أكثر من اهتمامها باجبار الآخرين على اعتناق النصرانية • ومن مدينة نيقية ، فى صيف ١٠٩٧م ، أرسل قادة الحرب الصليبية وفدا سياسيا الى الخليفة الفاطمى فى مصر يعرضون عليه اعتناق النصرانية أو الحرب ، ونفس الخيار قدمه بطرس الناسك الى كربوغا حاكم الموصل عن طريق وفد سياسى صليبى • كما رفض ريموند السانت جيلى عقد اتفاقية مع أمير طرابلس ما لم يتنصر الأخير • غير أنه باستثناء المذابح الجماعية المنظمة التى مارسها النصارى ضد الآمنين من غير النصارى فى أوربا لرفضهم اعتناق النصرانية ، لا يتوافر الدليل على أن الصليبيين قد أخطأوا فهم الدور الذى يحاربون من أجل تحقيقه ، فآمنوا بضرورة تحويل الآخرين الى النصرانية • ورغم أن الجاليات اليهودية فى فلسطين قد عانت كثيرا ؛ فانها لم تخضع لجميع ما تعرض له اليهود فى منطقة الراين • وقد جرت محاولات مؤخرا لاثبات أن صورة الاضطهاد التقليدى الذى تعرض له اليهود على أيدى الصليبيين فى فلسطين يجب أن تتغير كثيرا • وتعرضت الجاليات اليهودية لخسائر فى الأرواح عندما نهب الصليبيون المدن التي استولوا عليها • وقام الصليبيون فى بيت المقدس باتلاف معبد اليهود Synagogue ، وكذلك أدراج التوراة Torah Scrolls واستولوا على مكتبة طائفة القرائين Kareite library ، وتم بيع الكثير من اليهود فى أسواق النخاسة • غير أنه يبدو أن الغالبية العظمى من اليهود تم اطلاق سراحهم مقابل دفع الفدية ، كما تم شراء جزء من مكتبة القرائين مرة أخرى • وعلى الرغم من أن عرض اعتناق النصرانية حدث من حين الى آخر ، فليس هناك ما يؤكد أن الرفض كان يعنى التعرض

للموت • وعلى الرغم من أن الجالية اليهودية فى بيت المقدس قد تمت ابادتها ، فلقد اتضح أن « الصليبيين قد تخلصوا من الجاليات اليهودية التى كانت بالفعل فى حالة يرثى لها» • والواقع أنه اذا ما نحينا حالة مختلفة بعض الشيء من حالات اجبار غير النصارى على اعتناق النصرانية بالاكراه ، ونعنى بذلك تعميد القساوسة للجنـود الأتراك المحتضرين الذين سقطوا فى ساحة المعركة ، فلن نجد سوى حالتين خارج أوربا لاجبار الآخرين على اعتناق النصرانيـة بطريقـة جماعيـة وبالقوة والاكراه ورد ذكرهما فى المصادر التاريخية ، رغم أن أحد هذه المصادر مشكوك فيه •

وفيما يلى الاشارة المشكوك فى صحتها فى الوصف الذى قدمه الراهب روبرت Robert عندما استولى ريموندالسانت جيلى على مدينة البارة فى آخر سبتمبر ١٠٩٨م ، فجاء فى هذا الوصف : « وأمر الكونت بأن يقيد الجميع بسلاسل من حديد ، وأن يتم ضرب عنق كل من لا يعلن ايمانه بالمسيح •• وعلى ذلك لم ينج فرد واحد من هذا الحشد الغفير ما لم يعلن اعترافه بالمسيح ، ويتم تعميده • ومن ثم خلت مدينة البارة تماما من المسلمين ، وصارت كلها تدين بالمسيحية » •

بيد أنه من غـير المحتمل وجـود آية محـاولة لاجبـار المسلمين فى البارة عـلى اعتناق النصرانيـة تحت تهـديد السلاح ، اذ لم يكن الراهب روبرت ضمن من شاركوا فى الحملة الصليبية ، كما أن تأكيده على استخدام القوة لاجبار الآخرين على اعتناق النصرانية لا يوجد له ما يؤيده فى أى مصدر آخر ، عـلى الرغم من أن كل الكتـابات التـاريخية المعاصرة وافقت على حدوث مذبحة رهيبة ، فى اقليم كان به

نصارى من أهل المنطقة ، وذلك قبل انشاء الأسقفية اللاتينية الأولى . وكتب زيموند الأجوليرى ، الذى كان موجودا فى مدينة البارة وقت وقوع المعركة يقول بأن الكثيرين من سكان تلك المدينة تم قتلهم أو تم بيعهم فى أسواق النخاسة فى أنطاكية ، أما الذين أعلنوا الاستسلام فقد أطلق سراحهم، ومما سبق يتضح أن العقوبة الرادعة للرد على مقاومة أية مدينة ، تمثلت فى تدمير هذه المدينة تدميرا شاملا والقضاء على سكانها .

ومع ذلك فالحالة الأخرى مدعمة بالوثائق . ففى منتصف يوليو ١٠٩٨م قام ريموند بايليت Raymond Pilet بتمويل حملة عسكرية كبيرة على نفقته الخاصة ، وقادها الى المناطق الريفية بجنوب أنطاكية . وفى السابع عشر من يوليو وصل الى مكان محصن شرق مدينة المعرة ، يدعى تل ميناس ، والذى كان تحت سيطرة نصارى من أهالى سوريا ، وفى الخامس والعشرين من الشهر نفسه استولى على قلعة قريبة من ذلك المكان ، كان بها عدد كبير من المسلمين . وتم قتل كل من رفض اعتناق النصرانية من المسلمين فى تلك القلعة . وبعد ذلك بيومين قام جماعة من المسلمين بمدينة المعرة بالتصدى لقوة ريموند بايليت ، ومن معه من النصارى السوريين الذين تعاونوا معه ، وأجبروا كل النصارى على الارتداد على أعقابهم بعد معركة حامية الوطيس . وعلق الراهب روبرت على ذلك بأن ريموند بايليت كان يعانى الاحساس بالكراهية الشديدة للأتراك ، بيد أنه من الأنسب القول بأنه بتحالفه مع المسيحيين المحليين من أهل البلاد الأصليين قد ورط نفسه فى الصراعات الدينية بين الأهالى

المجليين ، على أية حال ، لم يكن هذا التدخل أمرا مألوفا فى سلوك الصليبيين بعد أن غادروا أوربا ٠

ان عدم توافر الأدلة على التحول الاجبارى الى النصرانية فى آسيا ، وما تلا ذلك من اصطباغ الحرب بالصبغة التبشيرية ، لا ينبغى أن يدفعنا الى التسليم بأن الصليبيين كانوا متسامحين مع المسلمين ، فقد كان لدى الصليبيين رغبة جامحة فى الانتقام من المسلمين ، فكانت ألفاظ الصليبيين تفوح بالكراهية والبغضاء للمسلمين ٠ والواقع أنه كان هناك اعجاب بأساليب القتال الجيدة لدى الأتراك الذين كانوا يعتقدون أنهم والفرنسيين ينحدرون من أصل مشترك ٠ وهو ما لم يعارضه المسيحيون ، بل زادوا على ذلك بقولهم : « لا يوجد رجل يمكن أن يكون فارسا بالطبيعة سوى الفرنسى المولد أو التركى » ٠ واذا ما اعتنق الأتراك التعاليم النصرانية « فمن المستحيل أن نجد أشجع أو أمهر من هؤلاء المحاربين الأشداء » ٠ غير أن هذا القول كان أمرا نادرا ، اذ ان القاعدة المتبعة لدى الصليبيين كانت أسلوب الذم فى حديثهم عن الأعداء فقالوا عن المسلمين انهم برابرة وغير متمسكين بقواعد الأخلاق الحميدة ، وضعاف الايمان ٠ ولذلك كان هناك اعتقاد سائد بين النصارى بأن مصير المسلمين حتفهم ٠ ونظر النصارى الى المسلمين على أنهم أعداء الله والمسيح والنصرانية ٠ وأنهم عبدة للشيطان وأماكن عبادتهم هى أماكن عبادة للشيطان ٠ وكان من السهل اعتبار بعضهم سحرة ومشعوذين : فعندما كان المسيحيون يدكون أسوار مدينة بيت المقدس ، شاهدوا امرأتين ومعهما أطفالهما عند الأسوار ، فظنوا هاتين المرأتين من الساحرات اللائى جئن لافساد العمليات العسكرية ٠

ومن ناحية أخرى ، كان الصليبيون ينظرون الى أنفسهم على انهم شعب الله او المسيح وعباده وأنصاره أو جنوده ، ويقاتلون فى سبيل الله • والأهم من دلك كله فقد كانوا « فرسان المسيح » برغم عدم وجود دليل على استعمال هذا التعبير حتى مارس ١٠٩٨م • وكما يتوقع المرء عند وصف جيش يتكون من رجال ونساء من شعوب متعددة فقد ظهر العرب بمظهر من يذهب لمساعدة الشرق ، غير أنه كان هناك تأكيد على المساهمة الخاصة التى قام بها الفرنسيون استجابة لدعوة البابا أوربان • فضلا عن ذلك كانت الحرب الصليبية مشروعا فرنسيا من أجل المحافظة على جلال وهيبة الكنيسة الرومانية والفرنسية • فغدت الحملة الصليبية وكأن الكنيسة الفرنسية بأسرها فى حالة ترحال للحج وزيارة الأماكن المقدسة • وكانت حكاية هذا الحج هذه أروع حكاية يحكيها الفرنسيون « الذين أمرهم الله بالذهاب للحج فى بيت المقدس بأسلحة القتال » • وبرزت على السطح التقاليد الفرنسية القديمة القائلة بأن الفرنجة هم شعب الله المختار • « مبارك الشعب الذى اختار المسيح ربا » • وتشبع هذا المفهوم بالروح الرومانتيكية الكارولنجية Carolingian romance والواقع أنه ابان الدعوة للحرب الصليبية انتشرت اشاعة فى ألمانيا تقول بأن شارلمان قد بعث من بين الموتى • واستطاع معظم القادة ارجاع سلسلة نسبهم الى شارلمان ، ويبدو أن ثلاثة منهم ، هم روبرت الفلاندرى ، وجودفرى البويونى ، وشقيقه بلدوين كانوا يدركون ذلك بصفة دائمة • وذكر رالف الكاينى Ralph of Caen كاتب سيرة تانكرد Tancred أنه فى سنة ١١٠٠م جلس بلدوين سليل شالمان على عرش داود كملك لبيت المقدس ، وعند

وصفه لمعركة أرضروم Dorylaeum قال انه فى استطاعة المرء القول ان رولاند وأوليفر Roland and Oliver بطلى انشودة رولاند ـ قد ولدا من جديد ، كما اعتقد الصليبيون الذين عبروا بلاد المجر Hungary ، أنهم سلكوا طريقا بناه شارلمان .

وفى الواقع كان الصليبيون مقتنعين بأن الله اختارهم من بين كل البشر للقيام بالمهمة التى أخذوا على عاتقهم تنفيذها فقالوا : « من الواضح أن الله هو الذى اختاركم وحفظكم من كل سوء ، وأنعم عليكم بفتح هذه المدينة والمدن الأخرى ، ولم يكن ذلك نتيجة لما أوتيتم من قوة ، وانما لغضب الله على العاصين لتعاليمه وعقابا لهم ، وفتح لكم الأبواب ، وانتصرتم فى المعارك الضارية لأن الرب هو القائد والسيد » .

وبالطبع ليس معنى ذلك أن الصليبيين اعتقدوا أنهم لم يرتكبوا ذنوبا ، ولم يعصوا الله أحيانا ، فقد رأوا أن الله أراد ألا تسقط مدينة الرقة فى أيديهم . اذ ان تأييد الله لهم لا يعنى أنه لا يسمح لهم بتذوق مرارة الفشل . وبين الفينة والفينة عانى بعض الصليبيين اليأس كما حدث أثناء ليلة الذعر والهلع فى أنطاكية فى العاشر أو الحادى عشر من يونيو ١٠٩٨م ، أو عندما بلغت الامبراطور الكسيوس Alexius أنباء كاذبة عن التدمير التام للجيش الصليبى فى أنطاكية عندما كان الكسيوس وجيشه وبعض الصليبيين يتقدمون عبر آسيا الصغرى ؛ مما دفع جوى شقيق بوهيموند الى التحدث بكلام لاذع ، قال فيه انه أوشك على أن يفقد ثقته فى الله . ويقال ان أحدا لم يجرؤ على الصلاة لمدة عدة أيام بمن فيهم

القساوسة . غير أن تلك الأمـور كانت حالات غـير عادية ، بقدر ما يستطيع المرء القول . وتضمن خطاب كتبه أنسيلم الريبمونتى Anselm of Ribemont ، فى يوليو ١٠٩٨م رد فعل طبيعيا لتلك النكسات اذ ذكر فيه : « ان الله الذى كلنا أبناؤه يحبنا ويعلمنـا على هذا النحو » . كما وردت فكرة العقاب عند الله والتى وردت فى العهد القديم بصورة ملحوظة فى خطاب كتبه دايمبرت البيزاوى Daimbert of Pisa، وريموند السانت جيلى Raymond of St Gilles فى سبتمبر ١٠٩٩م : « ولمدة تسعة أشهر قيد الله قدرتنا على العمل ... وأذلنـا خارج أنطاكية الى أن تحول كل غرورنا الزائف الى تواضع. وتدهورت أحوالنا ولم يبق معنا سـوى مائة جـواد صـالحة للحرب فى الجيش كله ، ثم فتح الله علينـا خـزائن نعمتـه ورحمته وفتح لنا أبواب المدينة » .

وكانت الآلام والحرمان والمحن والبلايا هى العقوبات التى ابتلى بها الله الصليبيين الذين خالفوا أوامره أو وقعـوا فى المعاصى . وكانت تلك العقوبات تكملة لأعمال الكفارة Penance التى يمارسونها عن طيب خاطر . وكتب فولشر الشارترى Fulcher of Chartres معلقا على الحوادث التاريخية فى الشـتاء الفاجع لعامى ١٠٩٧ - ١٠٩٨م قائلا : « فى اعتقـادى أن هـذا قدره الله منـذ أمد بعيد ، وما حـدث للصليبيين فى مثل هذه الكارثة الكبرى انما من أجل تطهيرهم من خطاياهم ، كما يتم اختبار الذهب بالنـار ثلاث مرات ، وتطهيره سبع مرات بالنار أيضا » . وكانت الحملة الصليبية تتماشى مع ما جاء فى المقطع الأخير من الصـلاة الربانية ، واختبارا الهيا لايمان ونوايا المشاركين فى تلك الحملة .

وعندما وصل الجيش الصليبى الى بيت المقدس ، قام ريموند السانت جيلى بجولة لزيارة الأماكن المقدسة التى تقع خارج أسوار المدينة · وعندما شاهدالكنيسة المقامة على جبل صهيون Mount zion قال للمرافقين له ما يلى : « اذا تركنا هـــذه الأماكن المقدسة التى منحنـــا الله اياها ، ثم ســيطر عليهـــا المسلمون ، فماذا يحدث لنا ؟ ··· اننا اذا لم نحافظ عـــلى تلك الأماكن المقدسة فلن يعطينا الله تلك الأماكن التى تقع داخل أسوار المدينة » ·

واعتقد الصليبيون بأنهم نذروا أنفسهم وتطوعوا للقيام بهذه الحملة بوحى من الروح القدس ، وأن انجازاتهم هى تنفيذ لمقاصد الله · كما نظروا الى أنفسهم على أنهم يقومون بأعمال البر المسيحى ، ورغم تعـــدد ألســـنتهم واختــلاف بلادهم ، فقد جمعتهم محبـــة الرب والجـــار · وكان البابا أوربان قد طلب منهم المشاركة فى الحملة الصليبية بدافع من محبة المسيح وكانوا مقتنعين بأنهم قد أوفوا بنذورهم · ففى الواقع وجدوا أنفسهم يقومون بتنفيذ تعاليم المســـيح حرفيا ، وهى التى استشهد بها البابا ، « إن أراد أحدكم أن يتبعنى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى » ، « وكل من ترك بيته أو اخوته أو أخـــواته أو والده ووالدته أو زوجته أو أولاده ، أو أرضه ، من أجلى ، فسينال مائة ضعف ، وسينعم بالحياة الأبدية » · وكان للصليب أهمية فريدة ، كما أن اتخاذ صورته ، بل وعمل الوشم على أجســـادهم بعلامتـــه بتحمس شديد ، وكذلك اتخاذ طريق الصليب ، والدعوة الى حمله ، كل ذلك أدى الى اتباع أسلوب الحياة الديرية ، وقبول حياة قائمة على اماتة الجسد ، وذلك بكبح الشهوات · وأصبح طريق الخلاص المتاح « للعلمانيين » هـــو التسلح بالصليب ،

ومن تم نعموا بقداسته ، وحاربوا من أجل نصرته • وظهرت صورة الصليب عندما وضع الجميع قطعة من القماش على ملابسهم على شكل صليب وثبتوها بالخيوط • هدا بالاضافة الى أن تلك الصورة صارت تعنى المشاركة فى الحرب الصليبية ، ذلك لأن تعبير Cruce Signati (هؤلاء الذين يضعون صليبا من القماش) صار يعنى على الفور أولئك الذين ندروا أنفسهم للمشاركة فى الحرب الصليبية • وبالنسبة للأوربيين الشماليين الذين وصلوا فرنسا وهم فى طريقهم الى الشرق ، فقد رسموا الصليب بأيديهم لكى يعرف الآخرون أنهم ضمن الجماعات الصليبية • واعتقد الصليبيون أنهم يعبرون عن الحب لاخوانهم فى الانسانية عندما ينفدون قول المسيح : « ليس هناك حب أعظم من هذا أن يضع المرء نفسه من أجل أحبائه » • (يوحنا : ١٥ : ٣٠) • وفى أوقات المحبة كانوا يذكرون بعضهم البعض بتمهدهم بالاتحاد فى الحب المسيحى •

وكما شاهدنا تعرض الحب المسيحى لله ولجاره فى الانسانية لشىء من التحريف ؛ لأن هذا الحب ارتبط كذلك بحب الصليبى لوالديه أو لأسرته • ومن ثم أصبح هناك مبرر للانتقام وشن حرب الثار Vendette ضد غير النصارى الدين أوقعوا الأذى بالمسيح باحتلال أرضه واضطهاد أبناء الله •

بيد أن التوكيد على المحبة المسيحية كان له أهمية أخرى ، لأنه على ضوء الفهم الواضح بأن الله كان مع الصليبيين فى حربهم تولد اعتقاد راسخ لدى الصليبيين بأن قتلاهم شهداء عبروا عن محبتهم لله عندما نالوا الشهادة • وعبر عن ذلك فيما بعد جوبرت النوجنتي Guibert of Nigent الـكاتب

الديرى فقال : « اذا كانت هناك حاجة تدفع الصليبيين الى تحمل آلام العقاب على خطاياهم ، فان اراقة دمائهم وحدها من أقوى الطرق للتكفير عن هذه الخطايا » . ومن الممكن تقسيم هؤلاء الشهداء الى ثلاث درجات أو طبقات . وتتكون الطبقة الأولى من أولئك الذين ماتوا من المرض ولذلك فان مراتب الشهداء تشمل كل أولئك الذين ماتوا ميتات فاضلة، وهم الفارس اينجوراند السانت بولى Enguerrand of St Pol الذى ظهر فيما بعد فى المنام لأحد المسيحيين وكذلك أدهيمار اللوبوى Adhemar of Le Puy . على أن كل من كتبوا عن الحرب الصليبية ، سواء أكانوا من شهود العيان أم غير ذلك ، اعتقدوا أن أدهيمار قد ذهب الى الفردوس، باستثناء ريموند الأجوليرى Raymond of Aguilers ، الذى اعتبروه يتعذب بعض الوقت فى الآخرة بسبب شكوكه فى الحرب المقدسة . غير أن أولئك الكتاب مالوا الى التأكيد على حياته الطاهرة على الأرض أكثر من تأكيدهم على استشهاده ، بيد أن خطابا كتبه رئيس أساقفة ريمز Rheims ، ورد به اسم أدهيمار ، واسم وليم الأورانجى William of Orange الذى كان قد مرض ومات فى حوالى العشرين من ديسمبر ١٠٩٨م ، اذ انهما ، « مع أولئك الذين ماتوا فى سلام ، ونالوا تاج الاستشهاد المجيد » . وتضم الفئة الثانية من الشهداء الكهنة والعلمانيين ، الذين كان ينظر اليهم كشهداء بحكم العرف والتقاليد لأنهم ماتوا على أيدى الآخرين ، اذ انهم قتلوا وهم غير مقاتلين ، أو غير مسلحين ، أو لأنهم رفضوا التخلى عن الايمان المسيحى بعد أن وقعوا أسرى فى أيدى المسلمين . ومثال ذلك رينولد بورشت Raynald Porchet ، وهو أحد الفرسان النورمان من جنوب ايطاليا ، وكان قد أسره

المسلمون في السادس من مارس ١٠٩٨م • وقام المسلمون الذين أسروه بعرضه على أسوار مدينة انطاكية في حوالى الثالث من ابريل من أجل المطالبة بالفدية ، غير أنه رفض ذلك بكل تحد ، وشجع قادة المسيحيين على مواصلة محاصرة المدينة بكل عزم وعناد، وأبلغهم أن حامية المسلمين ضعيفة • ثم أنزله المسلمون من فوق السور وأحضروه أمام قائد المسلمين الذى عرض عليه اعتناق الاسلام مقابل أى طلب يريده • وطلب رينولد امهاله بعض الوقت لدراسة العرض، بيد أنه قضى ذلك الوقت فى التضرع الى الله ليدخله الفردوس • واستشاط القائد المسلم غضبا عندما أبلغه المترجم أن رينولد كان يردد كلمات تدل على رفضه للاسلام • عند ذلك أمر القائد الاسلامى بضرب عنق رينولد على مشهد من كل الصليبيين الأسرى ، وأحرق جثته علنا وسط ركام ضخم من الحطب • ويبدو أن الاعجاب بشخصية رينولد قد صار واسع الانتشار تماما • فهناك رواية مفصلة طرأ عليها تعديل الى حد ما ــ تحكى قصة رينولد هذا فى أنشودة أنطاكية Chanson d'Antioche • وفى حوالى ١١٣٠ م كان يشار الى رينولد على أنه أحد القديسين •

وتتكون الفئة الثالثة من الشهداء من هؤلاء الذين ماتوا فى المعركة، وكان روجر البورنفيلى Roger of Barneville أحدهم ، وهو الذى سبق الحديث عنه • ولكى ندرك ادراكا كاملا أهمية هؤلاء الشهداء فعلى المرء أن يتذكر أن الاستشهاد يقتضى ضمنا قبول الموت عن طيب خاطر من أجل العقيدة ، وأن يفكر مليا فى موت المسيح ، ولذا فالموت استشهادا هو أسمى أعمال الحب والمثال البالغ حد الكمال للموت المسيحى • ان الشهيد يقدم حياته هدية الى الله وهو عمل غاية فى

الجدارة والاستحقاق ويستحق فاعله أن ينظر اليه الله على الفور • ان الفكرة التى تمثلت فى استطاعة الانسان أن ينال الاستشهاد عندما يمارس بنفسه أعمال العنف لم تكن جديدة • ويرجع تاريخ هذه الفكرة الى عام ٧٩٩ م حين وردت فى التاريخ المسيحى العربى لأول مرة ثم ترددت هذه الفكرة فى مصادر قليلة بعد ذلك • ثم تزايد استخدامها فى القرن الحادى عشر • بيد أن الأدلة على الايمان بالشهادة أثناء الحرب لم تكن كثيرة قبل عام ١٠٩٥م ، وحتى لو افترضنا وجود هذه المصادر التى سيكشف عنها الزمن ، الا أن الكثير من هذه المصادر لم يخرج الى حيز الوجود الا أثناء الحملة الصليبية الأولى • وعلى الرغم من أن فكرة الاستشهاد فى الحرب كانت تنتشر بسرعة الى حد ما بعد الحملة الصليبية ـ ربما يعود ذلك الى المؤلفين لأنشودة رولان the Song of Roland ثم الى مؤلفات كل من ميلستتر اكسودوس Millstatter Exodus ، وجودفرى المونماوثى Geoffrey of Monmouth وكتاباته حول دفاع آرثر Arthur عن بريطانيا ـ فانه بعد قرن كتب أحد المؤلفين أثرا أدبيا عن الحياة الدينية قائلا : « ادرسوا تاريخ حياة الشهداء المقدسين وآلامهم ، وانكم لن تجدوا أى شهيد كان يتمنى أن يقتل من قام باضطهاده • انه نوع جديد من الشهيد الذى يرغب فى قتل غيره » • ولا يمكننا تجنب القول بأن هذه الفئة من المحاربين التى قبلت ما وقع بها من عنف فى وداعة، لم تكن مقبولة بصفة عامة عام ١٠٩٥م •

فضلا عن ذلك نحن لا نعرف السبب الذى جعل رجال الدين يبشرون من يقتل فى الحرب الصليبية بالاستشهاد

منذ بدء الدعوة للحملة الصليبية . ولا يوجد لدينا سوى خطابين من الخطابات التي تحتوى موعظة البابا أوربان في كليرمونت . وقام رجل بتدوين الخطاب الأول بعد ان سمع موعظة البابا مباشرة ، أما الخطاب الثاني فقام بتدوينه رجل آخر لم يسمع من البابا مباشرة . ونوه البابا في هذين الخطابين الى الاستشهاد . وفي الخطابات التي أرسلها الصليبيون حتى مارس ١٠٩٨م لا توجد اشارات واضحة وخالية من الغموض ، عن الاستشهاد ، برغم وجود عبارات في خطاباتهم تشير الى أن رفاقهم يموتون لينالوا الحياة الأبدية ، ويموتون من أجل المسيح الذى مات من أجلهم ، وقد بدأت تلك العبارات في الظهور في يناير ١٠٩٧م . وتجدر الاشارة الى أن كاتب احدى الرسائل في نوفمبر ١٠٩٧م طلب اقامة الصلوات من أجل الموتى ؛ مما يوحي بأن هذا الكاتب لا ينظر الى هؤلاء الصليبيين الذين ماتوا في القتال على أنهم في الفردوس . وبعبارة أخرى يمكن القول بأن الاعتقاد في أن الصليبيين الذين قتلوا في الحرب قد نالوا الشهادة قد بدأ يسيطر على عقول المقاتلين بعد أن عبروا آسيا الصغرى ، أى بعد أن أصبحوا على يقين من أنهم يقومون بعمل مقدس .

وزاد الاعتقاد في نوال الشهادة بعد أن شاع ظهور أشباح الموتى من الصليبيين للأحياء منهم لتحذيرهم أو نصحهم أو حتى مساعدتهم أثناء القتال . وساد الاعتقاد بأن الجيش السماوى الذى كان يعتقد أنه ساعد الصليبيين أثناء معركة أنطاكية ، كان يتألف في معظمه من أرواح الموتى الذين سقطوا شهداء . وفي يونيو ١٠٩٨م ، قرر أحد الصليبيين الهرب ، وأثناء هبوطه من فوق أسوار أنطاكية

مستخدما حبلا طويلا واجهه أخوه الصليبى الذى كان قد مات قتيلا ، ونصحه بالبقاء اذ ان « الله معه » • أما أدهيمار اللوبوى Adhemar of Le Puy الذى لم يكن موته نتيجة لسقوطه فى ميدان المعركة فيقال انه ظهر عدة مرات بعد موته مباشرة • ويقال انه ظهر سبع مرات لأربعة أفراد كلهم من أتباع ريموند السانت جيلى • على أن كتاب التاريخ الذى وضعه ريموند الأجوليرى Raymond of Augilers's History هو المصدر الوحيد الذى يتناول أخبار تلك الرؤيا • ومما لا يثير الدهشة هو أنه أثناء ظهور أدهيمار خمس مرات ، كانت احداها لبطرس بارثولوميو Peter Bartholomew ، الذى كان حريصا على التأكيد على أن أدهيمار تعرض للتعذيب بسبب شكوكه بشأن الحربة المقدسة ، وقد تم ارساله الى جهنم لفترة من الوقت ، حيث تعرض للضرب بالسياط وتعرض وجهه للفحات النار ، وسفع اللهب لحيته ، ولكن تقديم زملائه الشمعة من أجل روحه ، وتقديم القربان الى الحربة المقدسة ساعد على انقاذه • وقام أدهيمار بارسال بعض الرسائل الأخرى منها أن الموتى من الصليبيين سيقدمون المساعدة للصليبيين فى حروبهم وأنه شخصيا سيظهر ويقدم المشورة والنصائح • وأبلغ بضرورة تقديم عباءة من عباءاته الى كنيسة القديس أندرو St Andrew فى أنطاكية ، وربما كان ذلك بمثابة عقد صلح لأنه أنكر رسائل ذلك القديس • وقام بتأنيب الصليبيين لأنهم تجاهلوا أوامره ، وأوامر السيدة العذراء Our Lady • وأبلغ بضرورة حمل صليبه فى طليعة الجيش الصليبى • وفى أوائل يوليو ١٠٩٩م عندما كان موقف الصليبيين يتزايد حرجا أثناء محاصرتهم لبيت

المقدس ، ظهر ادهيمار مرة ثانية للصليبيين وأبلغهم تعليمات بشأن التقرب الى الله عن طريق الصوم والسير فى موكب حفاة الاقدام حول بيت المقدس ، وتنبأ لهم بسقوط بيت المقدس في أيديهم بعد تسعة أيام • وعند الاستيلاء على بيت المقدس شاهده الصليبيون الدين كانوا يتدافعون فوق أسوار المدينة فى مقدمة الهجوم • وفى احدى المرات التى ظهر فيها شاهده الصليبيون وبجواره حامل رايته هيرقليوس البولنياكى Heraclius of Polignac الذى كان قد أصيب بجرح أدى الى وفاته فى معركة أنطاكية • وظهر هيرقليوس هدا والجروح واضحة على وجهه ، وأبلغ من شاهده أن المسيح قد منحه امتياز الاحتفاظ بجروحه الى الأبد كما هى ، وهى التى كانت سببا فى وفاته •

ومن أكثر الرؤى شهرة ، تلك الرؤيا التى شاهدها أنسيلم الريبمونتى Anselm of Ribemont اما بالليل أو وقت الظهيرة قبيل مقتله فى الخامس والعشرين من فبراير ١٠٩٩م • وتحمل روايتان من الروايات التى مازالت بين أيدينا بعض أخبار هده الرؤى • ففى الرواية الأولى التى ذكرها ريموند الأجوليرى Raymond of Augilers فقد شاهد انجوراند الفارس الصغير السانت بولى ، والذى كان قد مات قبل ذلك بشهرين • وظهر انجوراند فى غاية الأناقة وأكد لأنسيلم بأنه « عليه ألا يحسب الدين قتلوا من أجل المسيح أمواتا » • اذ أخده الى الجنة وأراه مسكنه بها وهو مسكن فاق الوصف • وأبلغ أنسيلم أنه يعد له حاليا قصرا ليسكنه فى الغد القريب • أما الرؤيا الثانية فقد شاهدها أرنولف الشوكى Arnulf of Chocques ، الدى ادعى أن أنسيلم نفسه

أبلغه اياها، وشاهد خلالها أنسيلم واقفا على كومة من التراب ومنها كان ينظر الى قصر فخم ٠ وشاهد عددا لا حصر له من الأشخاص الحسان ، وكان من الصعب عليه التعرف عليهم ، اذ انهم يتغيرون عند دخولهم الباب ، واتجه اليه أحدهم ، وهو انجوراند السانت بولى Enguerrand of St Pol وقال له انهم رجال الحملة الصليبية الذين نالوا تاج الاستشهاد حديثا ٠ وأبلغ أنسيلم أنه سيلحق بهم فى وقت لاحق ٠

وعلى وجه الاجمال فقد أبلغت الأرواح رسالتين : الأولى هى أن الحربة كانت حقيقية ، والثانية أن رفاق الصليبيين الذين ماتوا ـ بسبب المرض أو على أيدى من أسرهم من المسلمين أو فى ساحة الوغى ـ ذهبوا على الفور الى الفردوس لأنهم شهداء ٠

وهكذا تطورت العناصر المنفصلة التى تضمنتها دعوة البابا أوربان للحرب الصليبية ، وانصهرت فى بوتقة واحدة ، وصارت مجموعة من الأفكار الصليبية ٠ وعندما أصبح الصليبيون مدركين لعظمة انجازاتهم ، اعترفوا بأن التفسير الوحيد لنجاحهم ، هو وجود قوة مقدسة تدخلت ماديا لمساعدتهم ٠ وكان ظهور العلامات فى السماء ، واكتشاف الآثار المقدسة ، وظهور أرواح الموتى وتحركها فى شكل جسدى ، وتحدثها لأشخاص لهم المقدرة والاستعداد على مشاهدة الرؤيا Visioneries أدلة على وجود هذه القوة المقدسة ٠ ومن الواضح أن الحملة الصليبية كانت عملا تدخلت فيه العناية الالهية ٠ وفى الحقيقة كانت حربا مقدسة خاضها جند المسيح من أجل تنفيذ ارادة الله ، فقد شاء الله تخليص بيت المقدس قبل كل شىء ٠ وقام رسل الله ،

بل ان الله نفسه فى شخص المسيح قد شارك فى شق الطريق ذهابا وايابا بين السماء والأرض لحمل رسائل التشجيع والتعزية والنصح والتحذير للصليبيين ٠

وبالطبع كان هذا يكفى لأن يجعل من الحرب الصليبية عملا له ما يبرره من الناحية الأخلاقية ، ولا سيما أن الصليبيين كانوا يقدمون الدليل بأنفسهم على محبتهم لله وطاعتهم لأوامره ، كما عبروا عن محبتهم لاخوانهم فى المسيحية ٠ وكان نشاطهم يحظى بالتكريم والتبجيل ؛ اذ كان يمكن مقارنة الرجل الذى يشارك فى الحملة الصليبية بذلك الرجل الذى يهب نفسه للواجب الدينى وممارسة حياة الرهبنة ، تلك الحياة التى كان ينظر اليها على أنها اسمى طريق يمكن للمرء أن يسلكه ٠ وكانت الحملة الصليبية هى أفضل الدروب التى رسمها مصلحو الكنيسة للعلمانيين من الرجال والنساء ، ونصحوهم بالسير فيها ٠ ومن الملامح المميزة فى كتاباتهم تحول دفة هذه الكتابات نحو الدعوة للحرب ، بعد أن كانت مقصورة على الدعوة لحياة الرهبنة من قبل ٠ فظهرت عبارات جديدة مثل ، « فرسان المسيح » منذ ١٠٩٥م ، وأطلقت على فرسان الحملة الصليبية بصورة تلقائية ٠ وظهرت عبارات أخرى فجأة ٠ فمثلا صار لفظ طريق الصليب يقصد به وصف هذه الحرب ٠ وفى الكتابات الديرية المعاصرة يجد المرء صورة وصفية عن بيت المقدس السماوية باعتبارها الهدف الحقيقى للحياة الدينية ، والتى تفوق أهميتها بيت المقدس الأرضية ، كما أكد على ذلك القديس أنسيلم الكانتربراوى Canterbury ٠ ومن أجل الوصول الى بيت المقدس السماوية يتطلب الأمر رحلة داخلية ، وهى عبارة عن ايمان مسيحى حقيقى ٠ وأثناء

الزحف على بيت المقدس ربط الصليبيون بين حملتهم الصليبية وبين بيت المقدس السماوية التى يسعون الى الوصول اليها • ففي سبتمبر ١٠٩٨ م أرسل القادة الى البابا أوربان يطالبونه بالحضور ، « ليفتح لنا أبواب بيت المقدس الأرضية ، والأخرى السماوية » • مما يوحى بأنهم اعتقدوا بأنهم كانوا يقومون برحلة حج داخل أنفسهم للوصول الى بيت المقدس السماوية • وليس هناك ما يدعو للدهشة أنه برغم كتابة أوربان بأنه لا يريد ، « من هؤلاء الذين نذروا أنفسهم للجهاد الروحي الرحيل » • وكان يعنى بذلك الرهبان ، وعدم رغبته فى مشاركتهم فى الحملة الصليبية ، فان أعمال الفرنجة Gesta Francorum تمكن من الادعاء بأن بوهيموند Bohemond قال : « انكم تعلمون الحقيقة فهذه ليست حربا دنيوية ، وانما هى حرب دينية » • وفى ضوء استخدام العبارات المرتبطة بالحياة فى الأديرة مثل عبارات « فرسان المسيح » و « طريق المسيح » ، و « بيت المقدس السماوية » ، و « الحرب الروحية » أثناء زحف الجيش الصليبى ؛ فلا غرابة أن يستخدم الصليبيون عبارة ، « الشهادة » ويطلقوها على من يسقط منهم فى ساحة المعركة •

ومع ذلك ، فان المفاهيم المدهشة والأفكار التى علقوا عليها آمالهم تم التعبير عنها ببساطة فى الخطابات وفى الكتابات التاريخية التى سجلها شهود العيان ، ولم يقم أحد بمحاولة اثبات صحتها على أساس أن علماء اللاهوت موافقون عليها • وكان هناك من يوجهون أسئلة لأولئك العلماء • ومن هذه الأسئلة : هل يرجع نجاح الحملة الصليبية الى العناية الالهية ؟ ولماذا كانت فكرة الحرب الصليبية محببة

الى الله ؟ وهل من الممكن أن تتساوى بيت المقدس الأرضية مع المدينة السماوية ؟ وهل من الممكن اعتبار مثل هذا الصراع الدنيوى على أنه حرب دينية ؟ وهل يعمل الصليبيون من أجل خلاصهم ؟ واذا كانوا كذلك فكيف كانوا يفعلون ذلك ؟ ولا يمكن تقديم الأجوبة المقدمة عن تلك الأسئلة سوى المعلقين الذين نالوا قسطا وافرا من الدراسات اللاهوتية وليس هؤلاء الذين شاركوا فى الحملة الصليبية ٠

الفصل الخامس

الحملة الصليبية لسنة ١١٠١م

منذ شتاء عامي ١٠٩٦ ـ ١٠٩٧م فصاعدا بدأ الصليبيون يرجعون الى غرب أوربا تدريجيا • وتكدست أكوام الخزى والعار على رؤوس العائدين الأول الى أوطانهم مثل اميتش لينين Emich of Leiningen الذى عاد الى موطنه فى البلقان ، وستيفن البلوى Stephen of Blois الذى فر من الحملة الصليبية فى أنطاكية ، وهيو الفرماندى Hugh of Vermandois الذى لم يعد ثانية الى الجيش بعد أن تم ارساله فى سفارة الى القسطنطينية فى بداية ١٠٩٨م • أما ستيفن البلوى ، فلم يقتصر الأمر على احساسه بالخزى والمذلة العلنية ، وانما تعرض للمعاناة الناجمة عن الازعاج المتواصل على يدى زوجته العنيفة ، أديلا الانجليزية Adela of England • أما جى تروسو Guy Trousseau الذى هرب من أنطاكية بعد تسلق أسوار تلك المدينة فى ليلة الذعر الجماعي المفاجىء الذى ملأ قلوب الصليبيين ١٠٩٨م ، فقد عاد الى فرنسا رجلا محطما ، وكان منهك القوى بسبب المشقة التي كابدها أثناء رحلة العودة من أنطاكية الى فرنسا • وفى شتاء ١٠٩٩ ـ ١١٠٠م تبع تلك الشخصيات

التى لطخت أنفسها بالخزى والعار شخصيات أخـرى كانت مبتهجة بالنصر ؛ اذ تحقق فتح بيت المقدس على أيديهم • ولابد أن عودة الشخصيات الكبرى قوبلت بالترحاب عندما يفـكر المرء فى حالة الفوضى التى غالبـا ما تتبع الغيـاب الطويل للسيد الاقطاعى ، فاقليم الفلاندر Flanders ، كان فى حالة مضطربة عندما كان الكونت روبرت Count Robert بعيدا عن الوطن • ولابد ان نذكر المخاطر التى كان يواجهها الصليبى بعد عودته ، اذا ما وجد أن أسرته أو أحواله المالية فى خطر • وخير مثال على ذلك تجربة هيو شومون Hugh of Chaumont الذى انضم الى الحملة الصليبية بمجرد بلوغه سن الرشـد بعد نزاع عنيف على الميراث • وفى خـلال الفترة التى كان فيها لا يزال قاصرا تولى خاله ليزوا Lisois مهمة حراسـة قلعة هيو القاصر فى أمبـواز Amboise • وأراد ليزوا أن تكون القلعـة من نصيب وريثته كـوربا ثورين Corba of Thorigne ، حفيـدته من خـلال زواج ابنتـه اليزابيث من فوكوا الثوريني Foucoois of Thorigne وحاول ضمان تنفيذ ذلك من خلال اعداد ترتيبات مع الـكونت فولك الأنجـوى Count Fulk of Anjou تقضى بأن تزف الى رجـل يدعى أيمرى الكوروني Aimery of Courron • وتصدى هيـو الشومونى لمحاولة حرمانه من أمبواز Amboise بكل عنف • ونجح فولك الأنجوى فى تسوية الخلافات بين هيو وايميرى Aimery • وتحدث الكثير من النـاس عن السرعة التى انتهت بها تلك المنازعات بعد أن تم التوصل الى تسوية كافة الخلافات ، حتى ان كلا من هيو وايميرى انضما الى الحملة الصليبية فى تور Tours بحضـور البابا وذهبا الى الشرق معا • ثم مات أيميرى أمام نيقية ، ونقل ستيفن من بلوا ،

وزملاؤه الهاربون خبر وفاة ايميرى • أما هيو الشومنتى Hugh of Chaumont فقد قام بدور متميز فى الحرب الصليبية ، وشارك رالف البوجنسى Ralph of Beugency فى حراسة احدى بوابات أنطاكية فى الليلة التى خشى فيها الأمراء من حدوث هروب جماعى • وبعد أن وصل هيو الى وطنه فى عيد الفصح Easter ، ١١٠٠م ، وكان قد أكمل زيارته المقدسة ، الا أنه كان مريضا مثل العديد من رفاقه — وجد أنه قد يفقد أمبواز Amboise • ففى غياب هيو باع الكونت فولك Count Fulk ضميره بالمال لكى يزوج الأرملة كوربا الثورينية Corba of Thoringné الى كهل طفيلى يدعى أشارد الليسانتى Achard of Les Saints ، مجددا بذلك كل الدعاوى والقضايا التى تم تسويتها قبل انضمام هيو للحملة الصليبية • فقد تسببت عودة هيو فى استئناف أعمال العنف وتمثل ذلك فى قيام أحد أتباعه الاقطاعيين باختطاف كوربا Corba طمعا فى الحصول على الفدية •

وعلى الرغم من أن كثيرا من الصليبيين قد عادوا الى عالم مولع بالقتال فى فرنسا القائمة على النظام الاقطاعى ، فان كثيرا منهم يبدو أنه قد عاد ، وقد غلب على فكره الطابع الدينى • فقدم روبرت النورماندى صلاة شكر مقدسة الى القديس مونت — سانت — ميشيل Mont-Saint-Michel كما أهدى جيوجو المارى Guigo of Marra كنيسة فى بلوزر — هوسن Bellousur-Huisne الى رهبان القديس جوليان البتورى St Julian ، بعد أن استضافوه وهو فى طريق عودته لوطنه • وبالنسبة للبعض الآخر كانت عودتهم هى نقطة البداية للانخراط فى حياة الأديرة والبعد عن العالم •

فأصبح الفارس جريمالدوس Grimaldus أحد الأخوان فى دير كلونى Cluny . وأصبح رتشارد فتز ـ فولك Richerd Filz-Fulk راهبا فى بيك Bec . أما الفارس الصليبى جليبرت Gilbert فقد أصبح راهبا فى دير القديس أوين St Ouen فى روان Rouen . وكان قادرا على منح المبنى الذى به الدير والكنيسة كل المال الذى ورثه عن سيدته أوبرى جروسا Aubrée Grossa ، التى ماتت فى الحملة الصليبية الأولى . وبالنسبة للبعض الآخر ـ مثل رالف الأحمر إلبونت ـ أشانفرى Ralph the Red of Pont-Echanfray أو مغامر آخر مثل توماس مارل Thomas of Marl كانت الحملة الصليبية مجرد صفحة فى كتاب مليء بالعنف . وبذلك اختلفت نظرة الصليبيين للمستقبل . فبالنسبة الى روبرت الفلاندرى Robert of Flanders ، والذى صار مشهورا منذ ذلك الحين بلقب محب الانسانية Hierosolimitânus ، فقد حظى باحترام فائق حتى آخر أيام حياته . كما أن استخدام الأسماء المشابهة لاسمه صارت شائعة ، وربما كان ذلك على منوال ما يفعله المسلمون عندما يستخدمون لفظ حاج لمن يؤدى فريضة الحج للدلالة على الاحترام والتبجيل . وبعد ذلك بقرن من الزمان كتب لامبرت الأردرى Lambert of Ardres عن أرنولد الآردرى Arnold of Ardres الذى كان له دور ممتاز فى الحملة الصليبية ، فقال ان سبب غياب اسم أرنولد الآردرى من قائمة الذين ذكرت أسماؤهم فى أغنية أنطاكية انما يرجع الى رفضه دفع الرشوة التى طلبها مؤلف الأغنية ، وكانت عبارة عن حذاء قرمزى اللون مقابل ذكر اسمه فى الأغنية . ويوضح لنا ذلك أهمية الملاحم الشعبية

فى نقل أخبار بعض الناس ، والتحدث بمآثرهم ، وما يطوى على ذلك من الشعور بالاعتزاز والفخر . ومن ناحية أخرى كتب أحد المعلقين يصف أحوال روبرت النورماندى ، فقال ، « ان المصائب التى تعرض لها هذا الرجل انما ترجع الى غضب الله عليه بسبب رفضه لتاج بيت المقدس . ولم يرفض هذا التاج بدافع التبجيل والمهابة للتاج ، بل رفضه بسبب التخوف من عدم الوفاء بالالتزامات التى كانت ستفرض عليه لو قبل التاج . وبذلك كان ذلك الرجل وصمة عار فى جبين النبالة » . أما أنسيلم الآردرى الذى كان قد أسره المسلمون ، واعتنق الاسلام ، فقد عامله الجميع بجفاء شديد عندما عاد الى موطنه بعد عدة سنوات لدرجة أنه اضطر للعودة للمشرق مرة ثانية .

ما مقدار الثراء الذى حققه الصليبيون ؟ قام شهود عيان بوصف المراحل الأخيرة للحملة الصليبيه ، وذكر المؤرخون الكثير عن نهب بيت المقدس عندما سقطت فى أيدى الصليبيين ، وعن الفدية التى أخذها الصليبيون من الأسرى ، فقد قيل ، « فى بيت المقدس تحول كثير من الفقراء الى أغنياء » . كما جاء أيضا أن النصر الذى حققه الصليبيون بعد شهر فى عسقلان جلب لهم كميات هائلة من الغنائم . وللمرء أن يفترض أن من كتبت لهم الحياة من الصليبيين عاشوا فى ذلك الحين فى رغد من العيش الى حد ما ، برغم وجود أدلة على أنهم قدموا جزءا من مكاسبهم فى شكل صدقات ، وفى شكل تبرعات الى القبر المقدس Holy Sepulchre ولكن يمكن القول ان المكافأة التى حصلوا عليها فى نهاية الأمر كانت محدودة ، فلقد كانت ثروة بيت المقدس دينية

أكثر منها اقتصادية ، فلم يأنف الصليبيون من نهب الأماكن المقدسة ذات الأهمية لهم فحسب ، وانما سلموا كل ما نهبوه من الأماكن المقدسة الاسلامية الى الكنائس المسيحية الجديدة · وعلى سبيل المثال ، وهب تنكرد Tancred كل ما جمعه من غنائم بما فيها ما حصل عليه من المسجد الأقصى ، الى رؤساء الأديرة في بيت المقدس · ولا حاجة للتأكيد على أن الجيش المصرى الذى حارب الصليبيين في عسقلان قد حمل معه ثروات ضخمة ، بيد أنه من الممكن ايضا القول بأن فقر الصليبيين أدى بهم الى المبالغة في قيمة الغنيمة التي حصلوا عليها · وعلى أية حال ، فقد كانوا يواجهون تكاليف عودتهم لأوطانهم في ذلك الحين ورجعوا من حيث أتوا شمالا حوالى ثلاثمائة ميل عبر المناطق الريفية التى كانوا قد خربوها من قبل في وقت مبكر من السنة · وجاء في المصادر أنه ما أن وصلوا الى حد الانهاك والفقر المدقع، حتى قبل بعضهم شاكرا العرض الذى تقدمت به اليونان لتحمل نفقات سفرهم حتى القسطنطينية · والواقع فقد وجدت مصدرا واحدا يمكن أن يكون دليلا مفسرا على عودة الصليبيين الى أوطانهم وهم في حالة من الثراء · ومن المدهش أنهم كانوا ينتمون الى الحملة الصليبية التى بدأت سنة ١١٠١ م : فقد عاد الكونت جى الروشفورتى Count Guy of Rochefort الى وطنه ، وقد أصاب الكثير من الثراء وربما تمثل هذا الثراء في الأشياء المادية · ومن الممكن أن تكون تلك الأشياء المادية هى آثار دينية مقدسة قدمها ذلك الرجل للكنائس المحلية · أما الكونت روبرت الفلاندرى الذى كان قد أرسل لوطنه آثارا مقدسة من جنوب ايطاليا وهو في طريقه الى الشرق، فقد أعطى ذراعا للقديس

جورج St George المسروق ، الى دير أنشن Anchin ، حيث تم بناء كنيسة باسم القديس قبل ذلك بعشر سنوات • ووزع ايلجر بيجود Ilger Bigod شعرات من خصلة شعر من رأس سيدتنا Our Lady [مريم ابنة عمران] ، التى كان قد وجدها فى بيت المقدس بين عدة كاتدرائيات ، وأديرة فى فرنسا • كما عرض قريبه أرنولد Arnold ، أحد رهبان شارتر Chartres شعرتين من شعر السيدة العذراء فى كنيسة ماويل Maule ، حيث قيل ان كثيرا من المرضى قدر لهم الشفاء بفضل قدرة الشعرتين المقدستين • وأحضر بطرس فازين Peter Fasin آثارا مقدسة لدير ميالينزا Maillzeis • أما باين بفريل Payen Peverl الذى كان يحمل راية روبرت النورماندى لفترة من الوقت ، فقد أهدى دير بارنول Barnwell آثارا مقدسة كان قد حصل عليها من الشرق • وأحضر سيمون لودرون Simon of Ludron الى وطنه قطعة من الصليب وشظية من القبر المقدس حيث قدمهما ريو اللوهيـــاكى Riou of Loheac الى كنيسة القديس سفوار Savoiur • أمـــا أرنـــولد الآردرى Arnold of Ardres فقد قدم الى الكنيسة التى فى مدينته مذخرا a reuquary به قطعة من الحربة وآثارا مقدسة للقديس جورج ، وللقديسين الآخرين ، كان قد حصل عليها فى أنطاكية ، وشعرة من لحية المسيح ، وقطعة من الصليب ، وقطعة من الحجر من المكان الذى صعد المسيح منه الى السماء وكان قد حصل عليها فى بيت المقدس • أما بطرس الناسك الذى عاد ومعه آثار مقدسة من القبر المقدس والقديس يوحنا المعمدان ، فقد شارك كونون ولامبرت المونتاجى Conan and Lambert of Montaigu فى بناء الدير الأوغسطينى

في نيو فموستير Neu Fmoustier ، the Augustinian priory في هوى بالقرب من ليج Huy near Liege وخصص هـذا الدير لهذين الراعيين atrons ، وهناك اعتقاد في القرن الثالث عشر الميلادى ان هـذا الدير الضخم تم تشييده بعد نذر اخذه الصليبيون على أنفسهم آثناء عاصفة هبت وهم في عرض البحر • كما حصل بطرس على موافقة كتابية من اسقف ليج Liége ، بعـد أن أقنعـه بطـرس بأن أرنولت Arnult بطـريرك بيت المقـدس خـوله امتيـازا للسماح للصليبيين الذين نذروا أنفسـهم للمشـاركة في الحملة الصليبية ، ومنعهم الفقر أو المرض من الوفاء بالنذر بأن يحصلوا على كل مزايا الغفران بمجرد زيارتهم لهـذا الدير الجديد • كما أحضر الى الغرب أسطول تابع للبندقية آثارا مقدسة للقديس نيقولا St Nicholas ، ولقديسين آخرين من ميرا Myra • ومن ناحية أخرى أعاد ثانية فارس صليبي يدعى ألبرت Albert أثرا مقدسـا للقـديس نيقـولا St Nicholas ، كان قد سرقه من المذخر كاهن يمت بصلة قرابة لذلك الفارس •

جلب كثير من الصـليبيين أخبـارا محـزنة لأسرهم وعائلاتهم كما فعل بوسو لاشيز Boso of La Chéze وسيمون لودرون Simon of Ludron ، وستيفن البلوى Stephen of Blois عن موت برنارد لوبيل Bernard Le Baile ، وريو اللوهياكي Riou of Lohéac وأمـيرى الـكوروني Aimery of Courron

وعندما علمت ابرولدا Ebroalda بمـوت زوجهـا برنجـر Berengar الصليبي في بيت المقدس ، انخرطت عـلى الفور في سـلك الرهبنـة ودخلت دير مرسـيني Marcigny

وقدمت أرملة صليبى آخر تدعى استبورجا Estiburge مساكن ، وحقل كروم الى رهبان دير القديس أندرو فى فيين St Andrew in Vienne ، مقابل احياء الذكرى السنوية لزوجها بطرس الذى مات فى فلسطين . أما ايدا الهاينولتية Ida of Hainault فلم تكن متأكدة من مصير زوجها الكونت بلدوين Count Baldwin الذى كان قد قبل أثناء مصاحبته الكونت هيو الفرماندى Hugh of Vermandois فى سفارة للامبراطور البيزنطى ، وسافرت تلك الأرملة للشرق فى رحلة يائسة على أمل الحصول عليه . واذا ما اطلع المرء على أية مجموعة للحوليات المعاصرة ، فسيرى كيف انتشرت الأخبار فى كل أنحاء أوربا عندما أعلنوا الاستيلاء على بيت المقدس ، ورددوا الأغانى بهذه المناسبة ، وأدى ذلك الى الرغبة فى الانتقال للنضال ، وكانت الأناشيد الحربية الأخرى تحث على الحرب حتى يتحقق للمقاتلين المجد الذى حققه الصليبيون بعد فتح بيت المقدس ، فعلى سبيل المثال يوجد نص يصور هذه الحالة حين عبر الألمان جبال الألب سنة ١١٠٨ م أثناء حربهم ضد الونديين the Wends (★) ، وتقول كلمات النص : « سيروا على المثال الطيب الذى انتهجه سكان بلاد الغال ، واعملوا على التفوق عليهم أيضا ... وندعو لكم بالتوفيق وأنتم فى طريقكم من الغرب البعيد فى فرحة بالنصر الى الشرق الأقصى للقضاء على أعداء الله ، ونسأله أن يمدكم بالقوة والعون على الانتصار على الوثنيين (الونديين) المتوحشين القريبين منكم » .

(★) الونديون : شعب سلافي كان يقطن شرق المانيا .

وأدى الحماس الشديد الى حشد مجموعة أخرى من الجيوش الصليبية على الفور . وكان الصليبيون يغادرون غرب أوربا في جماعات صغيرة منذ سنة ١٠٩٧م ، كما تم وضع الخطط لارسال جيوش اضافية أكثر عددا قبل وصول أنباء سقوط بيت المقدس الى غرب أوربا . وعرفنا أن كثيرا من هؤلاء الذين نذروا أنفسهم للمشاركة فى الحرب الصليبية لم يفوا بنذورهم ، وقد أبلغ الصليبيون المكدودون بالشرق ذلك الأمر للبابا أوربان الذى اتخذ الاجراءات اللازمة لارغامهم على الوفاء بنذورهم . وفى النصف الأول من سنة ١٠٩٩م ، وربما أثناء أو بعد مجمع روما الذى انعقد فيما بين ٢٤ ـ ٣٠ أبريل ، طلب البابا أوربان من رئيس أساقفة ميلان أن يدعو اللومبارديين Lombrads للمشاركة فى الحرب الصليبية ، وكانت هناك استجابة قوية فى شمال ايطاليا لدعوة رئيس الأساقفة مع وجود أغنية شعبية معبرة عن ذلك . وتزامنت تلك الحركة مع أنباء الاستيلاء على بيت المقدس ، ثم حمل لواء الدعوة البابا الجديد بسكال الثانى Paschal II . وبعد أن ازدادت عوامل الاثارة فى كل جانب كان البابا بسكال الثانى مستعدا لأن يسير وفقا لأسلوب نقل الأفكار الصليبية الى مناطق الصراع الأخرى ، غير أنه منع المسيحيين من أهالى اسبانيا من مغادرة شبه جزيرتهم كما فعل سلفه ، وأكد على امتداد المزايا الصليبية فى اسبانيا ، وكان مستعدا لالقاء كل ثقله خلف قضية بيت المقدس . وفى أبريل ١١٠٠م ، كتب البابا بسكال الى اللاتين فى فلسطين يبلغهم بتعيينه لمندوب بابوى جديد ، وفى هذا الخطاب يمكن لنا أن نلمح أول رد فعل لرجال اللاهوت يعبرون فيه عن فرحتهم بالنصر . وأشار

البابا بسكال الى انجازاتهم التى جاءت تحقيقا للنبوءات ، وتجديدا للمعجزات التى وردت فى أسفار العهد القديم The Old Testament . وقال البابا ، ان نجاح النصارى فى تحقيق النصر انما يرجع الى عون الله لهم ، بعد أن تركوا أوطانهم بمحض ارادتهم ، ليدافعوا عن اخوانهم فى الدين . غير أنه أمرهم باظهار الورع والتقوى للقديس بطرس ، وربما كان ذلك بسبب القلق الذى أبدته الادارة البابوية نتيجة للطريقة التى اتبعها الصليبيون ، وأدت الى ترجيح المقدسات الأخرى عليه . على أن الأسلوب المتحفظ والرفيع المستوى الذى صيغ به هذا الخطاب المختصر عمل على تعزيز الانطباع الذى وصفه لنا شهود العيان فى كتبهم ، ويشير الى التفسيرات اللاهوتية التى ستأتى بعد ذلك .

وفى ديسمبر ١٠٩٩م ، جدد البابا بسكال الثانى تهديد أوربان الثانى بحرمان هؤلاء الذين لم يفوا بنذورهم فى المشاركة فى الحرب الصليبية والذهاب للشرق ، وأمر الأساقفة بتنفيذ ذلك الحرمان الكنسى فى أبرشياتهم . ولدينا دليل على وضع أمر البابا موضع التنفيذ فى اقليم واحد على الأقل ، وتم تجديد قرار البابا فى المجتمع الكنسى المحلى الذى انعقد فى أنز Anse فى الربيع التالى ١١٠٠م ، والذى حضره عدد مؤثر من الأساقفة تحت رياسة رئيس أساقفة ليون Lyons . وهدد البابا هؤلاء الذين هربوا من الجيش الصليبى فى المشرق بالحرمان الكنسى ، ما لم يعودوا ثانية للمشرق لاكمال رحلة الحج المقدسة . وكان من بين هؤلاء الذين هربوا ستيفن البلوى Stephen of Blois وهيو الفرماندوى Hugh of Vermandois . كما كانت هناك

شخصيات أقل شأنا ، ولذلك رحل الى المشرق هيو ، ونورجو التوسى Hugh and Norgeot of Toucy ، اللذان لم يذهبا الى بيت المقدس من قبل • وكذلك فعل سيمون ووليم سانسفوار البواسى Simon and William Sansavoir of Poissy ، وأخوا والتر المفلس Walter the Penniless الذى قاد قوات بطرس الناسك • وبعد موت شقيقهما، عاد سيمون ووليم الى وطنهما ولكن لم يلبثا أن عادا ثانيــة للشرق ١١٠٠م واندفع آلاف من الرجال والنساء تجاه الشرق من فرنسا وايطاليا وألمانيا بعد اعلان الانتصــارات التي تحققت فى الشرق • وعقــد الممثلان للبابا بسكال الثاني ، وهما الكرادلة حنــا السانت أنستاسي ، وبندكت السانت أودوكسى John of St Anastasia and Benedict of St Eudoxia مجمعــا فى بلنســية Valence فى نهاية سبتمبر ١١٠٠م ، ثم اتجها الى ليموج Limoges وهناك وجدا وليم دوق أكيتانيا Duke William of Aquitaine وكثيرين من الأتبــاع الاقطاعيين Vassals الذين انضــموا للحروب الصليبية ، وذهبــوا جميعــا الى بواتيــه Poitiers فى الثاني عشر من نوفمبر حيث الاحتفال بالذكرى السنوية الخامسة لافتتاح مجمع كليرمونت • ودعا الممثلان لشخصية البابا للمشــاركة فى الحــرب الصليبية فى بواتيــه ، وفى أماكن أخرى أيضا ، وحققت دعوتهما نجاحا كبيرا • وليس هناك ريب فى أن عدد القوات التى خرجت من ايطاليــا ، وأكيتانيا ، وشمال شرق فرنسا كانت مساوية للقوات التى خرجت سنة ١٠٩٦م ، ان لم تكن قد فاقتها عددا • وكانت تلك القوات تحت قيادة علمــانيين من مرتبة متســاوية أو متقاربة ، مثل وليم الأكيتاني ، وستيفن البلوى ، وهيــو

الفرماندى ، ووليم النيفيرى William of Nevers ، وأودو البورجندى ، وستيفن البورجندى Odo of Burgundy Stephen of Burgundy ، وويلف البافارى Welf of Bavaria على أن الفريق الكنسى كان الأقوى بين هذه القوات الزاحفة • وعين البابا ممثلا شخصيا له ، هو هيو الديى Hugh of Die ، كما عين معاونين له ، كما كان الحال مع أدهيمار • هذا بالاضافة الى ثلاثة من رؤساء الأساقفة ، وهم أنسيلم الميلانوى Anselm of Milan وثيمو السالزبورجى Thiemo of Salzburg وهيو البيزانسونى Hugh of Besancon وثمانية أساقفة على الأقل • « ولم يشهد الفرنسيون من قبل مثل هذا الجيش المتآلف » •

ومع ذلك ، فان الأهداف المقصودة هذه المرة كانت مختلفة عن تلك التى وضعها قادة الحملة الصليبية الأولى • وكان البابا أوربان قد جرفته الحماسة فاقترح على أهالى ميلانو ، غزو مصر • وربما كانت خطته هى أن يتقدموا برا الى بيت المقدس ، ثم يواصلوا زحفهم نحو أراضى أفريقيا • غير أن البابا بسكال كان أكثر واقعية ، ففى خطابه المؤرخ فى ديسمبر ١٠٩٩م أكد بسكال على الحاجة الملحة لمساعدة المسيحيين الأوربيين الذين احتلوا الأراضى المقدسة آنذاك • ولا ريب أن هذه الرسالة نقلها أحد رؤساء الأساقفة الى مساعديه ، كما نقلها فى السنة التالية ١١٠٠م ممثلو البابا فى فرنسا ، الذين طالبوا مستمعيهم « بأن يهبوا لمساعدة المؤمنين الذين كانوا يقومون بحملة فى سبيل الله » • على أن التأكيد على تقديم المساعدة الى بلاد كانت قد وقعت بالفعل تحت سيطرة المسيحيين فى ذلك الحين أكثر من

التأكيد على تحرير هذه الأرض كان يعنى بأن زيارات الحج لتلك الأراضى المقدسة كانت لها الغلبة والشهرة . وعند الاطلاع على المواثيق التى صدرت سنة ١١٠٠م عن الصليبيين الذين توجهوا الى بيت المقدس نجد انه من الصعب علينا الوقوف على أية اشارات الى حرب مقدسة . « بما أن الطريق الذى نسلكه غير مستقيم ، وبخاصة لمن ينتمى منا الى طبقة الفروسية ، ولكنه فى زى علمانى ، فمن المناسب أن نحاول العودة الى أرض أسلافنا ، التى أبعدنا عنها بسبب خطايا والدنا الأول [يقصد آدم] ولذلك فنحن متلهفون على عمل كل ما هو جيد قدر استطاعتنا ... أنا ستيفن النيوبلينى Stephen of Neublens أضع فى اعتبارى الكم الهائل من الخطايا التى ارتكبتها ... لذا ، فقد قررت أن أقدم شيئا لله نظير كل النعم التى أسبغها على من فضله وكرمه برغم أنى لا أستحقها . ولذلك قررت أن أذهب الى بيت المقدس حيث شاهد الناس الله فى صورة انسان ، وتعامل معهم ، وأن أنحنى عند موطىء قدميه » . وبعد سقوط بيت المقدس فى أيدى المسيحيين رغبت أعداد غفيرة من كل الطبقات فى الذهاب الى تلك المدينة المقدسة ، اذ كان الكل يتحرق شوقا وحبا للذهاب ، واجتاحت أحد الفرسان من طبقة النبلاء رغبة جامحة فى الذهاب الى هناك وفاء بنذره . وذهب برنارد فردان Bernard Veredun الى بيت المقدس مقتديا بهؤلاء الذين رغبوا فى انقاذ أرواحهم ...

وعند الاستعداد لهذه الحملة اتخذت الاحتفالات الخاصة بالقسم على المشاركة فى هذه الحرب الصليبية ، صورة طقوس رحلة حج الى مكان مقدس .. فقد قام رئيس دير

كلونى Cluny بوضع صليب على كتف ستيفن النيوبلينى Stephen of Neublens ووضع خاتما فى اصبعه • وتسلم ميلو الفينيورى Milo of Vignory كيس الدراهم الذى يأخذه معه للحج • وأعطى هربرت الثوارسى Herbert of Thouars ، «رداء الحج الى الأراضى المقدسة من أسقفه» •

وربما يستطيع المرء أيضا أن يتبين من أول لحظة الدوافع التى ارتبطت دائما بالحروب الصليبية • فقد شارك بعض الناس فى الحرب الصليبية لاعتقادهم بأن أقاربهم ماتوا أثناء الحملة الصليبية الأولى دون أن يفوا بنذورهم ، ومن أمثال أولئك الناس الفايكونت برنارد البيزياوى وهيو باردولف البرياوى Hugh Bardolf Broyes وكوربا الثورينيى Corba of Thorigne • ويتوافر الدليل على أن النصارى العلمانيين الذين لم يكونوا مقتنعين بأن الصليبيين ينالون اكليل الشهادة بعد موتهم ، كانوا فى حالة حيرة وقلق بالنسبة لحصولهم على الغفران قبل وصولهم الى القبر المقدس • وربما يكون الآخرون قد شاركوا فى الحرب الصليبية لمحو العار الذى لحق باسم العائلة بعد هروب أحد الأقارب أثناء الحملة الصليبية الأولى • وقد سبقت الاشارة الى هروب جى تروسو Guy Trousseau ولم يكن الأمر مجرد مصادفة عندما شارك والده مايل البرياوى Miles of Bray وعمه جى الروشفورى Guy of Rochefort فى الحملة الصليبية لسنة ١١٠١م • وبصفة عامة ، يبدو أن دوافع الصليبيين كانت قائمة على نكران الذات والواجب المقدس مثل دوافع أسلافهم • فقد جاء قرار ويلف البافارى Welf of Bavaria

بالمشاركة في الحملة الصليبية تتويجا لمرحلة التحول التي كان قد بدأها بتقديم أعمال الخير والتبرع للكنائس والأديرة ، « ولأنه أراد أن يرضى الله عنه ويغفر له خطاياه فقد ذهب الى بيت المقدس » . أما أودو دوق بورجندى Duke Odo of Burgundy ، الذى قدر له أن يموت في آسيا الصغرى ، فقد وطد نفسه على نكران الذات كما فعل نفيلو Nivelo قبل الحملة الصليبية الأولى . وأقلع عن « العادات السيئة » التي فرضها هو وأسلافه على سكان الأراضى الزراعية التي تحمل اسم القديس بنينوس اندیجونی St Benignus of Dijon . وقال عن ذلك : « قررت الذهاب الى بيت المقدس من أجل التوبة ، وتركت لورثتى ميثاقا يحذرهم من الوقوع في براثن الخطايا ، وقد دعتنى العناية الالهية للذهاب الى قبر مخلصنا بسبب فداحة الخطايا التي اقترفتها ، وجاء قرار الرحيل الى هناك بعد اعلان المصالحة مع الجميع وبخاصة خدام الله » .

ووردت في المصادر التاريخية لشارات عن النفى والتغريب الذى فرضه الصليبيون على أنفسهم ، وذلك امتثالا لتعاليم المسيح التي تدعو الى ترك الأسرة والأرض والوطن من أجله . كما قدر الصليبيون أيضا كافة التضحيات المالية بفرض جمع المال لتمويل الحملة ، فعرض وليم دوق أكيتانيا William of Aquitaine رهن دوقيته لدى ملك انجلترا ، غير أن وليم هذا مات قبل أن يكتمل تنفيذ الاتفاق . كما باع أربين Arpin ، فايكونت بورج Viscount Bourges

مدينة بورج الى ملك فرنسا . وعلى مستوى الشخصيات الأقل شأنا، فان فانتين Fantin ، وابنه جيوفرى Geoffrey اللذين ذهبا مع هربرت الثوارسى Herbert of Thouars قد شاركا فى صفقة تجارية معقدة ، من أجل الحصول على المال ، فقد منح فانتين قطعة أرض الى ابنه ، الذى قام بدوره ببيعها الى والدته . كما انشغل الاقطاعيون مع أقاربهم فى الموضوع نفسه ، ووافقوا على صكوك الرهن ، والبيع عندما اقتضت الحاجة ذلك . كما كانت هناك رغبة فى الاستفادة من قدرة الكنيسة على الشفاعة . فقدم أودو البورجندى Odo of Burgundy الهدايا الى دير موليسم Molesme وطلب من الرهبان هناك ، « تقديم الصلوات لله بانتظام ليحفظ الله له الجسد والروح ، ليمكنه من الوفاء بالنذر » . كما طلب أيضا وليم النيفيرى William of Nevers من رهبان دير موليسم Molesme أن يصلوا من أجله . وانضم ستيفن النيوبلينى Stephen of Neublens الى الاخوة فى دير كلونى Cluny . وكان قد وعد رئيس الدير بأن يظل خادما للمسيح حتى الموت على أن يتولى آخرون ابلاغ الدير عند وفاته ، وأكد له رئيس الدير أن نعيه المرفق برثاء موجز سيتم تسجيله فى سجلات الدير . وقام برنارد فايكونت صاحب اقليم بيزيه Bernard Viscount of Beziers بتقديم هبة الى دير جيلون Gellone « من أجل خلاص روحى ، وروح والدى وروح والدتى ، ومن أجل أن يكتب الله العلى القدير لزيارتى للأرض المقدسة النجاح والتوفيق » .

كما قدم هربرت فايكونت صاحب اقليم ثوارس Viscount Herbert of Thouars الهدايا الى الدير الذى أقامته عائلته فى شيز ــ لو ــ فيكونت Cheise-Le-Viconte مقابل صلوات الرهبان • وكان قد اشترى عباءة من قماش غالى الثمن من كنيسة القديس أوبين St Aubin فى أنجيه Angers مقابل ثلاثمائة صولدى Solidi ، وربما قصد بذلك أن يبادلها بالمال فيما بعد أثناء رحلته الى الأرض المقدسة • غير أن أحد أعضاء الرهبان أقنعه باعادة العباءة دون استرداد ما دفعه من مال • واستسلم لهذا الرأى لأن « طالما أننا نعمل فى سبيل الله ، وأن مبلغ ثلاثمائة صولدى من الممكن انفاقها بسرعة ، لذلك فمن الأفضل أن نعيدها ثانية لكى ننعم بمساعدة صلوات قديس الكنيسة والرهبان هناك » •

واذا كانت كل المسببات تدعونا الى الافتراض بأن دوافع الصليبيين عامى ١١٠٠ ــ ١١٠١م كانت تتسم بنفس طابع الورع الذى عرف به أسلافهم من الصليبيين ، فذلك يرجع دائما لأنهم كانوا ذاهبين الى أرض تم الاستيلاء عليها بالفعل ، وربما لأنهم اعتقدوا أن حملتهم ثبت أنها تحظى بالهام مقدس وأنها من الصعب أن يكتب لها الفشل ، أو ربما للطبيعة الشخصية لوليم الأكيتانى William of Aquitaine الجذابة والمتحمسة الذى « كانت لديه رغبة فى استعراض قوته والعمل على زيادة شهرته » • والى حد ما كانوا يشعرون بالجذل لوجود تلك الجيوش الفرنسية المتالفة ، التى تشبه الفرسان المغامرين كما تصورهم الأغانى لا حشود المتعصبين الذين شاركوا فى الحملة الأولى • وتحرق الكثيرون شوقا

وحماسة للذهاب الى الأراضى المقدسة « لمشاهدة القبر المقدس والأماكن المقدسة وللقيام بأعمال الفرسان الشجعان ضد الأتراك» • ومع ذلك ، فمن الخطأ الافتراض بأنهم قد حاولوا جادين • ففى الواقع هناك بعض الدلائل على انهم قد حاولوا التعلم من أخطاء أسلافهم • وكانت احدى الدلائل تتمثل فى حجم وأهمية الفرقة الكهنوتية المصاحبة لهم • والدليل الآخر هو وجود عدد من الخيول ودواب الحمل كانت تحت تصرفهم عند بدء عبور آسيا الصغرى وكذلك الثروة — نقد وحلى ومجوهرات — التى حملوها على عربات معهم •

وكان اللومبارديون هم أول الحشود الصليبية التى تحركت نحو بيت المقدس ، حيث غادروا ميلانو Milan فى الثالث عشر من سبتمبر ١١٠٠م • وقضوا فصل الشتاء فى بلغاريا Bulgaria حيث اتسمت اقامتهم بالاضطرابات ووجود حالات الشغب ، وحدث نفس الشيء عند توقفهم خارج القسطنطينية لمدة شهرين منذ آخر فبراير أو أول مارس ١١٠١م عندما كانوا ينتظرون وصول زملائهم فى المانيا وفرنسا • وعندما حاول الامبراطور الكسيوس Alexius أن يجبرهم على العبور الى آسيا الصغرى بعد رفضه السماح لهم بشراء المواد التموينية ، هاجموا قصره ، وكان ذلك عملا محرجا للغاية للقادة الصليبيين الذين وافقوا على نقلهم جميعا عبر مضيق البوسفور • وفى نيقوميديا انضمت اليهم الجيوش الألمانية وبعض الصليبيين من بورجندى ، ومن شمال فرنسا تحت قيادة ستيفن البلوى Stephen of Blois • وانضم اليهم أيضا ريموند السانت

جيلى Raymond of St Gilles الذى كان قد وصل القسطنطينية فى صيف ١١٠٠م ، ومعه أهل بيته والحربة المقدسة وسمح لنفسه — على مضض — بالانضمام اليهم كمستشار • وجاء قرار مواصلة الزحف مخالفا لنصيحة اليونانيين ، ستيفن ، وريموند ، وذلك حيث قرروا عدم انتظار باقى أفراد الحملة الصليبية وأن « يدخلوا فى مملكة خراسان Khorassan بالقوة ويحرروا بوهيموند Bohemond — الذى وقع فى الأسر بين يدى الأمير الملك غازى كمشتكين emir Malik-Khazi Gumushtigin فى الصيف السابق — من أيدى الأتراك ويضربوا حصارا حول مدينة بغداد ليدمروها ويخلصوا زميلهم بوهيموند من أغلال الأسر » •

وفى أوائل شهر يونيو ، غادروا نيقوميديا Nicomedia ومعهم الآثار المقدسة للقديس أمبروز St Ambrose والحربة المقدسة • وعندما وصلوا الى أنقره اتجهوا نحو الشمال الشرقى ليصلوا الى جنجرا Gangra ، ومن هناك استداروا ثانية تجاه نكسار Niksar حيث كان بوهيموند مازال فى الأسر • وفى أوائل أغسطس بالقرب من ميرزيفون Merzifon تقابلوا مع جيش تركى حشده الأمراء بعد أن اتفقوا على توحيد صفوفهم • وهناك انقضت عدة أيام فى القتال الى أن أصاب الذعر قلوب الصليبيين ولاذوا بالفرار • وانغمس الناجون من المعركة فى تبادل الاتهامات ، واعتقدت الأجيال التالية أن تهورهم وقرارهم بالاتجاه الى الشمال الشرقى بدلا من الجنوب الشرقى هو الذى أدى الى سقوطهم المفاجىء • غير أن الجيوش التى سلكت الطرق المباشرة لم

تحقق نجاحا كبيرا ، كما أن فك أسر بوهيموند لم يكن فكرة خاطئة في حد ذاتها • فقد كان بوهيموند أمهر القـــادة في الحملة الصليبية الأولى وكانت المحافظة على أمن وسلامة امارة أنطاكية التابعة له ، أمرا مهما بالنسبة للقضـــية المســيحية باعتبار أنطاكية محطة مهمة على الطريق الى بيت المقدس • وبالاضافة الى ذلك ، كان الجيش اللومباردى هــو الجيش الوحيد الذى تم حشده من أجل الاستيلاء على أراض جديدة وليس مجــرد مســاعدة الصــليبيين اللاتينيين فى الأرض المقدسة • واذا كان الايطاليون يهدفون حقيقة الى احتلال بغــداد كمــا جاء فى الســجلات التاريخيــة التى وضــعها ألبرت الآخنى Albert of Aachen ، والتى تشكك فيها فى قدرتهــم عــلى ذلك ، فان اختيــارهم لطــريق يــؤدى الى الأناضــول Anatolia ومن ثم امكان الوصــــول الى مكان أفضـــل فى بلاد الرافدين Mesopotamia عبر ملطيــه Maletya ، والوصــول الى ديار بكر أو الرها ، هو اختيــار مقبول ، ولا غبار عليه ، حتى لو انطوى على مخاطر •

ووصــل الجيش الذى كان تحت قيــادة وليم النيفيرى William of Nevers القســطنطينية فى يونيــو ١١٠١ م ، ولحق بجيش وليم الأكيتاني الذى كان هناك بالفعل ، عبر البسفور ، وبدأ فى الزحف فى الرابع والعشرين من يونيو ليلحق بجيش اللومبــارديين • وفى أنقــره توقف وليم عن الزحف واتجه جنوبا صوب قونيه وسار ثلاثة أيام • غير أن وليم فشل فى الاستيلاء على قونيه واتجه الى ايريجلى Ereghli التى هجرها سكانها المسلمون بعد أن خربوا آبار المياه • وعاني الصليبيون العطش لعــدة أيام وهاجمهــم الأتــراك

وشتتوا شمل الصليبيين بعد أن أنزلوا بهم هزيمة نكراء ٠
آما وليم الأكيتانى الذى غادر غرب فرنسا فى منتصف مارس
فقد انضم الى البافاريين Bavarian الذين كانوا تحت قيادة
ويلف Welf وتقدموا على طريقة جامحة عبر البلقان ثم
وصلوا القسطنطينية في بداية يونيو ٠ وبقى هذا الجيش فى
القسطنطينية لمدة خمسة أسابيع ، حيث اشترى القادة المواد
التموينية ، ونصحهم الامبراطور ، غير أن الألمان بما فيهم
الكاتب وشاهد العيان الوحيد على هذه الحوادث التاريخية ،
وهو اكهارد الأوراوى Ekkehard of Aura ، فضلوا طريق
البحر للوصول الى فلسطين ٠ واتجه كل من وليم ، وويلف ،
بجيوشهما صوب الشرق فى منتصف يوليو بعد أن زودهم
الامبراطور الكسيوس بالمرشدين للطريق ، وسلكوا الطريق
الذى سلكه الصليبيون من قبل ٠ بيد أن ذلك الطريق كان
قد تعرض للدمار والخراب بسبب المرور المستمر للجيوش
المسيحية منذ سنة ١٠٩٧م ، كما خربه الأتراك أنفسهم ،
وبمجرد أن غادروا الحدود البيزنطية نفدت المؤن والمواد
الغذائية برغم تخطيطاتهم وتحسبهم لذلك ٠ وبالقرب
من ايريجلى Ereghli نصب الأتراك كمينا لهم ، وهاجموهم
فقضوا عليهم تماما ٠ وكانت ادا Ida أرملة النبيل الذى كان
يحكم النمسا Austria من بين الذين وقعوا فى أيدى
الأتراك ، وصارت ضمن حريم أحد الأمراء المسلمين ،
وكذلك رئيس الأساقفة ثيمو السالزبورجى Archbishop of
Thiemo of Salzburg الذى ذاعت قصة مقتله بين النصارى
فى أوربا ، وكذلك كوربا الثورينى Corba of Thorigne ،
ولاذ بالفرار كل من وليم الأكتيانى ، وويلف البافارى

كما هرب وليم من نيفيرى ، وستيفن من بورجونديى، وستيفن البلوى ، وريموند السانت جيلى أثناء المعارك السابقة • ومات هيو الفرماندى Hugh of Vermandois متأثرا بجراحه فى طرسوس Tarsus • وانضم بعض من بقوا فى قيد الحياة الى ريموند السانت جيلى فى سوريا • واستولوا على مدينة طرطوشة Tortosa فجعلوها قاعدة لانشاء ما عرف بمقاطعة طرابلس Tripoli ، ثم تجمع معظمهم فى بيت المقدس حيث أوفوا نذورهم • ولم يتمكن البعض منهم من العودة الى أوطانهم بسبب الرياح غير المواتية ، لذلك انضموا الى قوات مملكة بيت المقدس لمواجهة الجيش المصرى • وفى نهاية المطاف تعرضوا لهزيمة نكراء فى السابع عشر من مايو ١١٠٢م • ومات ستيفن البلوى قتيلا، ووقع أربين البورجى Arpin of Bourges فى الأسر ، وقضى ثلاث سنوات ، سجينا فى مصر ، الى أن أجرى الامبراطور البيزنطى مفاوضات لاطلاق سراحه •

وتعرض الصليبيون لنكبات اقتصادية شنيعة • فوليم الأكيتانى الذى وصل أنطاكية « فقيرا ولا يملك شيئا ومعه ستة من المرافقين » ، غادر فلسطين الى وطنه « بعد أن أصبح معدما ، ويعانى كل أنواع الفقر والحرمان » • أما هربرت التوراسى Herbert of Thouars الذى كان قد غادر بواتو Poitou ونفسه مليئة بالورع والتقوى ، فقد وصل الى بيت المقدس ، وهو لا يملك فلسا • وقام أصدقاؤه بتقديم العون المالى له غير أنه فى الثامن والعشرين من مايو ١١٠٢م مات بالقرب من كنيسة القديس نيقولا St Nicholas

فى يافا ، ودفن هناك ، ويقال انه مات حزنا على فقدان أخيه جيفرى Georffrey • وفى فلسطين ، كان أربين البورجى Arpin of Bourges ، يعيش فى رغد من العيش ، ومن ثم فلابد أنه ظل محتفظا بجزء كبير من عائد البيع الذى تم فى بورج Bourges : ولذلك فاما أنه كان قد نقل هذا المبلغ مباشرة الى الأرض المقدسة أو أنه أبحر بنفسه ومعه المبلغ الى الأرض المقدسة ، وبذلك لم يشارك فى النكبة التى حدثت فى آسيا الصغرى • وبعد وقوعه فى الأسر فى القاهرة عاد الى أوربا انسانا آخر ، بعد أن غيرته المعاناة والهموم ، ولذلك دخل دير كلونى Cluny بناء على نصيحة البابا بسكال •

وفى غضون صيف ١١٠١م ، ألحق الأتراك هزيمة نكراء بثلاثة جيوش صليبية ضخمة ومعدة اعدادا جيدا • وتبعا للظواهر فالأمر المثير للدهشة بشأن سلسلة الحوادث التاريخية المثيرة لمشاعر المذلة والخزى هى أن تاريخ تلك الهزائم المثيرة للرثاء لم يلق سوى اهتمام ضئيل من قبل المعاصرين • ولم تدون كل الكتابات التاريخية عن الحملة الصليبية الأولى الا بعد الهزيمة النكراء التى حلت بالصليبيين سنة ١١٠١م ، وكان اكهارد الأوراوى Ekkehard of Aura أحد المؤرخين الذين شاركوا فى تلك الحملة • ولكن لم تتأثر عملية حشد الجيوش الصليبية ، فقد شهد الربع الأول من القرن الثانى عشر أكبر هذه الحشود ، ففى عامى ١١٠٧ ــ ١١١٠م أرسلت الحملة النرويجية تحت قيادة الملك سيجورد Sigurd الى الأراضى المقدسة ، وفى حوالى عام

١١٢٠ م دعا البابا كاليكستوس الثانىCalixtus II الى حشد حملة صليبية ، وتم الاعداد لها على نطاق واسع ، وترتب على تلك الدعوة تحرك حملات عسكرية الى فلسطين فيما بين ١١٢٣ ــ ١١٢٤م ، والى اسبانيا فيما بين ١١٢٥ ــ ١١٢٦م ويمكن أن نضيف الى ما تقدم الحملات الصليبية التى توجهت الى اسبانيا أعوام١١٠٨ ، ١١١٤ ، ١١١٦ ، ١١٨٨م٠ لكن ما الذى دعا النصارى بالغرب الى حشد كل هذه الحملات الصليبية ؟ يرجع ذلك الى أن الحملة الصليبية لعام ١١٠١م لم تؤذ أحدا سوى المشاركين فيها ٠ فلم يكن الخطر يتهدد النصارى فى بيت المقدس أو يهدد سيطرتهم على فلسطين ــ سوريا ، بل كانت رقعة الأرض التى سيطروا عليها تتزايد طوال نصف القرن التالى ٠ غير أنه من الخطأ اعتبار الحملة الصليبية لسنة ١١٠١م وكأنها حادثة غير مهمة ، اذ نظر المعاصرون لها نظرة ايجابية ، وترجع أهميتها الى أنها ساعدتهم على تطوير أفكارهم ٠

والواقع أن الانتصارات التى أحرزها الأتراك كانت خير برهان على مدى ما حققه الصليبيون فى حملتهم الأولى ، ومقدار تفوقهم ، كما أكدت على حقيقة كثيرا ما تعرضت لها الدعاية الغربية فقد صورت مدى قوة أعدائهم المسلمين ، وشدة بأسهم ٠ ولم يعرف سكان غرب أوربا أن الأمراء والأتراك كانوا فى حالة نزاع وخصام مع بعضهم البعض فى عامى ١٠٩٧ ــ ١٠٩٨م ، فى حين تحالف الأمراء الآخرون فى آسيا الصغرى ضد الصليبيين سنة ١١٠١م ٠ فقد كان يكفيهم أن الصليبيين الأول ، الذين عانوا الحرمان والجوع ، وفقدوا خيولهم ، وكانوا دون قائد حقيقى ، ولم

يجمعهم سوى العقيدة والفقر ، قد تفوقوا على قوات كانت قد انتصرت على جيوش أكثر عددا وعدة ، فى فترة قصيرة . وبمعنى آخر ، فقد أكدت الحملة الصليبية السنة ١١٠١م على طبيعة النجاح الباهر الذى أحرزه الصليبيون فيما بين عامى ١٠٩٧ و ١٠٩٩م .

وكان من الممكن استخلاص الدروس من تلك الحملة الصليبية ؛ اذ أن الدعاة للحرب الصليبية استطاعوا تقديم تفسير مقبول للهزائم التى حلت بالصليبيين سنة ١١٠١م. واعتمد هذا التفسير على توضيح فكرة أساسية موجودة في كتاب العهد الجديد the Old Testament ، وفى كتابات القديس أوغسطين St Augustine ، وخلفائه المسيحيين ، ويشير هذا التوضيح الى أن الهزيمة فى قضية مقدسة قد تكون عقاب الله للانسان لارتكابه الآثام . فالهزائم ولا سيما تلك التى تحدث فى عملية عسكرية مقدسة ، انما هى من عند الله وفقا لأحكامه وقوانينه العادلة ، وهو الذى يقسم الأرزاق والذى ينزل العقاب بمن يستحق العقاب ، وكانت فكرة العقاب فكرة تقليدية ، وقد أشار البابا أوربان نفسه اليها حين تناول موضوع القضية المسيحية . ووجدنا أن الصليبيين الأوائل أنفسهم قد فسروا متاعبهم ومشاكلهم المعقدة على أنها عقوبات أنزلها الله بهم ، وأيد هذا القول المعلقون الذين نسبوا حالات الاخفاق والفشل الى ما ارتكبه الصليبيون من خطايا وآثام أولا وقبل كل شىء . واعتبر المعلقون أن تلك العقوبات وسائل للتأديب وليست مجرد وسائل للعقاب ــ فأحكام الله هى العدل بعينه ــ فالله جل شأنه يعمل على كبح جماح المسيحيين ويقودهم الى الطريق القويم .

فقال المعلقون فى هذا الصدد : « أدبهم الله بسبب حماقتهم، خشية أن تتأثر عقولهم بشيء من الغرور نتيجة للانتصارات الكثيرة التى أحرزوها · ونقرأ فى الكتاب المقدس أن بنى اسرائيل تعرضوا كثيرا للحزن والألم والهزيمة على يد الفلستيين (★) ، والأدوميين Edomites ، وأهل مدين Midianites والشعوب الأخرى المجاورة وذلك حتى يدفعهم الله الى العودة اليه والعمل بوصاياه » ·

ولذلك كان طبيعيا اعتبار كوارث ١١٠١م عقوبات مفيدة جلبها المشاركون فى تلك الحملة على أنفسهم ، وكتب أحد المعاصرين فى الشرق والذى لابد أنه قابل من قدر له البقاء فى قيدة الحياة فى بيت المقدس ، يقول ، « يبدو لنا أن هذه الكارثة حلت بهم بسبب غرورهم وما اقترفوه من آثام » · وتعرض القادة الذين قدر لهم البقاء فى قيد الحياة للاحتقار والازدراء الذى يتناسب مع هؤلاء الذين لا يستحقون عطف الله وتأييده · وذهب الدوق وليم الأكيتانى الى بيت المقدس مع الآخرين ، غير أنه لم يقدم شيئا للقضية المسيحية · وفى الواقع ، كان وليم هذا فاسقا ، ولذلك فقد أثبت أنه متقلب ·

والواقع أن فشل الحملة الصليبية لعام ١١٠١ م عمل على زيادة قيمة الانجازات التى حققها الصليبيون فيما بين ١٠٩٧ ـ ١٠٩٩م ·

(★) الفلستيون Palestines شعب هند اوربى استوطن جنوب غرب فلسطين (المنطقة الساحلية بين يافا والحدود المصرية والتى عرفت باسم فلستيا Phillistia) ولا علاقة لهم بالفلسطينيين العرب Phillistines ذوى الأصل السامى الكنعانى الا من حيث الاسم الذى حرف وعمم ليطلق على كل سكان فلسطين ·

الفصل السادس

الارتقاء اللاهوتى

نقلت الصور والتماثيل والأغانى الشعبية والأشعار ملحمة الحملة الصليبية الأولى للأجيال اللاحقة ، وأشهر هذه الأغانى « أنشودة أنطاكية » the Chanson d'Antioche التى ألفها أحد المشاركين فى تلك الحروب ، وقام الشاعر جريندور الدوايى Graindor of Douai باعادة صياغتها ومراجعتها حوالى ١١٨٠م ، والأهم من ذلك المؤلفات التاريخية التى ورد ذكر تلك الأغنية بها • وقد فاقت الكتابات التاريخية عن الحروب الصليبية أى موضوع آخر فى وسط العصور الوسطى ، فبالاضافة الى ما كتبه المؤرخون المعاصرون بالاستعانة بالروايات التاريخية التى أدلى بها شهود العيان، هناك ما لا يقل عن اثنى عشر مؤرخا ، لا يقلون أهمية عن المؤرخين السابقين • وكان الفرق الوحيد بين الفريقين هو التأكيد على دور الفرنسيين وأهميته ، وهو طبيعى فى مجموعة كاملة تحتوى اسهامات من كل أنحاء غرب أوربا • غير أنه فيما يتعلق بالقدرة على التعبير عن الأفكار ، فهناك ثلاثة مؤرخين كانت لهم الأفضلية والتميز • وكان جميعهم من الرهبان البندكتيين فى شمال فرنسا • وكتب جميعهم

فى وقت واحد تقريبا ، بعد انقضاء حقبة من الزمان من الاستيلاء على بيت المقدس ، ومع ذلك لم يشاركوا فى الحرب الصليبية أو حتى زاروا الشرق برغم أن اثنين منهم حضرا مجمع كليرمونت • واستمان جميعهم بمصدر أساسى ، وهو أعمال الفرنجة Gesta Francorum لمؤرخ مجهول كان شاهد عيان ، ورغم ذلك فقد أضاف كل منهم ما جمعه من معلومات بنفسه •

وأول أولئك المؤرخين هو الراهب روبرت Robert the Monk (أو التابع للقديس ريمى St Remy أو ريمز St Rheims) • وتاريخ ميلاده غير معروف لدينا • وربما كان أحد تلاميذ بولدريك البورجيى Baldric of Bourgueil الثالث من بين هؤلاء المؤرخين • على أية حال ، كانت له مكانة مرموقة فى مجال الثقافة والعلم ، وبعد أن كان راهبا فى ديرى سانت ريمى St Remy ، ومارموتيه Marmoutier ، صار رئيسا لدير سانت ريمى • وبناء على هذه الوظيفة حضر روبرت مجمع كليرمونت • غير أنه أثبت عدم مقدرته فى النواحى الادارية ؛ مما جعله عرضة لاتهامات بسوء السلوك ، وصدور قرار الحرمان الكنسى ضده ، ثم عزله من منصبه ١٠٩٧م • وتقدم روبرت باستئناف للحكم الذى صدر ضده الى البابا أوربان الثانى ، وحصل على الغاء لهذا الحكم ، غير أنه لم يتمكن من العودة الى ديره ، وذهب للاقامة فى دير سينوك Senuc ، ثم عزله البابا كاليكستوس الثانى Calixtus ١١٢٢م ، لسوء ادارته لذلك الدير ، ثم مات بعد شهور قليلة • أما الزمن الذى كتب فيه تاريخه

الشعبى المشهور عن الحرب الصليبية فمازال موضع خلاف ، غير أنه توجد أدلة قوية تفترض أنه انتهى من كتابته عام ١١٠٧م وتمت الكتابة بناء على أوامر الأب غير المعروف ب abbot B ، ويبدو لنا أنه برنارد المارموتيى Bernard of Marmoutier الذى مات ١١٠٧ م · والمؤرخ الثانى هو جيبير النوجنتى Guibert of Nogent ، الذى ولد فى أسرة نبيلة ١٠٥٣م ، ثم انضم الى دير سانت جيرميه فى مقاطعة فلاى St Germer of Fly وواصل دراساته بكل جد واجتهاد ــ وكان تلميذا للقديس أنسيلم St Anselm لفترة من الوقت ــ وأصبح عالما مشهورا · وفى ١١٠٤ م ، وقع عليه الاختيار ليكون رئيسا لدير نوجنت ــ سو ــ كوسى ، ثم مات ١١٢٥م · وكتابه عن الحروب الصليبية وضعه فيما بين ١١٠٤ و ١١٠٨م وأجرى عليه بعض المراجعات النهائية سنة ١١١١م ، ويحتوى كتابه هذا على كم وافر من المادة العلمية التاريخية الأصلية ، استقاها من أفراد مشهورين أمثال روبرت الفلاندرى Robert of Flanders الذى كان يعرفه ، واستفاد أيضا من نسخة منقحة من كتاب التاريخ الذى وضعه فولشر الشارترى Fulcher of Chartres ومع ذلك ، فيبدو أن كتاب التاريخ الذى كتبه جيبير لم يتمتع بالشعبية التى حظى بها تاريخ الراهب روبرت أو تاريخ بولدريك البورجيى Baldric of Bourgueil الرجل الثالث بين تلك المجموعة من المؤرخين والذى ولد ١٠٤٦م · وكان بولدريك هذا راهبا ثم رئيسا لدير بورجى ، وحضر مجمع كليرمونت · ومنذ ١١٠٧م وحتى

وفاته ١١٣٠م ، كان بولدريك أكثر رؤساء أساقفة مقاطعة دول فى بريتانى Dol in Britanny تغيبا عن الدير ، وبالاضافة لذلك فقد كان كاتبا بارعا ومثقفا ، مما ساعده على وضع كتاب الحروب الصليبية سنة ١١٠٨م · ويشتمل هذا الكتاب على القليل من التفاصيل الجديدة ، مثل المعلومات التى ذكرها عن الفرقة الصليبية البريتونية Breton ؛ غير أن هذا الكتاب تعرض لكثير من النقد ، فوصف بأنه مجرد اعادة صياغة لكتاب أعمال الفرنجة Gesta Francorum ولكن بأسلوب جميل ممتع · وقد استعان به اثنان من المؤرخين الكبار ، وهما أوردريك فيتاليز Orderic Vitalis الذى أعجب كثيرا بما كتبه بولدريك ، وفينسنت البوفى Vincent of Beauvais ، كما استعان به اثنان آخران من المؤرخين على الأقل وقام أحدهما بتحويل ما كتبه الى قصيدة شعرية ·

وهكذا وجدنا ثلاثة من كبار الرهبان فى شمال فرنسا وهم من بين نتاج الحركة الثقافية الديرية الأخيرة التى أفسحت المجال فيما بعد للتعليم فى المدارس ، اختار كل منهم على انفراد ، وربما دون علم الآخرين ، أن يكتب عن الحملة الصليبية الأولى معتمدا بصفة أساسية على الرواية التى وردت فى كتاب أعمال الفرنجة · ويجب أن نتذكر أن كتاب أعمال الفرنجة صنفه نورمانى من جنوب ايطاليا ، وأنه انتشر بين الناس فى فرنسا ، وقد يرجع سبب انتشاره الى الحملة الدعائية التى قام بها بوهيموند التارانتوى Bohemond of Taranto ، لحشد الرجال للدعوة الى حملة

صليبية جديدة • وكان بوهيموند قد وصل الى فرنسا فى أوائل ١١٠٦م • وبعد زيارته لضريح القديس ليونارد St Leonard فى سانت ليونارد ـ دو ـ نوبلا St Leonard-de-Noblat ، حيث أوفى بالنذر الذى كان قد أخذه على نفسه عندما كان سجينا فى نكسار Niksar ، قام بجولة فى البلاد والفرحة تغمره ، مقدما الآثار المقدسة والأشياء النفيسة التى كان قد أحضرها من الشرق للكنائس والأديرة ، وكان يروى مغامراته وتجاربه المثيرة لجمهور المستمعين الذين قدروه حق قدره ، حتى ان كثيرا من النبلاء الفرنسيين طلبوا منه أن يكون أبا روحيا لأبنائهم • وأعلن بوهيموند ومعه المندوب البابوى برونو السينى Bruno of Segnil الدعوة لحملة صليبية جديدة فى مجمع محلى انعقد فى بواتيه Poitiers ، بهدف مساعدة النصارى فى الشرق واجبار المسلمين على اطلاق سراح الأسرى من النصارى • وقد اصطحب بوهيموند رجلا طالب بأحقيته فى الجلوس على عرش الامبراطورية البيزنطية ، وسيطرته على الحاشية الاغريقية ، وبمناسبة زواج هذا المدعى من كونستانس الفرنسية Constance of France فى مدينة شارتر Chartres ، فى أبريل أو مايو قام بالقاء موعظة دينية فى الكاتدرائية دعا فيها الى حشد حملة صليبية ، وشجع الفرسان الفرنسيين على المشاركة فى غزو الامبراطورية مقابل منحهم الأراضى الخصبة • وربما كانت خطته تتشابه مع الخطة التى نفذتها الحملة الصليبية الرابعة بعد قرن من الزمان وتمثلت خطته فى حشد قوة عسكرية خارج مدينة القسطنطينية ، أثناء توجهه الى الشرق ، تساعده فى تغيير الحكومة البيزنطية • وقد

أرسل هذا المدعى كتابا الى البابا بعد عدة أشهر يقول فيه أن محاولة سيطرته على عرش الامبراطور ألكسيوس Alexius احدى القضايا الجانبية ، وبرر هجومه على اليونانيين بقوله ان هذا الهجوم بمثابة الانتقام منهم بسبب الطريقة التى عاملوا بها الصليبيين ، كما أن هذا الهجوم هو الوسيلة الفعالة لانهاء الهوة التى تفصل اليونانيين عن بقية الأوربيين ·

وقدم كل من روبرت Robert ، وجيبير Guibert وبولدريك Baldric المبررات التى دفعتهم للكتابة التاريخية، وقالوا ان ذلك يرجع الى الطريقة الفظة الخرقاء التى اتبعها صاحب كتاب أعمال الفرنجة · فذكر روبرت كيف ان رئيس الدير المدعو برنارد المارموتيى Bernard of Marmoutier أطلعه على معلومات تاريخية ··· غير أنها ضايقته كثيرا لأنها لم تتضمن وصفا للأساس الذى قامت عليه الحملة الصليبية فى مجمع كليرمونت ، كما أهمل التنميق اللغوى الذى يتسم به سياق الحوادث التاريخية الجميلة · كما أن التركيب الأدبى للجمل يمضى فى تثاقل ، ويغلب عليه طابع الفظاظة ·

ثم استمر فى حديثه فأضاف : « اذا كانت نسختنا تثير استياء أى انسان نشأ فى بيئة تغلب عليها المعارف والثقافة ··· فاننا نود أن نقول اننا نفضل أن نلقى الضوء على ما هو غامض ــ على نحو ما يفعله الرجل الريفى الخشن ــ لا أن نلقى بغيوم التعتيم على ما كان واضحا وجليا على نحو ما يفعله أى فيلسوف » ·

وقدم جيبير هو الآخر تفسيرا ، فقال : « الواقع أن هناك تاريخا عن الحرب الصليبية غير أنه كان مكتوبا

بأسلوب يفتقر الى الرصانة والدقة ولم يلتزم الكتاب بقواعد اللغة والنحو فى كثير من الفقرات ، وكثيرا ما ضعف شوق القارىء لافتقار الأسلوب الى عنصر التشويق والاثارة » ، ثم قدم تبريرا قويا لما ينبغى أن يكون عليه أسلوب الكتابة التاريخية ، فقال : « عندما نجد تحمسا من جانب الجميع لدراسة علم النحو والصرف فى كل مكان ونعلم أن هذا التعليم متاح لأفقر الأفراد نظرا لوفرة عدد المعلمين ، عندئذ من الخزى والعار ألا نكتب عن أمجاد عصرنا ، أو - على الأقل - نبذل أقصى جهدنا لتحاشى الأساليب الفظة وغير المألوفة التى تكتب بها الحوادث التاريخية » ٠

وكتب بولدريك Baldric الشىء عينه تقريبا ، فقال : « ولست جديرا بأن أكون بين طبقة الفرسان المباركة ، ولا يحق لى أن أكتب عن أشياء لم أرها ٠ بيد أنى لا أعلم من هو المؤلف المجهول الذى نشر كتابا عن هذا الموضوع بأسلوب ركيك ، وبذل جهدا مضنيا ليظهر الحقيقة ، غير أنه بسبب ركاكة أسلوبه ، قد انتقص من قدر الموضوع النبيل ، كما أن اللغة الفظة الخالية من المحسنات البديعية تجعل القارىء المحنك ينصرف عن القراءة على الفور ٠ وقد أقدمت على دراسة الموضوع ، لا من أجل تحقيق مجد أجوف ولا من أجل ارضاء لغرور عابر ، وانما حرصت على كتابة الجمل بكل دقة واهتمام لكى أدخل البهجة والسرور على الأجيال المسيحية التالية » ٠

وهكذا أخذ ثلاثة من العلماء الديريين على عاتقهم مهمة اعادة كتابة مادة تاريخية عن الحرب الصليبية كتبها شهود

عيان مشهورون · وكان هدفهم من ذلك هـو معالجـة ذلك التاريخ بأسلوب أدبى أفضل · وكانوا يقصدون من كلامهم هـذا ـ كما أوضـح كل من روبرت وجيبير وبولدريك ـ معالجة الحوادث التاريخيـة بأسـلوب دينى لائق · وكانت مدارس اللاهوت بالأديرة قاصرة فقط على المثقفين ، الذين درسـوا علوم النحـو والصرف فى القـرن الحـادى عشر ، أى أولئك الذين لـم تتـوافر لديهم القـدرات اللغـوية فحسب ، وانمـا درسـوا الفلسـفة كذلك · وواقـع الأمر أن ما ذكره أولئك الرهبان الثـلاثة يقترب من القـول بأن كتـاب أعمال الفرنجـة لم يكتب بأسـلوب دينى كمـا ينبغى · واذا أخـذ المرء فى اعتبـاره حالة السـعادة التى اجتاحت أوربا عقب نجـاح الحملة الصليبية ، فقـد كانت هناك حاجة ماسة الى ضرورة مناقشـة سلسلة من الحـوادث التاريخية التى كشفت عن وجود العنـاية الالهيـة ، بحيث تكون هذه المناقشة بأسلوب أكثر تدينا ، ولا سيما أن الدعوة الى حملة صليبية أخرى كانت قد بدأت تلوح فى الأفق · ومن الجدير بالملاحظة أنه رغم وجود اختلافات طبيعية فى الأسلوب وفى درجة الاهتمام لهؤلاء المؤرخين الثلاثة ، فان الفـكرة الرئيسية التى تدفقت من أقلامهم ، كانت فى الواقع تنقل رسالة واحدة ، ولابد أن الدوائر الديرية البندكتية بفرنسا قد توصلت الى تفسير مشترك للحرب الصليبية · وترجـع أهمية مؤلفات الرهبان الثلاثة روبرت وجيبير وبولدريك ، الى أنها كشفت النقاب عما يدور فى عقول المثقفين فى أوربا بعد انقضاء حقبة من الزمان على سقوط بيت المقدس · وفى كتاباتهم نجد تعبيرا فكريا عن أيديولوجية شبه شعبية تكونت اثر الصدمة النفسية التى أحدثتها الحملة الصليبية ، كمـا

أن الفكرة المرتبطة بالحروب الصليبية قد تطورت أثناء هذه الحروب ، وأثرت على علماء اللاهوت .

ان الدهشة التى انتابت الصليبيين بعدما حققوه من انجازات كانت نقطة البداية لسلسلة متتابعة من الأفكار التى تعرض لها المؤرخون الثلاثة . وكانت الحرب الصليبية حادثا رائعا بالنسبة اليهم . فكتب جيبير Guibert ، « اننا نتحدث عن الانتصار الأخير الذى لا يضاهى ما حققته حملة بيت المقدس ، ونبتهج ابتهاجا عظيما لأن عصرنا قد أعلى شأننا ، لقد حظيت بلقب لم يحظ به أسلافنا » .

ووفقا لمفهوم روبرت ، فان النصر تحقق لأن المسيح عيسى تولى قيادة المعركة ، ثم قال روبرت : « كانت المعركة عملا الهيا وليس بشريا » . وعاد روبرت الى معالجة هذا الموضوع مرارا . وفي فقرتين من كتاباته ، قام بتصوير حالة الارتباك التى انتابت المسلمين بعد انتصار النصارى عليهم فى عسقلان ودوريلية Dorylaeum . وقال بوهيموند وهو يرجع انتصارات الصليبيين الى تدخل العناية الالهية ، وذلك فى محادثة جرت بين بوهيموند والقائد الاسلامى الذى أفشى له أسرار أنطاكية ، فقال بوهيموند : « أبا فيروز Opyrrhus ألا يبدو لك أنها معجزة كبرى أن المسيح عيسى الذى نؤمن به هو الذى يعمل من خلالنا ؟ والى من تنسب هذه القوة ، الى بنى البشر أم الى القدرة الالهية ؟ ان الانسان لا حول له ولا قوة . انه عبد لارادة خالدة للذى خلقه ومنحه القدرة على العمل » .

وبعد انتهاء معركة دوريلية ، صور روبرت الصليبيين وهم ينشدون ترنيمة تشبه الترنيمة التى كان يغنيها موسى مع اليهود تعبيرا عن شكرهم فى سفر الخروج بالعهد القديم، بعد أن أباد الله المصريين وأغرقهم فى البحر الأحمر مع قائدهم فرعون •

وتقول كلمات هذه الترنيمة كما جاءت فى سفر الخروج الاصحاح ١٥ عدد ١ ـ ١٣ : « أرنم للرب فانه قد تعظم ، الفرس وراكبه طرحهما فى البحر • الرب قوتى ونشيدى • وقد صار خلاصى • هذا الهى فأمجده • اله أبى فأرفعه • الرب رجل الحرب • الرب اسمه • مركبات فرعون وجيشه ألقاهما فى البحر • فغرق جنوده المركبية فى بحر سوف • تغطيهم اللجج • قد هبطوا فى الأعماق كحجر • يمينك يارب معتزة بالقدرة • يمينك يارب تحطم العدو • وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك • ترسل سخطك فيأكلهم كالقش • وبريح أنفك تراكمت المياه • انتصبت المجارى كرابية • تجمدت اللجج فى قلب البحر • قال العدو أتبع أدرك أقسم غنيمة • تمتلىء منهم نفسى • أجرد سيفى • تفنيهم يدى • نفخت بريحك فغطاهم البحر • غاصوا كالرصاص فى مياه غامرة • من مثلك بين الآلهة يارب • من مثلك معتزا فى القداسة • مخوفا بالتسابيح • صانعا عجائب • تمد يمينك فتبتلعهم الأرض • ترشد برأفتك الشعب الذى فديته ، تهديه بقوتك الى مسكن قدسك » •

وفى عبارة أخرى متعثرة ذهب روبرت أبعد من ذلك ، حين حاول ، كما كان يظن ، أن يصور أن العناية الالهية قد تدخلت فى الحروب الصليبية • ولذا يمكن مقارنة هذه

الحروب بحادثتين آخريين ، تدخلت فيهما العناية الالهيــة ، وهما خلق الله للانسان ، وخــلاص الجنس البشرى فقال : « وباستثناء سر شفاء المرضى ، فما الحادث الأعظم الذى جرى منذ بدء الخليقة حتى وقتنا هذا الا ذهاب رجالنا الى بيت المقدس » .

وتوصل جيبير الى الاستنتاج نفسه تقريبا ، « ان الله ، صانع المعجزات ، والذى جل فى علاه ، ولا شريك له فى ملكه ، كان وحده هو القائد ، والمرشد للصليبيين . وهــو الذى دبر أمورهم ، وسدد خطاهم ، وقادهم الى ما وصلوا اليه . وهو الذى منحهم تلك الأراضى الجــديدة والحــدود الشاسعة التى صارت تحت أيديهم . وهــو الذى لم شــمل الحملات بين ذراعيه . وشملهم برعايتــه التــامة . ومنح أولاده الأمــل والسرور ، ونقلهــم الى الأماكن التى تاقت أنفسهم الى زيارتها » .

تتمثل الفكرة الأساسية للحرب الصليبية كما وردت فى كتاب جيبير ، والتى رددها كثيرا ، فى أن هذه الحرب كانت بمثابة اعلان عن موافقة الله ، لما يقوم به الصليبيون، وليس مجرد حرب تهدف الى السلب ، بل انها حرب أكثر قداســة وأسمى هدفا من أية حرب مقدسة قام بها بنو اسرائيل وورد ذكرها فى العهد القديم . فقال فى هذا الكتاب : « واذا ما وضعنا فى اعتبارنا المعارك التى خاضتها الأمم وتفكرنا فى العمليات الحربية الكبرى التى انتهت بالقضاء على ممالك وضياعها ، فلن نفكر فى أى جيش أو أى عمل بطولى يمكن أن يرقى الى حد المقارنة مع ما قمنــا به . وعلمــا بأن الله تجلت قدرته في الشعب اليهودى ، بيــد آننـا نقر ونعترف

بوجود دليل لا يقبل الشك على أن المسيح عيسى عاش فى الوقت الحاضر بين معاصرينا مثلما عاش غيرنا من القدماء ، وأكدت مرات عديدة لأن ما قلته يستحق التكرار ، على أن مثل ذلك الحادث التاريخى لم يسبقه حادث مثيل فى تاريخ العالم • واذا ما عارض بنو اسرائيل قولى هذا باشارتهم على بالرجوع الى معجزات الله التى صنعها معهم ، فانى بدورى أذكرهم بالمعجزة التى حدثت فى البحر [الأحمر] الذى كان مكتظا بالأميين • وبالنسبة للصليبيين كان المسيح بنفسه هو سندهم ودعامتهم ، وقوتهم ، وهو الذى أمدهم بالوحى والالهام ، وشد من أزرهم ، بفضل كلمة الله ، كما حدث عندما أعطى الله المن Manna لبنى اسرائيل » •

وطبقا لما ذكره جيبير ، قام الصليبيون بتقديم كل آيات التعظيم والتمجيد لله مثلما فعل اليهود من قبل ، بيد أن أوجه الخلاف بين اليهود والصليبيين ــ والتى جعلت انجاز الصليبيين أكثر اهمية ــ تكمن فى أهداف كل من الشعبين المختارين • فقد خاض اليهود حروبا دنيوية من أجل ملء بطونهم ، وبالاضافة الى ذلك فقد حارب اليهود من أجل المحافظة على الناموس القديم ، « من أجل المحافظة على الطقوس والمعبد » ، أو « من أجل المحافظة على عادة الختان ، والامتناع عن أكل لحم الخنزير » • فى حين أن المسيحيين قاتلوا دفاعا عن الكنائس « ومن أجل التبشير بالمعتقدات النصرانية » • كما أنهم بدءوا بدافع روحى فقط ••• وتميز هذا الدافع بالعون الالهى ، « وهو الأمر الذى لم يحدث فى التاريخ من قبل » • ويرجع السبب فى الطبيعة الخاصة التى تميزت الحروب الصليبية بها وكذلك السبب الذى جعلها اظهارا لقوة الله ، فى أن هذه الحروب قد شهدت تآلفا بين القوة

الالهية ، وصدق نية الصليبيين • وكما أشار جيبير فى كتابه «اظهار قوة الله على أيدى الفرنسيين Gesta Dei Per Francos » كانت هذه الحرب اظهارا لقوة الله وبأسه •

واعتبر كل من روبرت ، وجيبير ، وبولدريك أن الحرب الصليبية جاءت تنفيذا لبعض النبوءات التى وردت فى الكتاب المقدس • وربط هؤلاء الكتاب الثلاثة بين الانتصارات العسكرية التى حققها الصليبيون والانتصارات التى حققها بنو اسرائيل ، كما أبرزوا أوجه التشابه بين الشخصيات الصليبية والحروب الصليبية والشخصيات البارزة والحوادث المهمة فى التاريخ اليهودى • كما سلطوا الضوء على الفكرة القائلة بأن الكتاب المقدس وردت به بعض الجمل والفقرات التى يفهم منها أنها تضمنت تنبؤات عن الحروب الصليبية • وكان بولدريك أكثر ترددا بشأن هذا الموضوع عن جيبير وروبرت كما أن طريقة تناول الاثنين الآخرين للموضوع كانت مختلفة • أما جيبير فقد تناول الموضوع من عدة نواح • وتضمن موضوعه نبوءة من سفر أيوب وسفر المزامير وسفر الأمثال وسفر أشعياء وسفر زكريا ، وانجيل لوقا • كما قدم عرضا مطولا لما جاء فى سفر زكريا ، حيث تنبأ زكريا بالاستيلاء على بيت المقدس ومنطقة يهوذا ، وربط جيبير بين هذه النبوءة وبين الصليبيين • ومن ناحية أخرى أشار روبرت فى كتاباته الى سفر التثنية [أحد أسفار العهد القديم] مرة ، وسفر الأمثال [أحد أسفار العهد القديم] مرة ، ولكن معظم كتاباته تركزت على سفر أشعياء [أحد أسفار العهد القديم] حيث أبرز النبوءة التى وردت بهذا السفر ، فنجد أن الاصحاح ٩ عدد ٩ ــ ١١ ، ١٥ ، ١٦ يشير الى حالة بيت

المقدس في المستقبل ، حيث يأتي أبناء بيت المقدس من الأماكن البعيدة ، وكذلك الغرباء الذين يقومون ببناء اسوار المدينة ، كما أن أبوابها ستفتح على مصراعيها امام الحجاج الذين سيتدفقون عليها ليل نهار • كما أن الموقف الجديد الذى وجد الصليبيون أنفسهم فيه بعد الاستيلاء على بيت المقدس وكذلك نجاح حملتهم الصليبية ، قد جعلا كلا من روبرت ، وجيبير ، وبولدريك يستعينون بنصوص من الكتاب المقدس متعلقة بالنبوءات ، ولكنهم لا يستطيعون الاعتماد على أى تأويل متاح لديهم ، يمكن الاعتماد عليه لتفسير هذا الموقف الجديد الذى وجدوا أنفسهم فيه ، وتفسير نجاح حملتهم الذى اقترب من حد الاعجاز في نظرهم • أما المعانى المستمدة من هذه النبوءات ــ التى كان ينظر اليها فى الماضى على أنها معان رمزية ــ فقد بدأ الصليبيون ينظرون اليها على أنها معان ستتحقق بالحرف الواحد على أيديهم • وقام جيبير بالتعليق على النص الذى ورد فى سفر زكريا اصحاح ١٢ عدد ٣ القائل : « ويكون فى ذلك اليوم أنى أجعل أورشليم حجرا مشوالا لجميع الشعوب الذين يشيلونه ينشقون شقا • ويجتمع عليها كل أمم الأرض » • فقال ان معنى هذا النص لا ينبغى أن ينظر اليه على أنه معنى مجازى، بل ينبغي أن ينظر اليه على أنه معنى حرفى قد تحقق تاريخيا على أيدينا • وقال روبرت الشيء نفسه حين علق على النص الوارد فى سفر أشعياء اصحاح ٥٥ عدد ١٢ والقائل : « لأنكم بفرح تخرجون وبسلام تحضرون • والجبال والآكام تنشد أمامكم ترنما وكل شجر الحقل تصفق بالأيدى » • فقال ان نبوءة النبى أشعياء وكافة التنبؤات الأخرى التى

تحدثت عن تحرير بيت المقدس قد تحققت على أيدى الصليبيين ولا يشق علينا ، تصور الصدمة التى أصابت الصليبيين حين أدركوا أن نصوص الكتاب المقدس التى كانوا ينظرون على أنها تحمل معانى مجازية قد تحققت فجأة على أيديهم .

وكان التنبؤ بما سيحدث عن اقتراب الساعة the Last Days ، أحد الملامح الأساسية لما ورد فى كتاب جيبير الذى قال ان البابا أوربان الثانى أعلن فى خطابه الدينى فى كليرمونت أن المسيح الدجال سيقيم فى بيت المقدس ، لأنه ينوى مهاجمة النصارى ، فلن يظهر المسيح الدجال الا بعد احتلال النصارى لبيت المقدس . وبالاضافة الى ذلك ، فهناك تفسير تقليدى لنبوءة فى سفر دانيال الاصحاح ٧ : عدد ٢٤ ، ان المسيح الدجال سيقتل ملوك مصر ، وأفريقيا والحبشة بسبب اعتناقهم النصرانية وهو أمر لن يحدث الا اذا اعتنقت منطقة شمال أفريقيا النصرانية . وكذلك ربما تكون الحرب الصليبية بداية التحول الجماعى نحو المسيحية ، واقتراب يوم القيامة ، ولا سيما أن تحرير بيت المقدس من الأمميين كان مرتبطا باقتراب يوم القيامة وفقا لما ورد بالانجيل الذى كتبه لوقا (٢١ : ٢٤) . وقبل خروج الصليبيين من بلدانهم ظهر اتجاه الكتابة عن البعث والحساب وان كانت الكتابات التى تحدثت عن ذلك قليلة الى الحد الذى لا يجعل من الايمان بالعصر الألفى السعيد Millenarianism يشكل عنصرا مهما فى الحروب الصليبية ، ولكن مثل هذه الأفكار كانت شائعة .

وكان المفهوم السائد لدى النصارى بالغرب أن المساندة الالهية جعلت من الحرب الصليبية حربا فى سبيل الله وأحاطتها بالقداسة · كما كان المفهوم لديهم ان الحرب الصليبية هي حرب ضد « شعوب بعيدة عن الله كل البعد » · بل هي حرب ضد زبانية الشيطان · وكان اعتقاد النصارى بالغرب أن أراضى بيت المقدس هي أرضهم ، انما يرجع الى الحكم الالهى الذى منحهم هذه الأراضى كما سبق أن منح الله « أرض الميعاد » لبنى اسرائيل · « ان الله الذى قاد بنى اسرائيل عند خروجهم من مصر ، ومكنهم من عبور البحر الأحمر ، هو الذى تنبأ لكم بالاستيلاء بالقوة على هذه الأرض تحت قيادة المسيح عيسى » ·

ولكن الايمان بأن الله أجاز شن الحرب الصليبية لم يعف الدعاة لتلك الحرب من ضرورة تقديم الأدلة والبراهين التى تبرر ضرورة استناد الحرب الصليبية على أسس أخلاقية لاهوتية · وأشار كل من روبرت وبولدريك وجيبير الى أن الحملات الصليبية قامت لنشر الديانة النصرانية · ولكن من الواضح أنهم رأوا أن نشر الديانة النصرانية بمثابة مكافأة لمن يعتنق هذه الديانة ، وليس تبريرا لقيام الحملات الصليبية ، رغم أن روبرت كان أقل تمسكا بالمبدأ الذى ينادى بالجهاد الدينى لنشر التعاليم النصرانية من كل من جيبير وبولدريك · وكانت معالجة جيبير للموضوع ، واشاراته الى الجهود المسيحية ، والى الحرب باعتبارها عملا حتميا دفاعا عن الكنيسة مثالا نموذجيا لآراء المصلحين التقدميين ، حيث قال فى هذا الصدد : « واذا كان على الفرسان أن يدافعوا عن قضية حماية الحرية والدفاع عن العالم المسيحى ، فلابد لهم

أن يقدموا مبررا صادقا على اقل تقدير • وبالاضافة الى ذلك فيجب على أى مقاتل عدم التقاعس عن الاشتراك فى الخدمة العسكرية عند التعرض لغزو البرابرة أو الاميين ، وحتى اذا لم تكن تلك حالات تدعو الى قيام الحرب فان الحرب تكون مشروعة لحماية الكنيسة المقدسة • غير أنه نظرا لعدم توافر النية الحسنة لخوض هذه الحرب ، ونظـرا لأن قلوب الجميع سيطرت عليهـا الرغبـة فى التملك ، لذلك أجاز الله شن الحروب المقدسـة فى عصرنا ••• واذا كان المـكابيون Maccabees فى العصـور السـالفة قد اشتهروا بالتقـوى لأنهم دافعوا عن الطقوس والشـعائر والمعبـد فانكم ايضـا يا جنود المسيح ، فى استطاعتـكم الدفاع عن حـرية أرض الآباء والأجداد باستخدام الأسلحة ••• وحتى هـذا الحين فقد خضتهم حروبا غير عادلة : اذ غالبا ما لوحتم برماحكم فى وجه بعضكم البعض فى المذابح المتبادلة والناجمـة عن الطمع والغرور ، ومن أجل ذلك استحق كل منكم الهـلاك الأبدى واللعنة ! والآن نعرض عليكم أن تخوضـوا حروبا تنالون فيها اكليل الشهادة المجيد ، وتحصـلوا فيها المجـد الخالص والأزلى » •

وسـاق بولدريك Baldric أكثر من مرة تلك الحجـج عندما ذكر أن البابا أوربان الثانى صرح فى مجمع كليرمونت قائلا : « تحتفظ الكنيسة لنفسها بجيش لمساعدة شعبها » • وعندما ذكر أن بوهيموند Bohemond طلب من الصليبيين قبل معركة دوريلية Dorylaeum أن ، « يسـارعوا للدفاع عن أنفسهم وعن عالمهم المسيحى » •

وواقع الأمر أن معالجة القضية الصليبية اتبعت خطين مزدوجين رسمهما البابا اوربان الثانى ، وهما تحرير كل من الشعب المسيحى والاراضى المسيحية . وعرف جيبير Guibert القضية الصليبية بانها : « تقديم العون لكل المسيحيين من أجل استرداد بيت المقدس وتحرير القبر المقدس » . وبالنسبة للقضية الأولى فلقد كتب الكتاب الثلاثة باسهاب عن المظالم التى تعرض لها الحجاج النصارى والاضطهادات التى عانى منها النصارى الذين يعيشون فى أراضى المشرق الاسلامى . وهناك سمة مدهشة الى حد ما تتعلق بأنهم كانوا يكتبون فى وقت تنقل فيه بوهيموند Bohemond عبر حدود فرنسا وهو يعلن شجبه بعنف للحكومة اليونانية . غير أنهم كأصحاب كتابات تاريخية وكشهود عيان لم يكن هناك تحت أيديهم دليل على وجود مشاعر معادية تجاه الشعب اليونانى بصفة عامة . وتعرضت حكومة الامبراطور الكسيوس Alexius لكثير من اللوم لسوء معاملتها للصليبيين ، كما نظر غرب أوربا لشعب الكسيوس نظرة احتقار لاتهامهم بالتخنث ، ولخروجهم على تعاليم الكنيسة فى روما ، برغم عدم وجود سبب وجيه لذلك . وأثناء وصف روبرت لاستيلاء الصليبيين على مدينة نيقية Nicaea وعودتها لليونانيين ذكر روبرت القراء بأول مجمع مسكونى عالمى انعقد فى تلك المدينة ، وقال : « من الجدير بنا أن تعود نيقية الى المسيحيين ، وبذلك يرضى الله عنا ، بعد أن عادت هذه المدينة الى جسد الكنيسة المقدسة الأم . وهكذا شاءت ارادة الله أن تعود هذه المدينة الى الكنيسة المقدسة بعد اراقة دماء الكثيرين من الذين نالوا اكليل الشهادة هناك » .

وكانت القسطنطينية ، عاصمة اليونانيين ، بالنسبة لكل من روبرت وجيبير ، تستحق كل احترام وتبجيل باعتبارها مدينة ملكية وكرسيا رسوليا . والقسطنطينية تتساوى مع روما باستثناء ان روما مقر الكرسى البابوى ، ولذلك فهى عاصمة العالم المسيحى . والقسطنطينية أكبر مستودع للآثار المقدسة فى العالم المسيحى ، ومن ثم فهى مكان مهم يزوره الحجاج . وأعلن بولدريك بكل قوة عن حرصه على التأكيد على رابطة الأخوة التى تربط جميع المسيحيين . والواقع أن اليونانيين هم اخوة للمسيحيين اللاتينيين ، حيث تربطهم بهم صلة رحم . لذلك فهم يطلبون مساعدة اخوانهم من المسيحيين اللاتينيين . فقالا عن اليونانيين : « هم اخواننا فى المسيح ـ واخوانكم فى الرحم واخوانكم فى السلاح . فهؤلاء اليونانيون تربطنا بهم صلة الرحم . وهم أبناء نفس الكنيسة ونفس المسيح . والدماء التى تجرى فى عروقهم دماء مسيحية خلصتها دماء المسيح» .

وفيما يتعلق بتحرير الأراضى عرف روبرت ، وجيبير ، وبولدريك المعيار الذى يدعو للعنف المشروع من أجل استرداد الأراضى . فمنطقة القدس كانت تابعة للعالم المسيحى ، وكانت جزءا من الامبراطورية الرومانية المسيحية قبل الفتح الاسلامى . « ان الأرض ... ليست أرضهم ، فعلى الرغم من أنهم وضعوا أيديهم عليها لفترة طويلة من الوقت فانها كانت أرضنا منذ عهد قديم ... ولابد أن تعود الينا لأن ارادة الله شاءت أن تعود الأرض التى ضاعت فى عهد الآباء الى الأبناء » .

بيد ان بيت المقدس والارض التي حولها شهدت عملية الخلاص من الحطيئة التى قام بها المسيح ، ومصدر أصول العقيدة المسيحية . « فبيت المقدس هو المكان الدى نلنا منه نعمة الخلاص والمصدر الذى نستمد منه أصول المسيحية .. واذا كان صحيحا أننا نستمد كل تعاليمنا المسيحية من ينبوع بيت المقدس ، فان قلوب كل الكاثوليك يجب ان تتجه صوب هذا النبع الدى يستقى منه العالم بأسره ليتدكروا بكل حكمة الدين الذى يجب أن يعترفوا به لهدا النبع الكريم » .

ولذلك فمدينة بيت المقدس هى ، « الكنيسة الآم لكل الكنائس فى العالم » . وهى ايضا مدينة ملكية ، فهده المدينة ملك للمسيح بذاته ، وفقا لما ورد فى المزامير ، وهى مدينة مقدسة أيضا فقد صارت أرضها وأحجارها مقدسة بعد أن عاش المسيح بها . « اذا ... كانت هده الأرض تصم بيت المقدس قبل أن يولد المسيح، وينشأ ويترعرع ، فالى أى مدى يمكن أن تكون جديرة بالتوقير والتبجيل بعدما تجسد الرب فيها وتربى وكبر ومشى على أرضها وانتقل من مكان الى مكان ؟ ... وما التبجيل الذى نعتبره لائقا بالمكان الذى سال على أرضه دم ابن الرب ، هذا الدم الأقدس من السماء والأرض وكذلك جسده الذى رقد فى القبر ؟ » .

وكما ورد فى كتابات شهود العيان ، فان قدسية المكان (بيت المقدس) هى التى جعلت عملية اغتصابه والسيطرة عليه غير مقبولة ، لأن سيطرة غير النصارى عليه عملت على تدنيسه . « ستتأثر تأثرا شديدا عند زيارة القبر المقدس لربنا ومخلصنا ، هذا القبر الذى يقع تحت سيطرة شعوب غير مسيحية ، كما ستتأثر بعد زيارة الأماكن المقدسة التى

دنستها العبادات والممارسات غير الجديرة بالاحترام والوقار » .

عرفنا من قبل أن الصليبيين انفسهم راوا ان معركتهم من أجل الاستيلاء على بيت المقدس الارضية سوف تدفعهم الى التقدم بطريقة ما تجاه بيت المقدس السماوية . ولم يكن هذا أمرا مقبولا نظرا لأنه مهما كان تحرير مدينه ارضية عملا مقدسا ، ومهما بلغت قدسية هذه المدينة ، فلا يمكن مقارنة هذا بحمل الآخرين على اعتناق النصرانية . وقام كل من بولدريك وروبرت بتطوير الفكرة والكتابة عن تحرير بيت المقدس الارضية كاجراء تمهيدى للفوز بالمدينة السماوية . « مدينة بيت المقدس على مثال المدينة السماوية وتحاكيها . وفي امكانك مشاهدة الأعداء المنظورين وهم يقاوموننا هنا . بالاضافة الى ذلك فالأعداء غير المنظورين يطوقون الطرق المؤدية الى بيت المقدس السماوية . ويتعين علينا خوض الصراع الروحى ضدهم . والأمر الأكثر أهمية لنا هو أن نقاوم الأرواح الشريرة فى الأماكن السامية أكثر من مقاومتنا للبشر الذين نشاهدهم بأعيننا .. وسنكون غير صالحين تماما وعاجزين فى نضالنا الروحى ما لم نتخذ موقفا صلبا ضد المسلمين » .

وبالنسبة لجيبير Guibert كانت الحرب الصليبية عملا روحيا بقدر ما كانت نوايا المشاركين فيها تتسم بالطابع الروحى .

وأبدى كل من روبرت ، وبولدريك ، وجيبير اهتماما بالغا فى كتاباتهم بهؤلاء المشاركين فى الحروب الصليبية ،

فقد كان الصليبيون ، على مثال اليهود فى العهد القديم ، الصفوة التى اختارها الله ، ولم يكن كونهم من الفرنسيين أمرا من قبيل الصدفة . فالواقع أن الفخر القومى التقليدى بالانتماء الى شعب الفرنجة يظهر بكل وضوح فى الكتابات التاريخية لشهود العيان . وذكر روبرت أن بوهيموند Bohemond أعلن عندما علم بالدعوة للحرب الصليبية قائلا :

« ألسنا من سلالة الفرنجة ؟ ألم يأت أجدادنا من فرنسا وحرروا جنوب ايطاليا بسواعدهم ؟ يا للخزى والعار ! هل سيذهب اخواننا وأقاربنا الذين تربطنا بهم صلات رحم للفوز بالشهادة والذهاب الى الفردوس ؟ » والواقع أن الفرنسيين كانوا ، « الأمة المباركة التى باركها الله » . وكانت فرنسا الاقليم الوحيد فى العالم الذى يستحق التمجيد ، « وكم كانت تشبه اسرائيل عندما نصب الفرنسيون الخيام فى آسيا الصغرى ! » . ان الله هو اله الفرنسيين الذين أحبهم ، واصطفاهم للقيام بهذا العمل ، ويؤكد على كل ما تقدم تاريخهم وايمانهم بالله وولاؤهم لكرسى الرسول . .

« واذا ما تعرض البابوات لأى أذى على أيدى الشعوب المجاورة ، كان المألوف منذ القدم أن يسارع البابوات بطلب العون من الفرنسيين . فقد سبق أن لاذ بالفرار كل من البابوات ستيفن وزكريا الى الملكين بيبان Pepin وشارل . وكان البابا ستيفن . . . قد شارك فى حملة عسكرية حتى وصل الى مدينة تيتشينو Ticino لاستعادة أملاك الكنيسة فتمكن من استرداد الكرسى البابوى . . . وقال عن هذا : لابد لكل شخص مؤمن أن يعترف معى بأن الله حفظ الشعب

الفرنسى لهذه المهمة الكبرى [الحرب الصليبية] ، وبخاصة أننا نعلم علم اليقين أن الفرنسيين ظلوا على عهدهم ، ولم يصابوا بعدوى الغدر والخيانة منذ أن تلقوا شارة الايمان على يدى القديس ريميجيوس St Remigius .

كان الفرنسيون الصليبيون من الفرسان العاديين ، ولم يكونوا من رجال الاكليروس الدينيين او العلمانيين . ونظرا لأن معظم هذه الكتابات كانت تخاطب اهل الأديرة ، فان المرء يجد أن هده الكتابات كانت تستعيد الى الأذهان صور البطولة الرومانسية التي تعص بها الأناشيد الدينية . وعلى سبيل المثال صور روبرت الراهب قلج آرسلان وهو يحدث رجاله عن هزيمته قائلا : انهم لا يخشون الموت أو الأعداء .. فمن فى استطاعته تحمل رؤية أسلحتهم المثيرة للذعر والهلع؟ وتلمع رماحهم مثل النجوم التى تتلألأ وتومض خوذاتهم ، وستراتهم المدرعة mailcoats مثل ضوء بزوغ فجر فى فصل الربيع . كما ان صليل أسلحتهم أكثر اثارة للرعب عن صوت الرعد . وعندما كانوا يعدون أنفسهم للمعركة ؛ كانوا يلوحون برماحهم فى الهواء ويتقدمون فى صفوف . في سكون تام وكأنهم صم بكم . وعندما يتقدمون تدريجيا صوب أعدائهم كانوا ينقضون عليهم بكل قوة كالأسود المتعطشة للدماء . ثم يصيحون ويكشرون عن أنيابهم ويملئون الجو بصيحاتهم . ثم لا يرحمون أحدا » .

كان الكتاب الديريون قادرين على اطلاق العنان للمديح الخيالى من هذا النوع ، اذ قد أصبحوا يشاركون الأفكار الحربية مع غيرهم من الناس ، بعد أن عانوا الكبت منذ

تعومة أظفارهم . وبعد دعوة البابا أوربان الثانى لقيام الحملات الصليبية ، استطاعوا أن يغيروا الصورة القديمة للفارس الهمجي التى كانت فى اذهانهم لتحل محلها صورة الفارس النصرانى النبيل . « انصتوا وافهموا . لقد تمنطقتم بنطاق الفروسية ، وتختالون فى مشيتكم ، وتشع الكبرياء من عيونكم . وأنتم يا من تسفكون دم اخوانكم ظلما تكونون سببا فى الشقاقات والمنازعات . هذا العمل الذى يشتت شمل رعايا المسيح لا يقوم به فرسان المسيح . ان الكنيسة المقدسة تحتفظ لنفسها بجيش لمساعدة شعبها ، ولكنكم تلحقون بها الأذى بخداعكم ومكركم . ولنتكلم بصدق ونقول ان واجبنا الدعوة والتبشير بأنكم تسلكون طريقا يبعدكم عن حياة النعيم والفردوس . أنتم يا من تظلمون اليتامى ، وتسرقون أموال الأرامل وتسفكون الدماء ، وتكذبون على الله ، وتنهبون حقوق الآخرين ، أنتم تأملون فى الحصول على مكافآت قطاع الطرق مقابل سفك دماء النصارى . وأنتم تبحثون عن الحرب أينما كانت فتشتمون رائحة الحرب كما تشم النسور رائحة الجثث . ولا ريب ان هذا السبيل هو أسوأ السبل لأنه بعيد كل البعد عن الله . واذا ما أردتم تقبل النصيحة من أجل خلاص أرواحكم فيجب عليكم أن تطرحوا عنكم نطاق الفروسية الذى تمنطقتم به وتنضموا الى فرسان المسيح ، حتى تتمكنوا من الدفاع عن الكنيسة الشرقية » .

وأكد جيبير النوجنتى Guibert of Nogent على أن العامة بدأت تتمسك ، وبدأت تقوم بالدور المنوط بها دون حاجة الى اتباع العادات الديرية فقال : « أجاز الله لأول مرة شن

الحروب المقدسة في عصرنا ، لكي تجد طبقة الفرسان والعامة التى تسير في ركابها طريقا جديدا يجعلهم يمورّون بالخلاص بعد آن كانوا يسيرون على نهج الوثنيين القدامى الذين انشغلوا بقتل بعضهم البعض • وهكذا لم تكن عامة الناس مجبرة على التحلى عن الشئون الدنيوية تماما واختيار الحياة الديرية أو أية مهنة دينية ، كما جرت العادة فى الماضى ، وانما استطاعوا الحصول على النعمة الالهية مع استمرارهم فى مزاولة أساليب حياتهم اليومية فى حرية تامة وارتداء الملابس التى اعتادوا عليها » •

وأشار جيبير الى أن أهمية هذا الاقتراح لا تتمثل فى طرحه أمام طبقة العامة فحسب ، بل ينبغى عليهم أن يستجيبوا له أيضا فقال : « كانت فكرة الموت المقدس من أجل محبة الله تشغل المقام الأول فى فكر الصليبيين • وما كان لأحد أن يعتقد فى أن الله سيضع مثل هذا الازدراء للأمور المادية فى قلوب الأشرار والجشعين » •

وكان أمرا طبيعيا أن ينظر الرهبان الذين تأثروا بحركة الاصلاح ـ التى كانت تهدف الى فرض قيم أولئك الرهبان على العالم ـ الى الصليبيين على اعتبار أنهم مجموعة من الحجيج العلمانيين الذين اعتنقوا نوعا من الحياة الديرية ، رغم قصر مدة هذه الحياة ، فى الوقت الذى يدافعون فيه عن المسيح والكنيسة • وأشرت من قبل الى أن الجيش كان كمثل جالية ديرية كبيرة فى حالة ترحال وتميز أسلوب تحركها بوجود الطقوس الدينية الخاصة بالشفاعة المنتظمة • وفهم كل من روبرت ، وجيبير ، وبولدريك ذلك فهما جيدا ، وتركزت كتاباتهم عن الحرب الصليبية حول ذلك

المفهوم . وذهب جيبير الى حد القول بأن الصليبيين ، «عاشوا حياة ديرية وليست عسكرية ، فقد كانت حياتهم تتسم بالتقشف والعفة ، مما دفع بولدريك وروبرت الى استخدام عبارات معينة لوصف هذا الجيش مثل ، «الرابطة المقدسة»، و « جماعة المسيح » ، وجماعة « المؤمنين المقدسة » . وتردد ذكر مثل هذه العبارات بالكنيسة فى عهودها المبكرة ، حين كانت مثلا يحتذى للحياة الديرية . وأعلن بولدريك عن رأيه فى ذلك صراحة حين قال . « فى تلك الحملة قاتل كل دوق duke بنفسه فى المعركة ، وشارك فى الحراسة الليلية وفقا لتوزيع الأدوار ، لدرجة أنه كان من الصعب على اى فرد التمييز بين الدوق والفارس او الفارس والدوق ــ وبالاضافة الى ذلك كانت السلع ملكا مشاعا للجميع حتى لم نعد نسمع أحدا يقول أن شيئا معينا يخصه وحده دون سواء ، بل ان كل شيء كان مشتركا فيما بينهم كما كان الحال فى الكنيسة فى أوائل عهدها » .

تسلط الأضواء على صورة الحملة الصليبية التى رسمها كل من روبرت ، وجيبير ، وبولدريك بمجرد أن يدرك المرء إن أولئك الكتاب الثلاثة كانوا يصورون الحملة الصليبية على أنها دير متحرك . وكان بالامكان مقارنة كل خطوة يخطونها بما يقوم به اخوانهم فى الأديرة . وأخذ الصليبيون على أنفسهم عهودا بخوض غمار الحرب . وكانت هذه العهود بمثابة اعتراف منهم وتحول الى ايمان ، فقالوا : « اننا نرى أمما تتحرك وفقا لالهام الله ... فساد ازدراء للوظائف الكبرى فى الحكومة ، وقيادة القلاع وحكم المدن ، كما أصبحت الزوجات الجميلات مصدر ازدراء من جانب

الرجال ــ وأصبحت المجوهرات ــ التى كان لها بريق وتأثير لا يقاوم على النساء والرجال ــ شيئا محتقرا من الجميع • وتولدت الارادة لدى الرجال ، فأصبحوا يقومون بما لم يستطع غيرهم القيام به • فما تفسير هذه الاستجابة العامة ؟ لا يمكن تفسيرها الا على اعتبار أنها الطيبة التى سيطرت على قلوب الناس وجعلتهم يقومون بنفس الأشياء الصالحة •

وبعد أن ترك الرجال زوجاتهم وأطفالهم وأملاكهم ، اختاروا التغرب التطوعى فى سبيل الله ، فعاشوا حياة الفقر والعفة • وأشار بولدريك الى أن الزوجات رافقن أزواجهن لأغراض الزواج أو الخدمة الدينية فقط • اما الشيء الذى اختلف مع نمط الحياة فى الأديرة ، فهو الافتقار الى وجود قائد أو تسلسل قيادى واضح معظم الوقت • بيد ان روبرت ، وجيبير ، وبولدريك استفادوا من هذا الى أبعد حد ممكن ، لأن هذا الوضع مكنهم من التأكيد على ضرورة الاتحاد والاخوة حتى يشتد آزر الصليبيين ويوحدوا كلمتهم • « وبدون ملك وبدون أمير وبالتقوى وحدها استطاعوا الوصول الى طريق خلاصهم » • فلم يكن حبهم لله هو الذى يحركهم فحسب ، وانما امتد حبهم ليشمل اخوانهم المسيحيين ، وبذلك يكونون قد نفذوا وصية المسيح حرفيا والخاصة بأن يضحى المرء بحياته من أجل اخوانه فى الدين •

ولا يوجد وصف أكثر وضوحا من كتابة كل من جيبير ، وروبرت ، وبولدريك عن الاستشهاد لقوم كانوا دنيويين وسلكوا سلوكا شبيها بسلوك الديريين • وذكرت من قبل كيف ساد الاعتقاد بين الصليبيين بأن موتاهم هم فى عداد الشهداء عندما بدأت انتصاراتهم تلوح فى الأفق • ولكن

فكرة الاستشهاد التى تناولتها روايات شهود العيان ، كانت فكرة فجة لم تكتمل ، وكان على روبرت وجيبير وبولدريك وضع الآسس اللاهوتية الراسخة لهذه الفكرة وذلك بربطها بالمحبه المسيحية • وكان الاستشهاد فى نظرهم تعبيرا عن حب الصليبيين لله ولاخوانهم • وكان الاستشهاد عمـلا اختياريا يضحون خلاله بالحياة الدنيوية مقابل حصولهم على الحياه الأبدية • وأكد جيبير على حقيقة ان العلمانيين هم الذين نالوا الشهادة • وخصص فقرة كاملة فى كتابه عن فارس يدعى متى كان ضمن جيش بطرس الناسك وقتله المسلمون لرفضه اعتناق الاسلام بعد أن أسروه فى آسيا الصـغرى • وكان متى صـديقا له ، وكان والد متى يدير اقطاعة فى اقطاعات أسرته ثم خلف متى والده فى ادارة هذه الاقطاعة • وخرج جيبير عما هو مألوف فى الكتابة وتحـدث عن دماثة أخلاق متى • وذكر أنه كان نبيل المولد وفارسا صالحا ، فهو لم ينزلق الى نزق الفسوق والطيش ، كما هو الحال مع معظم الفرسان • وفى القسطنطينية وبالعصر الامبراطورى كان متى مشهورا بالحرص الشديد الذى أبداه بشـأن الطقـوس الدينية المتعلقة باجراءات الحج الى بيت المقدس • وكان متى مداوما على الصلاة حتى بدت حياته وكأنها حياة أسقف أكثر من مجرد حياة فارس • وكان ورعا ، ويقدم الصدقات، ويتصرف كالقديسين ، ومن ثم استحق اكليل الشهادة الذى لم يكن هناك شيء خيرا منه • وضرب جيبير مثلا بحياة متى وطريقة موته ليوضح فكرة مهمة بالنسبة اليه . وهى أن شهداء الحرب الصليبية لم يكونوا من القساوسة فحسب أو من المثقفين وانما من المحاربين الذين كان بعضهم من عامة الناس • ولم يكن ثمة أمل من قبل فى أن يكون هؤلاء العامة

شهودا على ايمانهم • فجاءت الحروب الصليبية لتوفر لهم هذا الأمل• وكانت السيرة الذاتية التى كتبها جيبير عن حياة متى خير دليل على ما يمكن أن يفعله رجل من العامة لنيل الخلاص •

وكانت القصة التى رواها روبرت وجيبير وبولدريك والخاصة باظهار قوة الله في الحروب الصليبية التى خاضت غمارها الصفوة المختارة من الفرسان الفرنسيين العلمانيين الذين انتهجوا نوعا من الحياة الديرية المؤقتة في جيش كان أشبه بالدير في جميع نواحيه ، ما حلا النواحي الديمقراطية والحياة اليومية ، هى قصة مثالية • ولم يغض الكتاب الثلاثة النظر عن النواحى السلبية للحملة الصليبية ، ولكنهم لم يستفيضوا فى ابراز هذه النواحي• ومع ذلك، فالصورة التى رسموها ظلت معبرة عن الحرب الصليبية على نحو مميز حتى وان كانت حربا صليبية يغلب عليها الطابع اللاهوتى • ولم تكن أية فكرة قدموها جديدة تماما ، نظرا لأن كل الأفكار التى ترددت قد وردت فى مصادر أخرى مثل خطابات شهود العيان وكتاباتهم التاريخية ، غير أن الآخرين قدموا فى أغلب الأحوال أفكارا بدائية وساذجة فى حين صاغ كتابنا الثلاثة هذه الأفكار بأسلوب متطور ومترابط ، مما جعلها تلقى قبول رجال الدين • ثم أعلنت الكنيسة عن قيام الحملة الصليبية ودعت لها ، ولكنها لم تقم بتفسير الولاء الصادق الذى أظهره عامة الناس تجاه هذه الحملة بعبارات دينية • وصاغ روبرت ، وجيبير ، وبولدريك الأفكار المتاحة لديهم فى قالب لاهوتى وشعبى •

الخاتمـــة

كانت دعوة البابا أوربان الثانى الى الفرسان العلمانيين فى ١٠٩٥ ــ ١٠٩٦م ذروة الحركة الكنسية تجاه العلمانيين التى كانت قد بدأت فى أوائل القرن الحادى عشر • وباعتبار أوربان الثانى سليل عائلة صغيرة تنتمى الى الطبقة النبيلة فى اقليم شامبانيا ، وبصفته أحد الرهبان الكلونيين ، فقد عمل على تنشيط التحالف بين الـكرسى البـابوى والشعب الفرنسى الذى ظل فى حالة خمول لما يزيد على مائتى عام • وقام أوربان الثانى بدعوة الفرسان الفرنسيين للمشـاركة فى مغامرة أطلق عليها رحلة الحج ، والغريب فى ذلك أنها كانت موجهة بكل صراحة للشباب الأقوياء ، وفى الـوقت نفسه تضمنت الدعوة شن حرب لتحقيق هدفين ، وهما فك القيود المفروضة على اخوانهم النصـارى فى الشرق الذين ترتبط مصالحهم بمصالح اخوانهم فى العـالم المسـيحى ، والعمل على الاستيلاء على بيت المقدس • وتبع عادة تقليدية بين المصلحين وذلك بالاشارة الى الحرب الصليبية على أنهـا حرب المسيح ذاته ، ويجب أن تدور رحاها وفقا لارادة الله ومشيئته • وساوى البابا أوربان بين الانضمام الى الحـرب الصليبية وبين محبة الله والاخوة فى الانسـانية ، عـلى أن تكون أفعال المشاركين مطابقة لوصايا المسيح الداعيـة الى

حمل الصليب ، واتباعه بعد ترك الأسرة والولد والأملاك ٠ وكان على الصليبيين القادرين أن يقسموا قسم الولاء للحملة الصليبية ، وكان هذا القسم شبيها بالقسم الذى اداه الحجاج من قبل ٠ ونظرا لان اوربان الثانى كان مدركا تماما لطول المدة التى ستستغرقها الحملة والمشاق التى ستنطوى عليها ، فانه اعتبر تلك الحملة عملا تكفيريا مرهقا حتى يتمكن الصليبى من الحصول على رضاء الله ، وهو عمل يفوق أية عقوبة يمكن أن ينزلها الله بالصليبيين لغفران ذنوبهم ٠ ولم يكن ثمة شيء جديد أضافه أوربان الثانى الى الأفكار السائدة آنذاك ، فقد كانت هذه الأفكار متداولة فى دوائر الاصلاح فى ايطاليا ، ولولا النجاح الباهر الذى حققته دعوته للحرب الصليبية لاعتبرنا أن ما بذله من جهد للدعوة للحرب الصليبية كان مجرد مثال آخر من أمثلة المغالاة فى الكلام الذى حظى بتأييد المصلحين من رجال الدين فى عصره ٠

بيد أن جهود البابا أوربان الثانى الخاصة بالدعوة للحرب الصليبية حققت نتيجتين مهمتين ٠ النتيجة الأولى هى أن النصارى فى الغرب استجابوا لتلك الدعوة بحماسة شديدة ٠ ومما لا شك فيه أن أولئك الذين انضموا للحرب الصليبية ، وكذلك الأسر التى قدمت المساعدات المالية لهم ، كانوا جميعا مدفوعين بدافع المثالية ٠ على أن التعليل الوحيد الذى يفسر حماسة النصارى فى الغرب لدعوة البابا أوربان هو أن دعوته كانت بمثابة تشجيع لمطامع العامة المتزايدة ، كما أن اليد التى مدتها الكنيسة بمثابة تشجيع لمطامع العامة قد وجدت من يمسك بها ٠ وبالطبع لا يعنى ذلك أن العامة

كانوا يفكرون مثلما يفكر البابا، برغم أنه قد انحدر من نفس الخلفية ، وكان هناك مثال مبكر يدل على انفصال الأفكار ، وافصح هذا المثال عن نفسه في صورة المذابح المروعة التي اقترفها الصليبيون ضد اليهود ، بعد أن إعتقد الكثير من الصليبيين بأن واجبهم يفرض عليهم ضرورة الثأر من اليهود • ونظرا لأن العامة دعوا لمساعدة اخوانهم المضطهدين، ولتحرير ارث أباهم وسيدهم ، فقد فكروا ـ كما كان عهدهم دائما ـ بالعقلية الاقطاعية والعصبية القبيلة ، فسالت دماء العداوة ، ولم يكن من السهل عليهم التمييز بين « الشعوب » التي وصموها جميعا بأنها ، « أعداء المسيح » •

أما النتيجة الثانية فكانت الحرب الصليبية ذاتها والتجارب الدامية التي مر بها الصليبيون ، مثل معاناتهم ، وخوفهم وحنينهم للوطن والأسرة ، وحالة المهانة والاذلال التي عاني منها الفرسان الذين فقدوا خيولهم وتحولوا الى حالة الفقر المدقع ، وتزايدت حدة المشاعر في جيش يتدثر برداء القوة الخارقة للطبيعة المتمثلة في الرؤى ، والاشارات السماوية ، وظهور الأطياف • ويحيا في جو تسوده انطقوس الدينية التي كان يمارسها الحجيج • وليست مفاجأة ان الصليبيين كانوا مندهشين او أنهم أصبحوا مقتنعين بان العملية العسكرية التي قاموا بها هي حرب الله ، وأنهم يسيرون وفقا لقدرته الالهية ، وأنه هو الذى اختارهم ، وان قتلاهم في عداد الشهداء • وكان طبيعيا بالنسبة لهم ان يربطوا كل ما حدث لهم بالكتاب المقدس ، وبالمحن والانتصارات التي عاشها بنو اسرائيل • بيد أن معظم رجال الدين الذين صاحبوا الحملة الصليبية الأولى لم يكونوا على

مستوى عال أو مقدرة عقلية فائقة . فكانت المحصلة النهائية مخجلة . وساذجة ، كما تدل على ذلك روايات شهود العيان .

تعرضت رسالة أوربان الثاني للتحريف والتبسيط لتصبح في مستوى العامة ، كما تعرضت ايضا للتوضيح الى حد كبير ، وحدث ذلك بعد الصدمة التي تعرض لها الصليبيون اثر الحرب ، ولكن النتيجة كانت قاسية ، اذ لم يستطع رجال الدين الاستفادة من هذه الرسالة ، فقد كانت هناك حاجة ماسة الى اعادة صياغتها لاهوتيا ، ولا سيما وان معظم رجال الدين كانوا متحفظين في أفكارهم المتعلقة بالحاجة الى استخدام العنف ، أكثر من المصلحين المتطرفين . ويعود الفضل الى الكتاب الذين كتبوا بعد الحملة الصليبية الأولى ، وبخاصة روبرت الراهب ، وجيبير ، وبولدريك ، الذين عملوا على تضييق الفجوة التي كانت تفصل بين علماء اللاهوت وعامة الشعب ، برغم أنهم لم يكن لديهم أمل في تقريب الفجوة الشاسعة التي كانت تفصل بينهما . ووضع كل من روبرت ، وجيبير ، وبولدريك الطبيعة المعجزة للحرب الصليبية في اطار التاريخ الذى تدخلت العناية الالهية في حوادثه ، واعتبروا الجيش الصليبي كما لو كان ديرا كبيرا متنقلا ، واعتبروا الصليبيين كما لو كانوا قد نذروا أنفسهم ليكونوا رهبانا بصفة مؤقتة واختاروا ـ بمحض ارادتهم ـ التغرب عن أوطانهم من أجل محبة الله ومحبة اخوانهم النصارى ، وارتبطوا برباط الاخوة مع الآخرين ، وساروا في الطريق الذى قد يؤدى الى الاستشهاد . وجعلوا من يقرأ لهم يشعر بأن أهداف المصلحين الكنسيين والرغبة في نشر القيم الديرية خارج العالم المسيحي ، لابد أنها بدت ممكنة التحقيق في نهاية المطاف .

واذا كان روبرت ، وجيبير ، وبولدريك مخطئين ، فقد تركوا وراءهم نموذجا للفكر استمد منه الصليبيون ، ولكن لابد أنه بقى فترة طويلة من الزمن • ولكن الانطباع الذى خرجت به هو أنه ، بالرغم من أن الدعوة للحملة الصليبية الثانية ، وكذلك الاقبال على الاشتراك فى هذه الحملة ، قد اتسما بطابع القيم الديرية — وهذا فى حد ذاته لا يدعو للدهشة حين يدرك المرء الدور الريادى الذى قام به رجال عظام مثل البابا يوجينيوس الثالث Eugenius III ، والقديس برنارد St Bernard — فان الحملات الصليبية ، كانت قد بدأت تتخلى عن هذه القيم الديرية منذ عام ١٢٠٠م ، وقد يرجع ذلك الى أن دور الفرد من العامة ، قد بدأ يحظى بالاهمية مع بداية القرن الثانى عشر ، أو قد يرجع الى وضع النظام العسكرى الذى كان يجمع بين الصفوة من رجال الدين والعسكريين ، مما جعل القيم الديرية تنأى بنفسها بعيدا ، فتبتعد عن قيم العامة من الصليبيين • هذا مجرد انطباع خرجت به كما قلت • ولن أستطيع أن أقطع الشك باليقين الا بعد التحرى واستقصاء الأمر • ولكن أيا كانت المحصلة ، فلا شىء يمكن أن ينال من الانجاز الفكرى لأولئك الكتاب الثلاثة ، الذين كانوا خير من مثل آخر جيل اشتهر باعلاء القيم الديرية والثقافية •

كشـاف أبجدى

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

صدر من هذه السلسلة

أولاً: الموسوعات والمعاجم

ليونارد كوتريل، الموسوعة الأثرية العالمية
وليم بيتر، معجم التكنولوجيا الحيوية
و.د. هاملتون وآخرون، المعجم الجيولوجي
ح. كارفيل، تبسيط المفاهيم الهندسية
ج.ب. كوملان، الأساطير الإغريقية والرومانية

ثانياً: الدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر

د. محمد نعمان جلال، حركة عدم الانحياز في عالم متغير
اريك موريس، الآن هو، الإرهاب
ممدوح عطية، البرنامج النووي الإسرائيلي
ازرا . فوجل، المعجزة اليابانية(٢ ج)
د. السيد نصر الدين، إطلالات على الزمن الآتي
بول هاريسون، العالم الثالث غداً
مجموعة من العلماء ، مبادرة الدفاع الاستراتيجي: حرب الفضاء
و. مونتجمري وات، الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر
بادي أونيمود، أفريقيا الطريق الآخر
فانس بكارد ، إنهم يصنعون البشر (٢ ج)
مارتن فان كريفلد، حرب المستقبل.
الفين توفلر ، تحول السلطة (٢ ج)
ممدوح حامد عطية ، إنهم يقتلون البيئة
السيد أمين شلبي، جورج كينان
يوسف شرارة ، مشكلات القرن الحادي والعشرين والعلاقات الدولية
د. السيد عليوه ، إدارة الصراعات الدولية
د. السيد عليوه ، صنع القرار السياسي
جرج كاشمان، لماذا تنشب الحروب(٢ ج)
ايمانويل هيمان، الأصولية اليهودية

ثالثاً: الاقتصاد

نورمان كلارك، الاقتصاد السياسي للعلم والتكنولوجيا
سامي عبد المعطي، التخطيط السياحي في مصر
جابر الجزار، ماسترخت والاقتصاد المصري
ميكائيل البي، الانقراض الكبير
ولت ويتمان روستو، حوار حول التنمية الاقتصادية
فيكتور مورجان، تاريخ النقود

رابعاً: العلوم والتكنولوجيا

فيرنر هيزنبرج ، الجزء والكل محاورات في مضمار الفيزياء الذرية
فريد هويل، البذور الكونية
وليام بيتر، الهندسة الوراثية للجميع
جوهان دورشنر، الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد
اسحق عظيموف، الشموس المتفجرة (أسرار

السوبرنوفا)
روبرت لافور، البرمجة بلغة السي باستخدام تيربوسي (٢ج)
ادوارد ايه فايجنباوم، الجيل الخامس للحاسوب
محمود سرى طه، الكمبيوتر في مجالات الحياة
مصطفى عناني، الميكروكمبيوتر
ي. رادو نسكايا جابوتنسكى، الإلكترونيات والحياة الحديثة
فرد س. هيس، تبسيط الكيمياء
كاتى ثير، تربية الدواجن
محمد زينهم، تكنولوجيا فن الزجاج
لارى جونيك، الهندسة الوراثية بالكاريكاتير
جينا كولاتا، الطريق إلى دوللى
دوركاس ماكلينتوك، صور أفريقية: نظرة على حيوانات أفريقيا
اسحق عظيموف، أفكار العلم العظيمة
د.مصطفى محمود سليمان، الزلازل
بول دافيز، الدقائق الثلاث الأخيرة
ولليام . ماثيور، ما هي الجيولوجيا
اسحق عظيموف، العلم وآفاق المستقبل
ب. س. ديفيز، المفهوم الحديث للمكان والزمان
محمود سرى طه، الاتجاهات المعاصرة للطاقة
يانش هوفمان، آينشتين
زافيلسكى ف. س.، الزمن وقياسه
ج. هوز، تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
د.فاضل أحمد الطائي، أعلام العرب في الكيمياء
رولاند جاكسون، الكيمياء في خدمة الإنسان
إبراهيم القرضاوى، أجهزة تكييف الهوا .
ديفيد الدرتون، تربية أسماك الزينة
أندرية سكوت، جوهر الطبيعة
إيفور إكيموشكين، الإيكولوجي
إدوارد دو بونو، التفكير العملي

خامساً: مصر عبر العصور

محرم كمال، الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء
فرانسوا دوماس،آلهة مصر
سيريل ألدريد، أخناتون
د. لينوار تشامبرز رايت، سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر
موريس بيرابر، صناع الخلود
كنت . كتشن، رمسيس الثاني: فرعون المجد والانتصار
ألن شورتر، الحياة اليومية في مصر القديمة
ونفرد هولمز، كانت ملكة على مصر
جاك كرابس جونيور،كتابة التاريخ في مصر
نفتالى لويس، مصر الروماني
عبده مباشر، البحرية المصرية من محمد على للسادات (١٨٠٥١٩٧٣)
د. السيد أبو سديرة، الحرف والصناعات في مصر الإسلامية
أ. أ. س. ادواردز، أهرام مصر
سومرز كلارك، الآثار القبطية في وادى النيل
كريستيان ديروش نوبلكور، المرأة الفرعونية
بيل شول وأدبنيت، القوة النفسية للأهرام
جيمس هنري برستد، تاريخ مصر
د. بيارد دودج، الأزهر في ألف عام
أ. سبنسر، الموتى وعالمهم في مصر القديمة
ألفريد ج. بتلر ، الكنائس القبطية القديمة في..

مصر (ج٢)
روز اليندم، الطفل المصري القديم
ج. و. ميكفرسون، الموالد في مصر
جون لويس بوركهارت، العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية
سوزان راتييه، حتشبسوت
مرجريت مري، مصر ومجدها الغابر
أرلج فولكوف، القاهرة مدينة الألف ليلة وليلة
د. محمد أنور شكرى، الفن المصرى القديم
ج. جيمز، الحياة أيام الفراعنة
لورد كرومر، الثورة العرابية
إيفان كونج، السحر والسحرة

سادساً: الكلاسكيات

جاليليو جاليليه ، حوار حول النظامين الرئيسين للكون (٣ج)
وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (٣ج)
أبو الفتح الفردوسي ، الشاهنامة (٢ج)
أدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها
ناصر خسرو علوي، سفر نامة
فيليب عطية، تراثيم زرادشت

سابعاً: الفن التشكيلي والموسيقى

عزيز الشوان، الموسيقى تعبير نغمي ومنطق
ألبرز جرايتر، موتسارت
شوكت الربيعي، الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي
ليوناردو دافنشي، نظرية التصوير
د.غبريال وهبه، أثر الكوميديا الإلهية لدانتي في الفن التشكيلي
روبين جورج كولنجوود، مبادئ الفن
مارتن جك، يوهان سبستيان باخ
ميخائيل ستيجيمان، فيفالدى
هربرت ريد، التربية عن طريق الفن
أدامز فيليب، دليل تنظيم المتاحف
حسام الدين زكريا، انطون بروكنر
جيمس جينز، العلم والموسيقى
هوجولا يختنتريت، الموسيقى والحضارة
محمد كمال إسماعيل، التحليل والتوزيع الأوركسترالي
صالح رضا، ملامح وقضايا في الفن التشكيلي المعاصر
أدموندو سوليمي، ليوناردو

ثامناً: حضارات عالمية

جاكوب برونوفسكى، التطور الحضاري للإنسان
س. م. بورا، التجربة اليونانية
جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام
. د. جرن، الحيثيون
ل.ديلابورت، بلاد ما بين النهرين
ج.كونتنو، الحضارة الفينيقية
آدم متز، الحضارة الإسلامية
جوزيف ييد هام، تاريخ العلم والحضارة في الصين
ستيفن رينسيمان، الحضارة البيزنطية
سبتينو موسكاتى، الحضارات السامية

تاسعاً: التاريخ

جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى
هنري بيرين، تاريخ أوربا في العصور الوسطى
أرنولد توينبي، الفكر التاريخي عند الإغريق
بول كولز، العثمانيون في أوربا
جوناثان ريلي سميث ، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية
د. بركات أحمد، محمد واليهود
ستيفن أوزمنت، التاريخ من شتى جوانبه (٣ج) و.
بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى،
فلاديمير تيسمانيانو، تاريخ أوربا الشرقية
ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية (٢ج)
نويل مالكوم، البوسنة
جاري ب . ناش، الحمر والبيض والسود
أحمد فريد رفاعي، عصر المأمون (٢ج)
آرثر كيستلر، القبيلة الثالثة عشر ويهود اليوم
تاجاي يتسيو، الثورة الإصلاحية في اليابان
محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية
د. إيرار كريم الله، من هم التتار
ستيفن رانسيمان، الحملات الصليبية
ليان .ويد جري، التاريخ وكيف يفسرونه (٢ج)
جوسيبي دي لونا، موسوليني
جوردون تشيلد، تقدم الإنسانية
هـ. ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية (٤ج)
يوهان هويزنجا، اضمحلال العصور الوسطى
هـ ج ويلز، موجز تاريخ العالم

عاشراً: الجغرافيا والرحلات

ت.و. فريمان الجغرافيا في مائة عام
ليستر ديل راي، الأرض الغامضة
رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)
اميليا ادواردز، رحلة الألف ميل
رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)
رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (٣ج)
رحلة عبد اللطيف البغدادى
رحلة الأمير رودلف إلى الشرق (٣ج)
يوميات رحلة فاسكو داجاما
س . هوارد، أشهر الرحلات في غرب أفريقيا
إريك أكسيلون، أشهر الرحلات في جنوب أفريقيا

حادي عشر الفلسفة وعلم النفس

جون بورر، الفلسفة وقضايا العصر (٣ج)
سوندراي، الفلسفة الجوهرية
جون لويس، الإنسان ذلك الكائن الغريب
سدني هوك، التراث الغامض: ماركس والماركسيون
إيفري شاتزمان، كوننا المتمدد
ادوارد دوبونو، التفكير المتجدد
رونالد دافيد لانج، الحكمة والجنون والحماقة
توماس هاريس التوافق النفسي: تحليل المعاملات
د. أنور عبد الملك، الشارع المصري والفكر
نيكولاس ماير، شارلوك هولمز يقابل فرويد
أنطوني دي كرسبني، أعلام الفلسفة المعاصرة
جين وروبرت هاندلي، كيف تتخلصين من القلق؟
هـ ج. كريل، الفكر الصيني
أوجست دييس، أفلاطون
د. السيد نصر الدين، الحقيقة الرمادية

برتراند راسل، السلطة والفرد
مارجريت روز، ما بعد الحداثة
كارل بوبر، بحثا عن عالم أفضل
ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة
جوزيف داهموس، سبعة مؤرخين في العصور الوسطى
د. روجر ستروجان، هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال
إريك برن، الطب النفسي والتحليل النفسي
برلتون بورتر، الحياة الكريمة (٢ ج)
فرانكلين ل. باومر، الفكر الأوروبي الحديث (٤ ج)
هنري برجسون، الضحك
أرنست كاسيرر، في المعرفة التاريخية
يعقوب فام، البراجماتية

ثاني عشر: العلوم الاجتماعية

د. محيي الدين أحمد حسين، التنشئة الأسرية والأبناء الصغار
م. و ترنج، ضمير المهندس
رايموند ويليامز، الثقافة والمجتمع
روى روبرتسون، الهيروين والإيدز
بيتر لوري، المخدرات حقائق نفسية
ليوبو سكاليا، الحب
برنسلاو مالينوفسكي، السحر والعلم والدين
بيتر رداي، الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي
بيل جيرهارت، تعليم المعوقين
ارنولد جزل، الطفل من الخامسة إلى العاشرة
رونالد د. سمبسون، المعلم والطلاب والمدارس

ثالث عشر: المسرح

لويس فارجاس، المرشد إلى فن المسرح
برونو باشينسكى، حفلة ماليكان
جلال العشري، فكرة المسرح
جان بول سارتر؛ جورج برناردشو؛ جان أنوى مختارات من المسرح العالمي
د.عبد المعطى شعراوي، المسرح المصري المعاصر: أصلة وبدايته
توماس ليبهارت، فن المايم والبانتومايم
زيجمونت هبيز، جماليات فن الإخراج
يوجين يونسكو، الأعمال الكاملة (٢ ج)

رابع عشر: الطب والصحة

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف، وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء
د.جون شندلر، كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة
د.ناعوم بيتروفيتش، النحل والطب
م. هـ. كنج، التغذية في البلدان النامية

خامس عشر: الآداب واللغة

برتراند رسل، أحلام الأعلام وقصص أخرى
ألدس هكسلي، نقطة مقابل نقطة
جول ويست، الرواية الحديثة : الإنجليزية والفرنسية
أنور المعداوي، على محمود طه: الشاعر والإنسان
جوزيف كونراد، مختارات من الأدب القصصي

تاجور شين بن بنج وآخرون، مختارات من الآداب الآسيوية
محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية
مختارات من الشعر الأسباني: في
جابرييل جارسيا ماركيز، الجنرال في المتاهة
سوريال عبد الملك، حديث النهر
د.رمسيس عوض، الأدب الروسي قبل الثورة البلشفية وبعدها
مختارات من الأدب الياباني:الشعر – الدراما الحكاية القصة القصيرة
ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر
نادين جورديمر وآخرون، سقوط المطر وقصص أخرى
رالف ئى ماتلو، تولستوي
والتر ألن، الرواية الإنجليزية
هادى نعمان الهيتي، أدب الأطفال
مالكوم برادبرى، الرواية اليوم
لوريتو تود، مدخل إلى علم اللغة
إفور إيفانز، موجز تاريخ الدراما الإنجليزية
ج. س. فريزر، الكاتب الحديث وعالمه (٢ج)
جورج ستاينر، بين تولستوي ودستويفسكي (٢ج)
ديلان توماس، مجموعة مقالات نقدية
فيكتور برومبير، ستندال
فيكتور هوجو، رسائل وأحاديث من المنفى
يانكو لافرين، الرومانتيكية والواقعية
د.نعمة رحيم الغزاوي، أحمد حسن الزيات كاتباً وناقداً
ف.برميلوف، دستويفسكي
لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، الدليل الببليوجرافيا
محسن جاسم الموسوى، عصر الرواية : مقال في النوع الأدبي
هنري باربوس، الجحيم
ميجل دي ليبس، الفئران
روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال العلمي
يانيس ريتسوس، البعيد (مختارات شعرية)
إفور ايفانز، مجمل تاريخ الأدب الإنجليزي
فخري أبو السعود، في الأدب المقارن
سليمان مظهر، أساطير من الشرق
صفاء خلوصي، فن الترجمة
ف.ع. أدينكوف، فن الأدب الروائي عند تولستوي

سادس عشر: الإعلام

فرانسيس ج. برجين، الإعلام التطبيقي
بيير البير، الصحافة
هربرت شيلر، الاتصال والهيمنة الثقافية

سابع عشر: السينما

هاشم النحاس، الهوية القومية في السينما
ج.دادلى، نظريات الفيلم الكبرى
روى آرمز ، لغة الصورة في السينما المعاصرة
هاشم النحاس، صلاح أبو سيف (محاورات)
جان لويس بورى وآخرون ، في النقد السينمائي الفرنسي
محمود سامى عطا الله ، الفيلم التسجيلي
ستانلى جيه سولومون ، أنواع الفيلم الأمريكي

جوزيف وهاري فيلدمان، ديناميه الفيلم
فلوري حفني، الإنسان المصري على الشاشة
موني براح، السينما العربية من الخليج إلى المحيط
حسين حلمي المهندس، دراما الشاشة :بين النظرية والتطبيق للسينما والتليفزيون (٢ج)
إدوارد بري، عن النقد السينمائي الأمريكي
جوزيف م. بوجز ، فن الفرجة على الأفلام
سعيد شيمي، التصوير السينمائي تحت الماء
دوايت سوين ، كتابة السيناريو للسينما
هاشم النحاس، نجيب محفوظ على الشاشة
يوجين فال، فن كتابة السيناريو
دانييل اريخون، قواعد اللغة السينمائية
كريستيان ساليه ، السيناريو في السينما الفرنسية
ـ آلان كاسبيار، التذوق السينمائي
تون بار، التمثيل للسينما والتليفزيون
بيتر نيكولز، السينما الخيالية
بول وارن، خفايا نظام النجم الأمريكي
دافيد كوك، تاريخ السينما الروائية

ثامن عشر: كتب غيرت الفكر الإنساني

سلسلة لتلخيص التراث الفكري الإنساني في صورة عروض موجزة لأهم الكتب التي ساهمت في تشكيل الفكر الإنساني وتطوره مصحوبة بتراجم لمؤلفيها وقد صدر منها ٩ أجزاء.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٤٢٠٠/١٩٩٩

ISBN — 977 — 01 — 6481 — X

في السنوات الأخيرة للألفية الأولى الميلادية، استبد بسكان أوروبا – التي كانت تعيش في جهالات عصورها الوسطى بظلماتها – الاعتقاد بأن نهاية العالم باتت وشيكة، وبدأ الناس يترقبون علامات الساعة، فأخذوا يفسرون كل ظاهرة طبيعية، وكأنما هي إشارة ربانية تنذرهم باقتراب يوم الحساب. وفي ظل ذلك المناخ المتأجج بالعاطفة الدينية والرغبة في التماس الخلاص الروحي، تضافرت عوامل عدة اجتماعية واقتصادية ودينية لكي تهيئ الطريق لقيام سلسلة من الحملات العسكرية تحت راية الصليب لكي تستعيد، على حد ما زُعم – الأراضي المقدسة التى شهدت مولد المسيحية – من أيدى الشرق الإسلامي. وقد بوغت الشرق الذى كان يعيش في أزهى عصور حضارته العربية الإسلامية بشراسة تلك الهجمة التى لم يستطع حيالها دفعاً بعد أن أضناه طول الصراعات والانقسامات السياسية والمذهبية، فتمكن الصليبيون من تأسيس عدة ممالك على امتداد سواحل الشام. وظلت الحرب سجالاً بين الغرب والشرق على مدار نحو ثلاثة قرون، ولم تنقض إلا بعد أن بدأت تخبو جذوة الروح الصليبية في أوروبا إثر النكبات التي حاقت بجيوشها في الشرق من ناحية، ونتيجة للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية وتضاؤل نفوذ الكنيسة على الحياة السياسية هناك من ناحية أخرى. وهذا الكتاب يغوص بنا إلى جذور تلك الحروب، وأبعادها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية. ورغم انقضاء أكثر من ألف عام على مولد فكرة الحروب الصليبية، إلا أن دراستها لا تخلو أبداً من فائدة، لاسيما في العصور التى تجتاحها تيارات التعصب الدينى، وتسعى فيها قوى لاستغلال الدين لتحقيق أخس المطامع الدنيوية على حساب البسطاء والسـ[illegible] بالشعارات الطنانة، ويتصورون أن الدماء والكراهية يمكن أن تكـ[illegible] الروح.

٥٢٥ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب